# رؤى لوكريثيا

خوسيه ماريا ميرينو

ترجمة صالح علماني





صدرت الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٣ عن

دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر

مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية

صندوق بريد ٥٨٢٥

الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

*Las visiones de Lucrecia*



الترقيم الدولي: 9789992194737

٢٤٦٨١٠٩٧

ر بشركة صحارا للطباعة



خوسيه ماريا ميرينو

# رؤى لوكريثيا

ترجمة
صالح علماني






«جاءني الرجل المعهود، وكان يحمل في يده
مشعلًا ملتهبًا، وقال لي: من أجل ظلمة الأزمنة
لا بد من كل هذا النور، لأن السماء تعدكم بأن
تظلوا مغطين دومًا بالسواد».

**لوكريثيا دي ليون**

«كتب «آرثر شوبنهاور» أن الأحلام واليقظة هما
صفحات من الكتاب نفسه، وأن قراءتها بالترتيب هو
عيش الحياة، وتصفحها هو الحلم».

**خورخي لويس بورخيس**

«لا شيء من الحشو في الأحلام، فهي إظهار،
لا سبيل إلى قمعه، لشيء خفي أو أُخفي بمرور
الزمن وانقضاء التاريخ، بسبب البغضاء، أو الخوف،
أو حتى بسبب الأمل».

**ماريا ثامبرانو**

# ١

جابت «لوكريثيا دي ليون» تلك الأماكن نفسها مرَّات كثيرة في اليقظة، وفي الأحلام أحيانًا.

عند نزولها باتجاه النهر، تمشي بخطوات سريعة، لكنها تحاول الاستناد جيدًا على كعبيها كي لا تنزلق في المواضع الرملية على المنحدر، أو تتعثر في الحفر التي أحدثها جرف الأمطار. وعندما تصعد إلى المدينة، تمضي بخطى بطيئة، حانية جسدها لتقاوم السفح الصاعد، وممعنة النظر كذلك إلى الأرض غير المستوية. كانت تتعثر أحيانًا، أو تقع أرضًا. وإذا كانت تحلم، تتحول العثرات إلى سقوط بطيء أشبه بطفرات طيران قصيرة، ويغطس جسدها عند السقوط في عجينة لزجة وغير متماسكة تخدع بمظهر الأرض الصلبة والمنيعة.

على ذلك السفح يمر درب بين بساتين وأسيجة وأكواخ تحدد تخوم الربض وبداية البرية التي تتواصل متموجة إلى أن تنمحي معالمها في البعيد.

في مكان ضيق ينتصب فيه صليب، يقع الحدُّ بين المدينة ـ ترسمه دسكرة متواضعة ومبعثرة ـ وخلاء البرية حيث خضرة أوراق اللاذن

وأشجار السنديان القاتمة التي تبرز على خلفية حمرة الأرض المغطاة بالقش.

هناك اعتاد البياطرة فصد دم البهائم المريضة. وعند قاعدة الصليب، حيث الأرض الجرداء المضمخة بكثير من الدم، تفوح رائحة عفونة قوية، محددة الخثرة الواسعة والقاتمة لجرح مفتوح بصورة دائمة على الأرض، تعجُّ فيه وسط الطنين أسرابٌ من الذباب الأزرق والأخضر الضخم، والنعرة ذات اللسع الضاري.

لقد اعتادت «لوكريثيا» منذ طفولتها، في الربيع والخريف، المشي في تلك الدروب شديدة الانحدار، برفقة أمها، للبحث قرب النهر عن أعشاب وثمار تبيعانها معًا بعد ذلك، من بيت إلى بيت، بتكتم اعتبرته «لوكريثيا»، على الفور، خجلًا من عمل لا يليق بأسرة، على الرغم من بؤسها، يعمل ربها معقبًا لأعمال بعض المصرفيين الجنويين.

كانت كل منهما تحمل سلة من القصب، وفيها تضعان، حسب الموسم، الهليون السنبلي، وأزهار البنفسج، وثمار القطلب، والتوت البري، والفطر، وكذلك الأعشاب التي تعرفها أمها: الفرفحين للتخلص من ضَرَسِ الأسنان، وإكليل الجبل لتبخير الفراش من السحر، والخشخاش من أجل مزجه بالعصير، ورِعي الحمام الذي يؤخذ في صباح عيد «سان خوان»، وزعتر الصلصة، والأوريجانو، والخس وأعشاب مختلفة أخرى لإعداد السَّلطة.

ومع أنهما تسلكان في الذهاب أقصر طريق، باجتياز بوابة «لابيجا»، إلا أن أمها، لدى الرجوع، كانت تُفضل الالتفاف عبر تلك السفوح التي تبعدها عن حيها وهي تعرض بضاعتها، وتخفيها عن أعين ناظري الطرق

ومأموري القضاء. وتسعيان للرجوع مع الضوء دومًا، لتجنب هجمات بعض السُّرَّاق الجوالين الذين يغتصبون النساء أحيانًا، بل يصل الأمر بهم إلى قتلهن إذا ما وجدوهن وحيدات في الجبل.

بعد النزول حتى النهر، كان أشد ما يروق «لوكريثيا» هو الانتقال إلى الضفة الأخرى، بعيدًا عن مغاسل الثياب، في النقطة التي ترتفع فيها كتلة المدينة أمامها في الأعالي، في تماسك عنقودي من الأبنية يجعلها تشعر بأنها متضائلة وغائبة.

أمامها، في الأعلى، تبدو مدريد حيوانًا ضخمًا، مثل ذلك التنين الذي يهدد الفارس في الحكايات، أو الملاك ميخائيل في القصص الديني. رأسه هو القصر، والأبراج قرونه، وفي أحشائه الصخب الذي لا تستطيع سماعه من مكانها هناك، والروائح القوية التي لا تستطيع أن تشمها، لكنها تستحضرها بمخيلتها كما لو أنها ترى وتسمع وتشم كل شيء بصورة مباشرة ومتزامنة.

في أحشاء المدينة، وسط حركة مرور العربات والخيالة الحاسمة والسريعة، يمضي ويجيء كهنةٌ وجنود، ورهبان يطلبون الصدقات من أجل الأرواح الهائمة، ومحكومون تحيط الحبال بأعناقهم وهم على حمير تنقلهم بوداعة ليتلقوا جلدات الجلاد، ومتسولون، وأطفال يلعبون لعبة اليعسوب، وبطالون يبددون الوقت إلى أن يحين موعد لعب الورق، وحمالون مع حبالهم، وتائبون يُكَفِّرون عن ذنوبهم، وعجائز متخفيات تحت طرحاتهن السوداء.

في تلك الأحشاء البعيدة تتعالى كل الأصوات التي لا تستطيع «لوكريثيا» سماعها من مكانها هناك، وهي في كل يوم بالنسبة إليها إشارة إلى ما تفتقده:

أصوات تُعلن عن الزلابية وثمار المقلاة، عن الأمشاط والجلود المتبلة، عن الزيتون والجبن الأبيض، وحليِّ الفم والمجوهرات الصغيرة التي تزين قلنسوات الأخريات، وكذلك الأصوات التي تنادي معلنة عن فعالية الأقراص والمقطرات الطبية.

كل ذلك يملأ بالصخب كرش البهيمة، لكنها هي في الخارج. وتتوقف فجأة عن تخيل تلك الحيوية في حركة الشوارع، لتجد نفسها تشغل بؤرة صمت لا يقطعه إلا نباح ما، أو صوت بعيد.

المدينة تبدو هاجعة أو ميتة، بِذرا أسوارها التي تشبه مخالب جامدة.

هناك كانت البهيمة الهائلة، المتراصة، ببدنها ذي الأبراج الدائرية ومكعبات أسوارها الضخمة، تربض وراء الرأس الذي يشكله القصر الفسيح، حيث يشمخ في أحد جانبيه البرج الحديث، وهو أكبر قرونه، برج الملك، البرج الذهبي، حيث تبعث الشمس البريق في الكرات الذهبية الصغيرة على حديد الشرفات والدرابزينات، ويلمع زجاج النوافذ كأنه العيون.

تظل «لوكريثيا» ساكنة تتأمل ذلك البرج، وتتخيل المكان الذي يوجد فيه الملك. وفي بعض الأحيان، عندما تلمح قامة رجل يطل نحو الخارج، تفكر في أنها قامته، وأن الملك هناك، ينظر إليها، ويطفو في وعي طفولتها قلق متناقض يملؤها بمتعة سرية.

في بعض الأيام، كانت تلك اللحظات تتوافق مع ساعة صلاة التبشير ويصل من المدينة الصوت الوحيد الذي يُسمع هنا في الغوطة: صدى دوي النواقيس التي تُقرع من أبراج كنائس كثيرة متفرقة. في ذلك الصوت

الذي يضاعف نغمة متماثلة، يخيل لـ«لوكريثيا» أنها تسمع ترنم أصوات وليس دوي معادن. وبينما هي ترافق، بصوتها، الدعاء الذي تردده أمها، يبعث قرع النواقيس في أعماقها ترتيلات اللعب، مثل ابتهال لالتماس نبوءة الوقواق:

أيها الملك، الملك، الملك

كم سنة سأعيش

في بيتي الذي اشتريت

بعد سنوات قليلة من ذلك، عندما عرفت «لوكريثيا» حيضها الأول، وظهرت إشارات تحولها إلى امرأة، كانت قد عملت في القصر بضعة أشهر، ضمن خدم «دونيا آنا دي ميندوثا»، مربية الأمير «فيليبه».

حينذاك، وبينما هي تجتاز كل يوم أفنية القصر، في الوقت نفسه الذي يبدأ بالمجيء فيه إلى الدواوين أصغر موظفي التاج شأنًا، والتجار والحرفيون الذين يعرضون بضائعهم في فناء جناح الملكة، ترفع «لوكريثيا» عينيها إلى النوافذ في نظرة بحث سريعة، كي لا تضيع الفرصة - من دون أن تتاح لها تلك الفرصة تقريبًا - برؤية شخص العاهل المرهوب والنائي.

لقد التقت به في بعض الأحيان مصادفة. وكانت إحدى تلك المرات عند قيامها بتنفيذ مهمة، وأخطأت في الممرات التي ستوصلها إلى ملحقات أخرى في القصر، فدخلت قاعة فسيحة تتناوب على جدرانها نوافذ ومرايا لامعة ولوحات رسم متعددة الألوان. كان في القاعة شخص واحد فقط،

وعلى الرغم من أن «لوكريثيا» لم تكن قد رأت الملك إلا في مناسبات قليلة جدًّا، إلا أنها عرفت أنه هو.

كان الملك يشبك يديه وراء ظهره، ويتأمل لوحة موضوعة فوق حامل كبير. ظلت «لوكريثيا» متجمدة في مكانها، لا تدري ماذا عليها أن تفعل. استدار الملك ببطء وصوَّب عينيه نحوها، فأحست «لوكريثيا» أن نظرة الملك تخترقها كما لو أن جسدها مصنوع من الشفافية نفسها التي للهواء أو الماء.

تذوقت «لوكريثيا»، وهي تعي ضآلتها، طعم يأس هائل، وشبه لذيذ، له المذاق نفسه الذي تُحدثه فيها رؤية جسد المدينة الهائل من ضفة النهر، والمؤلف في جزئه النبيل من أبنية كبيرة وجميلة مترعة بالترف، يسكنها أناس رفيعو النسب، لا يمكن لأناس مثلها أبدًا بلوغ أمجادهم.

وأخيرًا، قامت بانحناءة خرقاء ورجعت القهقرى حتى الباب. ولكن، قبل أن تستدير لتنصرف، كانت نظرة الملك قد عادت إلى نقطة اهتمامه الأصلية، وبدا أن الواقعة لم تسبب له من الإزعاج أكثر مما يسببه طيران الذبابات التي تحوم في شبه ظلمة القاعة.

وفي إحدى المناسبات التي كان الأمير فيها مريضًا، وارتفعت حرارته كثيرًا، حضر الملك إلى حجراته. وحين خرج، ودَّعته المربية وعدد من الخادمات بالانحناء احترامًا، لكن جلالته توقف وأمرهن بأن ينهضن:

ـ يسعدني أن أعرف أنكن تعتنين جيدًا بابني الأمير. اعلمن أنني أشكر صنيعكن وسأعرف كيف أكافئكن عندما يحين اليوم.

نظر نظرة سريعة إليهن جميعًا، وبدا لـ«لوكريثيا» أنها رأت في عينيه

الصغيرتين غمزة تعرُّفه عليها، كما لو أنها نظرة جديدة تكذِّب عن عمد تلك النظرة الساهية التي انزلقت عليها بكثير من عدم المبالاة عند اللقاء المفاجئ في قاعة المرايا.

تحية الملك تلك كانت بالنسبة إلى المربية وخادماتها مكافأة باهرة، وقالت إن جلالته سيُنعم عليهن جميعهن عندما يتزوجن، إلا أنه كانت هناك مناسبات أخرى مرض فيها الأمير، والتقى الملك بهن مرتين أو ثلاث مرات أخرى، لكنه لم يعد إلى تحيتهن قطُّ، بل كان يمر بجانبهن من دون أن يتوقف، بملامح عبوس ناءٍ.

لم يكونوا يحبون الملك في بيت «لوكريثيا». فمنذ أن أقال، قبل عدة سنوات، الأمين «أنطونيو بيريث» من منصبه، بدأت تتعقد أمور كثيرة، ويتأخر إنجاز كثير من الصفقات. وقد ألحق ذلك ضررًا كبيرًا بمن يعيشون، مثل أبي «لوكريثيا»، من كونهم أشد الوسطاء تواضعًا في مكائد المتنفذين ومعاملات ذوي المصالح المرتبطين بشؤون يتدخل فيها المصرفيون الجنويون، أصدقاء الأمين السابق.

كانوا يتهامسون في بيتها عن الملك، وعن تبديده الثروات على نزواته في البناء، وانغماسه في حروب غير نهائية تدمي البلاد، بينما هو يتسامح بكل صلف مع فساد وزرائه وتدليس مئات ذوي المناصب الذين يملؤون المدينة بالبذخ والهدر.

ويتهامسون عن الملك المعتكف في حجراته لتوقيع ما لا حصر له من الأوراق، والانكباب على ملذاته في حدائقه وحفلات صيده أو الاستمتاع بكنوزه والتباهي بما لديه من رُفات القديسين والآثار الثمينة، بينما الشوارع تعج بالجرحى والمصابين في أعمال بناء قصر

«الإسكوريال»، وبكثير من الفلاحين الذين بلا أرض، ومن أولئك الأقنان السابقين الذين أعتقهم أسيادهم كي يتخلصوا من إطعامهم، وصبية من دون آباء، وصبايا يضطررن إلى بيع أجسادهن للبقاء على قيد الحياة، أو ينادي الدلالون والسماسرة معلنين عن استعدادهن للعمل في البيوت مقابل إطعامهن وحسب.

كانت «لوكريثيا» تسمع أباها يشتم، وتشعر باستياء فريد ضد الملك، كما لو أن تلك الشرور، التي لم تكن قادرة على فهم كل أبعاد طبيعتها ومغزاها، هي دليل على سوء المعاملة الموجهة إليها أساسًا. ووسط عدم اليقين ذاك الذي كانت تشعر به منذ طفولتها كلما استحضرت صورته، وفي صباها، حين عرفت أنها غير مرئية لنظرته السامية، كان الملك يكتسب دورًا متزايد الأهمية في أحلامها.

لكن «لوكريثيا» بدأت برؤية الأحلام قبل وقت طويل من ذلك. إنها لا تتذكر متى بدأت موهبتها الغريبة تلك، وتصدق ما تقوله أمها بأن الأحلام بدأت مع بداية وعيها، والصحيح أنها كانت تحلم منذ طفولتها بوقائع وأحداث تتحقق فيما بعد.

فقبل زمن طويل من دخولها القصر، رأت «لوكريثيا» في أحد أحلامها الأولى مخدع الملكة «دونيا آنا»، ورأت طفلًا حديث الولادة في مهد، لا بد أنه ولي عهد الملك، وروت الحلم لأبويها مجازفةً بالتعرض لعقاب، لأن أباها كان يبدي الغضب مذ بدأت الطفلة ترى أحلامها الغريبة، خوفًا من أن تنتهي الأسرة إلى الوقوع في أيدي ديوان التفتيش. لكن «لوكريثيا» كانت تجد صعوبة في الصمت وإخفاء ما تحلم به، كما لو أن جزءًا لا يتجزأ من

الموهبة الممنوحة لها برؤية الأحلام، هو رواية تلك الأحلام بالضبط، وإطلاع الآخرين عليها.

حلم آخر رأته بعد قليل من ذلك، يتصدره هرج ومرج حفلة تنكرية، ومسرحها شارع في المدينة. ويظهر سيد الكرنفال فوق عربة تحيط به نساء يلوحن بأيديهن ويصرخن، بوجوه وأذرع مطلية بالأحمر، ويرمين نحو الرجال مثانات حيوانات وقشورًا مملوءة بالدهن والنخالة. وفجأة، تبين أن سيد الكرنفال هو غطاء نعش. وعندما حلقت نظرة «لوكريثيا» فوق العربة، بقدرتها على التحرك بسرعة عجيبة، بل بالقدرة التي توفرها الأحلام بتجاوز العوائق، اكتشفت وهي فوق التابوت الذي له ذلك الغطاء، أن فيه جسدًا ميتًا، ورأت عندئذ بوضوح أن الجسد الميت هو جسد امرأة النجار التي تسكن في البيت المجاور، وتداعبها وتحتفي بها أحيانًا، مطرية على جمال عينيها وشعرها، وتهدي إليها في بعض الأحيان قطعة من البسكويت أو حلوى اللوز.

ولأن «لوكريثيا» لم تستطع كبح نفسها، فقد نقلت خبر الحلم إلى أبويها. حثَّها الأبوان بصرامة على نسيان الأمر، غير أن تلك المرأة ماتت بالسكتة، بعد انقضاء خمسة عشر يومًا. وعند عودته من مراسم الدفن، طلب أبوها من أمها أن ترفع تنورة «لوكريثيا» وتثبتها، وراح يضربها بطُنب ثور على إليتيها العاريتين إلى أن أدماهما، أمام أعين إخوتها المرعوبين الذين كانوا، مثلها، يبكون صارخين.

كان الأب يصرخ بسخط مع كل ضربة يوجهها إليها:

ـ أنا سأُعلمك ما قيمة الأحلام.

ومع ذلك، لم يكن بإمكان «لوكريثيا» عدم الحلم. تحدثت أمها «آنا أوردونيث» إلى كاهن الأبرشية، فطلب منها أن تبتهل إلى الرب كي يخلص ابنتها من الأحلام، لكن الصلوات اليومية وتعبد الأم والابنة لم تجد الرد المنشود، ولم تتوقف الأحلام عن محاصرة الصبية. ومع أن تلك الأحلام، عمومًا، كانت تقدم صور أحداث غير مفهومة، إلا أنها تبدو في بعض الأحيان إنذارًا بأحداث رهيبة، وكوارث، ووفيات تنتهي إلى البقاء ثابتة في صورة محددة، إنما يرافقها طنين مخيف، وأنين حشود، وقعقعة سلاح في أماكن مظلمة أو وسط وميض حرائق عملاقة.

بعد سنة من تنبُّئها بموت الجارة، حلمت «لوكريثيا» بأنها تدخل مرة أخرى إلى القصر الملكي، إلى حجرات الملكة «دونيا آنا». وكانت الحجرات خاوية، ولكن بسبب السهولة الكبيرة في تبدل مسارح أحلامها، تحولت الحجرات فجأة إلى شارع يتقدم فيه موكب يحمل كثيرًا من المشاعل، وراء بغلين مجللين بالسواد يجران منصة نعش ضخمة، تمضي حولها خادمات وسيدات وجنود، ندماء ورجال دين وأقزام، وزراء ورجال متعة، والجميع يبكون بحرقة.

تحول الشارع مجددًا إلى الحجرة التي ظهرت في بداية الحلم، وكان الملك يطل من إحدى شرفات برج القصر صامتًا، وناظرًا إلى البعيد، عيناه ثابتتان على هيئة صغيرة تمشي على ضفة النهر، تبيَّن أنها «لوكريثيا» نفسها، حاضرة في المكانين في وقت واحد، تتأمل جامدة الملك الذي ينظر إليها. وفي الآن ذاته، كانت «لوكريثيا» ترتقي المنحدر المؤدي إلى القصر، وتصل إلى السور الحديدي المحيط بالحديقة، وتُدخل رأسها من بين قضبان السور، وتصرخ بالملك قائلة إن الملكة «آنا» ميتة، وصرختها

تدوي مثل ارتطام قذيفة مدفع بالأسوار، وتُخيف سرب غربان انطلق طائرًا وهو يطلق النعيب.

لم ينتظر أبوها في تلك المرة ليعرف إذا ما كان الحلم يتضمن نبوءة ما، بل تناول طُنب الثور الذي ما زالت عقده ملطخة بالدم من عملية الجلد السابقة، ومزق بالضرب من جديد جلد ابنته، في عقاب نموذجي جعل إخوتها الصغار يبكون من الرعب.

ماتت الملكة فجأة في «باداخوث»، وأحس أبو «لوكريثيا» بأن ميتتها تلك هي علامة نحس لبيته. وتحدثت «آنا أوردونيث» مرة أخرى إلى كاهن كنيسة «سان سيباستيان» طلبًا لمساعدة ما، من دون أن تجد لديه جوابًا آخر سوى تكرار التوصية بالإكثار من التعبد ومضاعفة الصلوات للعذراء والقديسين.

وهكذا تواصلت الأحلام، ومعها العقوبات. ولم يكن الضرب ينقطع إلا عند غياب أبيها الذي كانت أعماله تضطره عادة إلى البقاء فترات طويلة في مستشارية بلد الوليد. ومع أن فترات غيابه تلك كانت تجعل حياة الأسرة المادية أشد صعوبة، إلا أن «لوكريثيا» تجد نفسها متحررة من العقوبات الغاضبة.

خلال فترات الغياب تلك، كان على أم «لوكريثيا» أن تبتكر بعض الأعمال لتحصل على نقود تستكمل بها المبالغ الضئيلة التي يتركها لها زوجها لمعيشة الأسرة، وكانت تلك هي الفترات التي تذهب فيها هي و«لوكريثيا» لجمع الأعشاب والثمار البرية وبيعها من بيت لبيت. وفي أثناء ذلك أيضًا، كانتا تعمدان إلى مساومات خفية لإعادة بيع أقمشة وياقات تحيط بالرقبة والكتفين تشتريانها من باعة جوالين عابرين.

في تلك المرة لم تكن المسألة هي النزول إلى ضفاف نهر «مانثاناريس» بحثًا عن بعض الفطر أو الأعشاب، ولا البحث عن عارضي الأقمشة البعيدين الذين يبيعون بضاعتهم بتكتم، خفية عن ناظري الطرق، لتجار صغار أو أناس مثلهما، وإنما الذهاب إلى موعد حدثتها أمها عنه بكثير من الغموض، وبتأكيد بهيج بالحصول على مبلغ جيد من المال. وقد نبهتها الأم قبل الخروج:

ـ «لوكريثيا»، يا بنتي، أريدك أن تعرفي أن صفقة هذه الليلة هي سر يجب أن يبقى بيني وبينك، وعليكِ ألا تُطلعي أحدًا عليه.

سلوك «آنا أوردونيث» المتحفظ والغامض الذي يضفي على تلك الصفقة المجهولة جوًّا من الحظر جعل «لوكريثيا» تشعر بالقشعريرة:

ـ ألن أُطلع عليه حتى كاهن الاعتراف؟

زمت «آنا أوردونيث» شفتيها بتكشيرة استياء:

ـ لا وجود في هذا العمل لأي نوع من الخطيئة، ولهذا لا وجوب لأن يعلم به كاهن الاعتراف. هيا بنا، وبصمت.

كان الوقت ليلًا، وكان الصغار قد ناموا. توجهت «لوكريثيا» وأمها بحذر، متخفيتين ومن دون الاستعانة بنور، إلى بيت غير بعيد عن بيتهما، في الجانب الآخر من دير المجدلية.

كانت «لوكريثيا» قد رأت من قبل مكانًا مثل ذاك، فهي غرفة عمل رسام، تعبق برائحة الزيوت والصمغ، فيها حامل عليه لوحة يعكف الرسام على أن يُظهر عليها صور رسمه.

كان الرسام رجلًا طويل القامة، له شارب عظيم. وكانت الليلة باردة، غير أن المكان لم يكن باردًا، ففي وسط الأرضية المرصوفة بالحجارة مجمران كبيران مشتعلان. لم تتبادل أم «لوكريثيا» والرسام الكلام، غير أن «آنا أوردونيث» طلبت من «لوكريثيا» أن تتعرى، وراحت تساعد ابنتها على خلع ملابسها. بدا ذلك غريبًا عن العادة المألوفة في تمجيد الحشمة والفضيلة، فاستغربت «لوكريثيا» كثيرًا، وسألت:

ـ كل شيء؟

أكدت أمها بهز رأسها، وعندما انتهت من التعري، نظرت إلى الرسام الذي أشار، من دون أن يتكلم، إلى مقعد بلا مسند. صعدت إليه «لوكريثيا» وظلت ساكنة، ذراعاها متدليتان على امتداد جسدها. هتف الرسام:

ـ إنها صبية جميلة.

وجدت «لوكريثيا» في صوته فظاظة غريبة، طريقة في المجاملة يبدو أنها تخبئ قسوة غامضة، لا تمت بصلة إلى امتداح جمالها الذي تبديه الجارات والأقارب. دنا الرسام منها وأشار لها إلى الوضع الذي عليها أن تتخذه، مضيفًا أنه عليها عدم التحرك.

كانت «لوكريثيا» تتلقى في خاصرتيها، باستمتاع، الدفء المنبعث من المجمرين. سمعت صوت أمها وهي تسألها، بصوت خافت، إذا ما كانت تشعر بالخجل، وأحست من جديد بغرابة تجاوز الزمن لتلك الكلمات وللوضع نفسه الذي هي فيه.

وبينما هي تحافظ على الوضع الذي حدده لها الرسام، نظرت إلى جسدها العاري، إلى نهديها قليلي البروز مثل تكورين مدببين، وعانتها

المزينة ببعض الشعر المستجد، وأدركت أن جسدها هذا، سبب مشوارها السري وموضوع أساسي في بهجة أمها للنقود التي ستكسبها في تلك الليلة، هو أيضًا مركز اهتمام النظرات المختلسة التي يصوبها الرجل ذو الشارب الضخم.

وعلى الرغم من أنها كانت تعرف أنها لا تزال طفلة، إذ لم تأتها بعد إشارة البلوغ التي تنتظرها أمها والجارات، وجدت نفسها كبيرة ومختلفة، كما لو أن عريها أمام عيني ذلك الرجل اللجوجتين شكَّل علامة اكتمال مرحلة انتهت من حياتها.

## ٢

عندما تعرفت إلى «ميجيل دي بيدرولا بيامونتي»، الجندي المتنبئ، أحست «لوكريثيا» بترسخ ذلك النضوج الذي كشفه لها عريها أمام الرسام وأمها.

الجندي المتنبئ كان مشهورًا بين الناس بأنه قديس عرَّاف، ويقال إن الرب قد وضع في رأسه، بصورة إعجازية، كل كلمات العهدين القديم والجديد، وإن أشخاصًا متعلمين كثيرين يعترفون بجلال شرطه كعالِمٍ من دون تَعَلُّم.

في تلك السنوات كان هناك في المدينة أنـاس من أصحاب الرؤى. اشتهر منهم الأختان المتدينتان «ماريا» و«فرانثيسكا دياث»، صديقتا «آنا أوردونيث»، ورجال منهم مأمور قضائي معروف بلقب «التريخويكي»، وحتى مجنون محتجز في مستشفى «أنطون مارتين»، يدعى «خوان دي ديوس». وقد اعتادت أم «لوكريثيا» زيارة مترهبة برتغالية تدعى «خوانا كورِّيا»، هي عرَّافة وصاحبة رؤى أيضًا.

وكان هؤلاء ـ ذكور وإناث ـ يحدسون في رؤاهم اقتراب كوارث رهيبة

وتهديدات للعالم الكاثوليكي ومؤمنيه، لكنهم جميعًا كانوا أناسًا عاديي الهيئة، عاداتهم عامية، وكلماتهم فقيرة. أما الجندي المتنبئ بالمقابل، فكان وسيمًا ونبيل المظهر، على الرغم من طريقته في اللبس، وليس عبثًا أنه يتحدر من ملوك «نافارًا» مثلما هو معروف. وحسب ما يقال، كان يتكلم بثقة في النفس مثل أفضل الواعظين، وإن يكن قلة من ذوي الشأن هم وحدهم من يتمتعون بامتياز الاتصال به.

في إحدى المرات، بعد تلك الفترة التي خدمت «لوكريثيا» خلالها في القصر، ولدى صعود تلك السفوح نفسها المؤدية إلى النهر، في أثناء عودتهما من جمع الأعشاب البرية، أشارت «آنا أوردونيث» إلى مكان قريب من الجبل، حيث توجد مغارات قديمة، على مقربة من بعض الحفر، وقالت لابنتها:

- في واحدة من تلك المغارات، اعتاد المدعو «بيدرولا» قضاء فترات طويلة.

- أليس له بيت يعيش فيه؟

- له بيت طبعًا، وهو بيت فخم، وملك خاص له، بل إنه ينعم كذلك بمعونة مالية دائمة منحها له الملك. ولكن خدمه وحدهم هم من يعيشون في البيت طوال الوقت، أما هو فيميل إلى العزلة أحيانًا، مثل النساك، للعبادة وتعذيب جسده في هذه الكهوف.

اقترحت «لوكريثيا»:

- فلنذهب إلى هناك يا أماه، لعلنا نستطيع رؤيته.

لم تتحمس «آنا أوردونيث» للذهاب، لأن أشرارًا ومجرمين هاربين من

العدالة يلوذون بتلك الأنحاء أيضًا، لكن النهار كان لا يزال مفعمًا بالضوء، وما زال هناك أناس يعملون في البساتين وآخرون يجمعون الحطب، أو يجوبون الدروب ساعين إلى شؤونهم، مما دفعها إلى الموافقة على طلب «لوكريثيا»، واقتربتا معًا من الكهوف.

قالت «آنا أوردونيث»، فجأة، بصوت خافت:

ـ انظري يا ابنتي، انظري.

كانت تشير إلى هيئة بشرية، في الأعلى، متقاطعة الذراعين، تراقب الغروب. إنه رجل كثيف اللحية وطويل الشعر، يرتدي أسمالًا وجلود حيوانات، وينتعل صندلًا خشنًا.

دمدمت أم «لوكريثيا»:

ـ إنه «بيدرولا»، «ميجيل دي بيدرولا بيامونتي»، الجندي المتنبئ.

كان ذلك الرجل يتأمل غياب الشمس ساهمًا. ربما هو يرصد في الغروب بعض النبوءات، مثلما هي الإشارات التي أتاحت له الإعلان بكل ثقة عن موت أحد البابوات وتنصيب آخر، بل موت «دون خوان» النمساوي، ذلك المحارب المجيد، والابن غير الشرعي للإمبراطور، والذي لم يتوصل قطُّ لأن يكون أميرًا بسبب جحود أخيه الملك الفظيع.

اقتربت «لوكريثيا» وأمها قليلًا. عندئذ، وكما لو أنه لم يكن ساهيًا عنهما قطُّ، أخفض الجندي المتنبئ بصره ونظر إليهما باهتمام. كانت لا تزال على وجهه تصعيرة غامضة، عذبة كأنها بقية ابتسامة. سألهما:

ـ أتنتظران شيئًا مني؟

سارعت أم «لوكريثيا» إلى الاعتذار، وقالت متلعثمة:

ـ نرجو أن تعذرنا، إننا نقدر كثيرًا سُمعتك كرجل قديس، ولم نكن ننوي إزعاجك. لقد رأيناك من بعيد، ورغبنا في رؤيتك عن قرب.

أقصى الرجل عن فضوله المرأة قبل أن تكمل مسوغاتها الخرقاء، ونظر إلى «لوكريثيا»:

ـ وماذا تقول الآنسة ذات العينين السوداوين؟

قالت «لوكريثيا» بثبات، كما لو أن الاقتراب من الجندي المتنبئ لم يكن له من هدف سوى ذلك الاعتراف:

ـ أنا أيضًا أرى رؤى يا سيدي.

الرجل الذي كان ينظر إلى «لوكريثيا»، من دون أن يرفع بصره عنها، مدَّ يده، تناول حبة توت من سلتها، وأكلها ببطء. ثم سألها:

ـ وما الرؤى التي ترينها؟

قالت «لوكريثيا»:

ـ إنها أحلام يا سيدي. في فراشي، في غيبوبة النوم، تظهر لي أشياء كثيرة حول الدمار وموت الناس.

ـ ما اسمكِ؟

ـ أُدعى «لوكريثيا دي ليون» يا سيدي.

ـ ولأي أبرشية تتبعين؟

ـ «سان سيباستيان».

ـ وهل تعرفين شيئًا عن أسباب الأحلام؟

وجدت «لوكريثيا» في نظرة ذلك الرجل احتضانًا وديًا، ربما هو إشارة إلى تشابه قدريهما:

ـ لا يا سيدي، فأنا لا أعرف القراءة والكتابة.

كان كثير من الناس لا يعرفون القراءة والكتابة، وكان جهل آنسة بائسة بهذه الأمور طبيعيًّا، فالطفلة لم تحصل على أي تعليم أكثر من تعاليم الكنيسة بشأن معتقدات المسيحيين الكاثوليك وواجباتهم وعاداتهم، وكان تعليمها يقتصر على مهارات أشغال الإبرة، والكي، والطبخ التي تنقلها إليها أمها مع كثير من النصائح النسائية وبعض أقاويل الجارات، فضلًا عن كثير من الأغنيات والقصص الرومانسية، والحكايات الخرافية التي اعتادت أن ترويها لها في طفولتها امرأة موريسكية من «بلديبنياس» استأجرت سريرًا في بيتهم لعدة سنوات.

ومع ذلك، كانت «لوكريثيا» تنظر إلى الكتب متأكدة من أنها تتضمن قوة حقيقية وملموسة لا يمكن أن يقتنيها ويمتلكها سوى المختارين الذين يفهمون مضمونها.

وخلال الوقت القصير الذي عملت فيه خادمة لدى مربية الأمير، فضلًا عن أنها كانت تعجن وتغسل الملابس ساعات طويلة تكاد لا تتوصل معها إلى استعادة قواها المفقودة بما تتلقاه من طعام هو الأجر الوحيد الذي يُدفع لها مقابل خدماتها، استطاعت أن ترى عن قرب، وأن تفتح بعض تلك الكتب، وتتفحص الأثلام المستقيمة والكثيرة التي تبرز منها خطوط صغيرة سوداء، يختلف شكل بعضها عن بعض، هي التي تحمل كما يبدو

معنى الرسالة. وكانت «لوكريثيا» تفكر في لو أنها تستطيع فهمها، فربما تتمكن أيضًا من فهم مغزى أحلامها المشوشة.

ردَّ «ميجيل دي بيدرولا»:

- أيتها الصبية، الرب إلهنا يتكلم أحيانًا عبر أفواه الجهلة، كي يبلبل عجرفة الحكماء. وفي كتاب الكون، من ذا الذي يعرف قراءة هذه الشمس التي تغيب، أو هذه الأشجار والخضرة التي تغطي الجبال، أو هذا النهر الذي يحمل إلى البحر ما تتقيأه الجبال من ماء؟ من يعرف قراءة حبات التوت الحلوة هذه التي ولَّدها الصيف؟

وعندئذ مدَّ الجندي المتنبئ إحدى يديه، وأمسك بين الإبهام والسبابة بذقن «لوكريثيا» ضاغطًا عليها برفق. ثم تراجع خطوة، واستدار، ومضى مبتعدًا عنهما من دون أن ينطق كلمة أخرى.

سألتها أمها عندما انطلقتا في طريق العودة إلى البيت:

- كيف حلمتِ بأشياء كبيرة كتلك ولم تقولي لي شيئًا عنها؟

لم تسمعها «لوكريثيا» المستغرقة في ذهول عجيب. فقد وجدت في «ميجيل بيدرولا»، المتحدر من سلالة ملوك، الوجه الآخر المضيء للملك شرس الطباع الذي يسكن القصر. فمقابل الأبنية المتينة والمتوعدة التي تحيط بمنزل ذاك، هناك مغارة هذا الوحشية. ومقابل العينين اللتين لا تلمح حضورهما، هناك العينان اللتان تنظران عن قرب ودفء، والملامسة التي تداعبها.

بعد بضعة أيام، وعند انتهاء القداس، اقترب منهما راهب صديق لكاهن «سان سيباستيان»، وقال:

ـ «ميجيل دي بيدرولا»، الجندي المتنبئ، يرغب في حضور هذه الآنسة مساء الخميس إلى كنيسة دير «سان فرانثيسكو»، حيث سيتكلم إلى جماعته.

ردَّت «آنا أوردونيث»:

ـ سنكون هناك إن شاء الله.

تحول تقدير «لوكريثيا» للجندي المتنبئ إلى توقير عندما استطاعت سماعه. وباستثناء «لوكريثيا» وأمها، وامرأة واحدة أخرى، كان كل من حضروا ذلك الاجتماع من الذكور، بينهم كثير من رجال الكنيسة وأناس من علية القوم. تكلم الجندي المتنبئ باللاتينية بعد أن ألقى حارس الدير بعض التراتيل. وكان كلامه بطيئًا وصوته وقورًا: «أنا النبي الجديد الساكن في عزلة المغارة، وبينما أنا أغفو أسمع الصوت».

هكذا بدأ الجندي النبي كلامه، ثم تابع قائلًا:

ـ مثلما يعرف بعضكم، فإنني أنتمي من جهة أبي إلى نسل الفارس الصنديد «دي بيدرولا»، آخر ورثة من كانوا ملوك «نافارا». وكنتُ يتيمًا منذ القماط. أولياء أمركم الحاليون أنفسهم هم من قتلوا الابن البكر لجدي، ودمروا قصر «آل بيدرولا». ومن دون أن أعرف أبويَّ، تولى رعايتي منذ الطفولة أسقف إلى أن صارت قواي تتيح لي كسب لقمة عيشي، وكنتُ لا أزال طفلًا عندما جبت دروب هذه الجبال على متن جحش لأبيع أطعمة القدور نفسها التي أساعد في إعدادها وطهوها. لم أتلق تعليمًا، ومع مرور الزمن، واصلت العمل في خدمة الملك بالسلاح. كنتُ جنديًّا في إيطاليا، وقاتلتُ في حروب غرناطة

ضد المتمردين الموريسكيين، ووقعتُ أسيرًا بيد الأتراك. ومع ذلك، فإن الرب كُلي الرحمة أتاح لي أن أتوصل إلى تعلم قراءة الكلمة التي كشفها لي، وأن أعرف، أولًا، سر أصولي، ثم أسرارًا أخرى بعد ذلك لم تكن فيَّ.

ظل الجندي النبي صامتًا لحظات، كما لو أنه يمعن التفكير في تحولات حياته التي ذكرها للتو. ثم رسم إشارة الصليب بكثير من الخشوع، وواصل الكلام ببطء أشد:

ـ كنت أريد الوصول إلى جلالة الملك لأنبهه إلى أنني رأيت الأخطار التي تترصد إسبانيا وبيته نفسه وسلالته، فهجمات المدعو «دريك» على قادش والبرتغال هي إشارات كوارث آتية، غير أن الوزراء السيئين المحيطين به حالوا دون ذلك. وهم من اعتقلوا يومًا ذلك الأمين التقي، عدو الحروب التي تستنزفنا، وصديق نشر السلام العادل والكريم مع الفقراء. أنا أعرف الآن أيضًا أن هناك كثيرين لا يحبونني، وهم ليسوا من الرهبان السائحين فقط.

كان يخيم على المجتمعين صمت خوف يعكس من دون شك خطورة كلمات الجندي المتنبئ الذي واصل الكلام عن كيف أن أمور الحياة والبلاد تجد في «الكتابات المقدسة» المفاتيح المؤكدة لمغزاها.

راح يعدد النكبات الإسبانية واحدة فواحدة: القحط الذي يبَّس المحاصيل، وزاد من فقر الفلاحين الذين يعيشون في ضيق أصلًا، بسبب الضرائب والإتاوات. والأعداء الذين يهاجمون في البحر المحيط السفن القادمة من بلاد الهند (العالم الجديد)، ويستولون على كنوزها. واللوثريون الذين يرفضون بعجرفة، في الفلاند، الانصياع للبابا والخضوع للملك.

والأتراك الذين لا يتوقفون عن سرقة الثروات وخطف الإسبان على سواحل البحر الآخر.

وفي كل واحد من تلك الشرور يجد الجندي المتنبئ دليلًا، ويجد لها جميعًا الكلمات الإلهية المناسبة التي تضيء درب الخلاص الذي يتطلب من الجميع، بدءًا بالملك ووزرائه، كثيرًا من التقوى وحياة التقشف.

ورفع الجندي المتنبئ بصره فجأة، ونظر إلى الحاضرين بعينين يمكن لهما أن تبدوا شرستين، لكنهما كانتا متأججتين بالتقوى:

ـ صلوا وكونوا مستعدين أيها الإخوة والأخوات! أنت يا دكتور «فيتوريا»، وأنت يا فارس المفتاح الذهبي القوي، وأنت يا دكتور «سيلينثيو»، وأنت أيها الراعي «أناستاسيو»، وأنتما أيضًا، أيها السيد «فينتوروسو»، والدكتور «سيليوكو»! لأنه قد يكون قريبًا جدًّا اليوم الذي سنضطر فيه، نحن المسيحيين الكاثوليك الطيبين، إلى اللجوء إلى مغارة مظلمة لنحفظ إيماننا ونحتمي من أعدائنا، مثل أولئك الذين حافظوا في القرون الغابرة على الأمل الإسباني!

كان هناك في صوت «بيدرولا» رنة وداع واضحة. وحثه لبعض الحاضرين المتنكرين بأسماء غريبة، أضفى على الاجتماع درامية الأمور السرية. شعرت «لوكريثيا» بقلبها يمتلئ بقلق تستثيره كلمات «بيدرولا» المشحونة بتوعد يبدو أنها تعرفه جيدًا.

ومن أجل طلب المساعدة من الرب في الضائقة الحرجة التي تعيشها إسبانيا، رتل الجندي المتنبئ، بحميَّة شديدة، عدة صلوات رافقه فيها الجميع. وأخيرًا انسحب الجندي المتنبئ، واستطاعت «لوكريثيا» أن

تسمع أنه على الرغم من أن أشخاصًا كثيرين رفيعي المقام يكنون له التقدير والاحترام، إلا أن هناك آخرين متنفذين جدًّا يريدون إسكات صوته.

رجعت «لوكريثيا» وأمها إلى البيت، عبر السفوح المألوفة القريبة من النهر، عند غروب ذلك اليوم من شهر سبتمبر، بعد سماع «ميجيل دي بيدرولا» يتكلم إلى أناس يكنون له احترامًا كبيرًا. كان الجو لا يزال حارًّا والجبل مذهَّبًا بالشمس الآخذة في الأفول، كما في اليوم الذي تلقت فيه «لوكريثيا»، أول مرة، تحية الجندي المتنبئ وملاطفته.

لم تتوقف «لوكريثيا» عن التفكير فيه كما في الملك البشوش، الملك الأبوي ذي الصورة القريبة والودودة. ودمدمت: «لا شك في أن هذا هو الملك الحقيقي، المتحدر من ملوك حقيقيين».

لكنها حين تذكرت إشارة الوداع التي تضمنتها كلمات «بيدرولا»، أحست أن ظلمة متنامية توشك أن تلتهم بهجتها، مثلما يلتهم الظلامُ الشمسَ البرتقالية التي تلمع وراء ظهرها وهي تغطس أكثر فأكثر في حفرة لا يمكن تخيلها، مختفية وراء الأفق.

# ٣

كان الجو لا يزال باردًا. وفي الليل، كان رعايا أبرشية «سان سيباستيان»، مثل عامة الناس الذين يملؤون المدينة، يجلسون عند أبواب بيوتهم للاستمتاع بالبرودة.

وقد شعرت «لوكريثيا» في تلك الأيام ببعض التوعك، وكانت في تلك الليلة بالذات قد أوت إلى فراشها، لكنها من خلال الرق الذي يغطي نافذة حجرتها، كانت تسمع همهمة الأحاديث.

لم تكن «لوكريثيا» تفهم ما يقوله المتحدثون، لكنها تسمع الحوار الذي يتدفق بالرتابة المميزة للجميع، مزيج الرضا والوداعة الذي هو جوهر حياتهم اليومية. ومن خلال جرس الأصوات، كانت تميز التدخلات المتتالية للمتكلمين: صوت أمها، بنبرتها الشاكية المعهودة، وأصوات الجارات، بمختلف إيقاعات لهجاتهن، فإحداهن أستورية والأخرى أشبيلية، وسعال والد الأولى المسن، وهو عجوز صموت، يبقى جامدًا طوال الوقت على كرسيه مثل قديس منحوت من الخشب.

كانت قد بدأت تغفو عندما تدخَّلَ في دمدمات الحديث صوت مختلف

حاملًا إلى الجماعة خبرًا ما، وعرفت «لوكريثيا» أن من اقترب من بيتها في تلك الليلة هو «خوان دي تابيس»، ابن خال لأمها يعمل خادمًا لدى واعظ مشهور يدعى «دون ألونسو دي ميندوثا»، عضو في فئة أرفع النبلاء سلالة وأستاذ لاهوت في كاتدرائية طليطلة.

وكانت «لوكريثيا»، في عزلة وضعها الأُسري القاتم، تهتم دومًا بمعرفة أخبار عالم الناس المتنفذين والسامين. فنهضت من الفراش متجاهلة توعكها، وارتدت جلبابها، وخرجت إلى حيث جلبة الجارات وأمها.

هتفت «آنا أوردونيث»:

ـ يا يسوع، يا يسوع. ما الذي أصابك يا ابنتي.

ـ اطمئنوا جميعًا، لم يصبني سوء، وإنما شعرت بحر شديد في الفراش.

أكدت «لوكريثيا» أنها أفضل حالًا، وحيَّت ابن خال أمها الذي ردَّ على تحيتها بحركات متكلفة محاولًا محاكاة إيماءات المجاملة الحقيقية.

ـ كنا نتحدث عن الجندي المتنبئ «ميجيل دي بيدرولا بيامونتي» الذي يقال إنه وضع رسالة خطية يتنبأ فيها بمستقبل إسبانيا، ويرى أنه سيكون دمارًا مؤكدًا.

قال «خوان دي تابيس»:

ـ لقد تركتُ سيدي هذا المساء وهو معه، ويبدو أنهما سيتحدثان في شؤون بالغة الأهمية.

وصلت إليهم هبة نسيم جبلي، تعبق برائحة الجبل والأعشاب، لتطغى على رائحة الشوارع التي زادت حرارة الفصل من حدَّتها.

يقال إن المسافرين الذين يأتون من بلاد الشمال يرون أن مدريد مدينة خبيثة الرائحة، ويصيب المرض بعضهم حين يشمون ما يعتبرونه نتانة لا تطاق، غير أن من ولدوا، مثل «لوكريثيا»، في المدينة، لا يجدون في تلك الروائح ما يثير القرف، بل إنها عندما ترجع من الغوطة مع أمها، في أيام جمع الأعشاب البرية، تستعيد رائحة الشوارع، ودخان البيوت، وحتى النتانة العامة التي تكون قوية جدًّا في بعض الأماكن، بطمأنينة التعرف إلى شيء ينتمي إليها بقدر ما تنتمي إليها مكونات جسدها.

ومع ذلك، فقد أدركت «لوكريثيا» في تلك الليلة أن الرائحة البرية التي تحمل نقاء الحقول والجبال فوق تفسخ فضلات العاصمة، هي رمز لـ«بيدرولا» نفسه، والذي في أسماله وفي الجلود التي يرتديها أيضًا ثمة صورة طبيعية أولية، بلا تصنُّع ولا فساد.

كل ما يأتي من «بيدرولا» له الرائحة النقية نفسها، وربما الكئيبة إلى حد ما، التي للأشياء غير المصنوعة. قالت:

ـ لقد حلمتُ بـ«بيدرولا» هذا.

أرادت أن تصمت، لكن إلحاح مستمعيها لم يسمح لها بذلك. وكانت لا تزال تقاوم تلك الضغوط عندما حلقت عبر الشارع بومة وهي تطلق صيحات قوية. هز العجوز والد الجارة الأستورية رأسه، وأطلق ضد الطائر لعنة غير مفهومة، لكن ذلك الشكل المفاجئ والأبيض الذي حلق هنيهة فوق رؤوسهم كان بالنسبة إلى «لوكريثيا» أيضًا إشارة غامضة للنقاء:

ـ لقد حلمت به، وكانت أحلامًا خبيثة، خبيثة جدًّا إلى حدٍّ لا أستطيع معه روايتها، خبيثة جدًّا إلى حدٍّ أخشى معه أن تكون مجرد هذيان.

أصر «خوان دي تابيس» والنساء على أن ترويها، وأخيرًا روت هي واحدًا منها، بصوت رتيب من دون تلونات، مستسلمة لفضول الآخرين، كما لو أنها تنصاع لمشيئة سامية، تشعر أنها غير قادرة على مقاومتها:

ـ رأيتُ «بيدرولا» في حجرته نائمًا في فراشه. وكان بملابسه، لكنها ليست تلك الثياب البائسة والجلود التي اعتاد التستر بها، وإنما ثياب فاخرة من الحرير المشغول. ورأيتُ في حجرته منضدة عليها مصباح مضاء وكتاب مفتوح، وفي الكتاب رسم طفل في يده سعفة نخل. ودنوتُ أنا من «بيدرولا» ورأيت أن حليبًا يتدفق من فمه، مثل نافورة بيضاء، وقرَّبت يدي من الحليب فملأ راحتيَّ، دافئًا وكثيفًا، إلى أن طفحتا. وعندما توقف تدفق ذلك الحليب، بدأ يتدفق من فمه قمح، تيار عريض من القمح راح يسيل حتى حافة الفراش ويتراكم على أرض الحجرة.

كانت نظرة «لوكريثيا» في السماء المفعمة بالنجوم، وكان الآخرون يصغون إليها صامتين، بإيماءات مفاجئة. أنزلت هي رأسها نحوهم:

ـ كان هذا أحد الأحلام.

قال «خوان دي تابيس»:

ـ لم أجده خبيثًا، فالحليب والقمح قوام معيشة الناس المسيحيين.

ـ لقد رأيتُ أحلامًا أخرى، لكنني لا أستطيع روايتها. لقد أخبرت بها الراهب «خيرونيمو»، متلقي اعترافاتي، لكنه حذرني من أنه لا يريد أن يعرف شيئًا عن أمور ذلك الرجل أو التدخل فيها.

قال «خوان دي تابيس»:

ـ هناك كثيرون لا يكنُّون نوايا طيبة للجندي المتنبئ، والراهب «خوان باوتيستا»، ذلك الفرنسيسكاني الفظ، يكثر من الوعظ ضده، ولا يمل من تسميته بالروح الشيطانية، على الرغم مما يقال عن أنه، وهو الإيطالي، قد تعرف على «بيدرولا» في «نابولي»، وأن عداءه له بدأ من هناك. كما أن الراهب «ألونسو دي أوروثكو» لا يتوقف عن هجائه والتنديد به. غير أن هناك أشخاصًا في مناصب ومقامات عالية بالمقابل يعتبرونه قديسًا، ويرون أن نبوءاته محققة.

سُمع رعد بعيد، والنسيم الذي يحمل روائح الجبال العطرة صار أقوى، إلى أن طغى على روائح المدينة الأخرى كلها.

لم تلبث جماعة المتسامرين أن تفرقت، غير أن «لوكريثيا» ستتذكر بعض الأحداث الصغيرة من تلك الليلة كنُذر لما سيبدل حياتها: النسيم الذي يحمل رائحة الجبل، طيران البومة فوق رأسها، الرعود التي بدت كأنها كتيبة جنود تتقدم على وقع الطبول.

بعد أيام قليلة رجع «خوان دي تابيس»، وقد جاء في وقت مبكر جدًّا هذه المرة. كان يحمل رسالة شفوية من سيده، وكان قد فقد المزاج العائلي الذي يأتي به عادة لزيارتهم كلما حضر إلى العاصمة، كما لو أن المهمة التي جاءت به في ذلك الصباح تضفي على تواضع وظيفته أهمية مختلفة عن المعهود. وهكذا، بجدية بالغة، طلب من «آنا أوردونيث» الخروج، وعندما صارت أمامه تكلم إليها بزهو لا يمكنه إخفاء فظاظته:

ـ أيتها السيدة «آنا أوردونيث»، لقد كلفني سيدي «ألونسو دي ميندوثا» بإلحاح شديد، باسمه وباسم الجندي المتنبئ «ميجيل دي بيدرولا بيامونتي»، أن أخبركم بأنه يريد اللقاء مع ابنتكم «لوكريثيا» غدًا، في ساعة الضحى.

ـ فلنر يا ابن الخال، سنذهب إذا كان بالإمكان معرفة ما الذي يريده هذان السيدان من ابنتي.

عندئذ أبدى «خوان دي تابيس» الفخر بما يعتقد أنه دليل ملموس على ثقة سيده العالية به، وقال لها إن سبب ذلك كله هو أنه روى لـ«دون ألونسو» حلم «لوكريثيا» عن «بيدرولا»، وأن «دون ألونسو دي ميندوثا» نقل ذلك إلى الجندي المتنبىء، فأراد هذا رؤيتها والتكلم إليها في بيته بأسرع ما يمكن.

لم تنتظر «آنا أوردونيث» أن تعرف ما الذي تفكر فيه «لوكريثيا» حول الأمر:

ـ اذهب وقل لـ«دون ألونسو» إن ابنتي ستكون هناك في الموعد، وسأكونُ معها، مثلما هو الواجب والمناسب لعفة آنسة ما زالت تتمتع بحماية أمها الصالحة.

في اليوم التالي، منذ الصباح الباكر، ذهبت «لوكريثيا» مع «آنا أوردونيث» لزيارة «بيدرولا» في البيت الذي يقيم فيه عندما لا يكون منعزلًا في المغارة حيث يمارس حياته كناسك.

كانت الشوارع قد بدأت تضج بالصخب اليومي: جماعات بنائين باشرت العمل في ورشها، وفرد بعض الموريسكيين المبكرين بضاعتهم في أركان الساحات، وراح التجار يفتحون محلاتهم، بينما الحمالون المتكسبون يحملون حزم البضائع وهم يضعون قلنسواتهم الزرقاء، والخدم والعبيد يحملون قرب الماء وحزم الحطب، والكتبة يتوجهون إلى أعمالهم، والعجائز التقيات يتوجهن إلى الكنائس والأديرة.

كانت دكاكين اللحم قد فُتحت، وكذلك الحانات والأفران، وبدأت

تُرص على بعض البسطات المشتريات اليومية من قطر العسل والزلابية، والحلويات والعجينة المورَّقة، والخضار والسمك المخلل. فتختلط برائحة القذارة روائح الخبز الساخن والحلويات، واللحوم المعلقة، وأسماك المورة المبللة بالماء، والجبن. وتطغى على كل الروائح الأخرى رائحة شرائح لحم الخنزير المشوية التي يشكل دخانها فوق الجمر سحبًا كثيفة، وإلى جانبها يتلذذ المتسولون والمتشردون بأكل رغيف خبزهم.

في بيت «بيدرولا» كان ينتظرهما «دون ألونسو دي ميندوثا»، سيد «خوان دي تابيس». وحين قبَّلت «لوكريثيا» يده باحترام، شمت رائحة العنبر التي تفوح من قفازي رجل اللاهوت.

ومن خلال أحاديث ابن خال أمها، كانت «لوكريثيا» تعرف أن «دون ألونسو» شخص نزق غضوب، وأنه يندفع أحيانًا في نوبات غضب يضرب خلالها خدمه بقبضتيه وقدميه، لكنها أحست أنه ينظر إليها برضا.

قال «دون ألونسو»:

ـ هذه هي إذن الآنسة صاحبة الأحلام الحقيقة. إن في عينيك كثيرًا من النور يا ابنتي. أوَلم تعملي في خدمة أختي «آنا» عندما كانت مربية للأمير «فيليبه»؟

ـ بلى يا أبتاه.

عندئذ خرج «بيدرولا». لم يكن يرتدي جلودًا ولا أسمالًا، لكنه لم يكن يلبس كذلك الحرائر الفاخرة كما في حلم «لوكريثيا»، وإنما ثيابًا قاتمة وبسيطة:

ـ أهلًا بك يا «دون ألونسو»، أيها الصديق المحترم، وأهلًا بكِ أنتِ

أيضًا أيتها الآنسة ذات العينين السوداوين. فلندخل إلى هذه الحجرة، حيث يمكننا التكلم بهدوء.

وفور الدخول، لم تستطع «لوكريثيا» كبح إجفالة مفاجأة. قال «بيدرولا» الذي انتبه إلى مفاجأتها:

ـ نعرف ما الذي تشعرين به أيتها الصبية.

ردَّت «لوكريثيا» بذهول:

ـ سيدي، أنا رأيت في أحلامي هذه الحجرة نفسها. لقد رأيت هذا السرير الملتصق بالجدار، وهذه المصطبة، والمجمر نفسه الذي يلمع كالفضة، وهذه المنضدة المغطاة بغطاء من الجلد، وهذا الكتاب المفتوح عليها فوق مسند، ورسم الطفل نفسه الذي يحمل سعفة نخل.

كان الاكتشاف مذهلًا لـ«لوكريثيا» إلى حدِّ أنها صارت، منذ تلك اللحظة، ترد من دون تلعثم على كل أسئلة «بيدرولا» و«دون ألونسو».

أعادت رواية الحلم الذي أخبرت به في تلك الليلة «خوان دي تابيس»، وروت لهما كذلك أحلامًا أخرى رأتها سابقًا، وفيها تظهر هذه الحجرة نفسها ممتلئة بمصابيح مشتعلة، وتصطف على الأرض فيها توابيت كثيرة، وكان المسيح المصلوب المعلَّق على أحد الجدران يتشظى فجأة إلى فتات، من دون أن يلمسه أحد. لقد أخافها ذلك الحلم، وقد نسيته الحالمة تقريبًا، وكان عليها أن تبذل جهدًا كبيرًا كي تتذكر كل تفاصيله بدقة.

جثا «بيدرولا» على ركبتيه في مَركَع أمامه تمثال للمصلوب، وظل مستغرقًا بعض الوقت، واضعًا يديه على وجهه. ثم نهض ورجع إلى

جانبهما، وبصوت هادئ، إنما مكفهر، قال إن ذلك الحلم يعني ضياعه. ثم أمسك بعد ذلك ذقن «لوكريثيا» بالقوة العذبة نفسها التي في المرة السابقة حين تعرَّف عليها، إلى جوار مغارة اعتزاله، وتكلم بوقار:

ـ «لوكريثيا»، أيتها الآنسة ذات العينين السوداوين، أخبريني بما رأيتِ من أشياء أخرى في أحلامك.

لم يفلت المتنبئ ذقنها، ومال برأسه نحوها ليسمع كلماتها بصورة أفضل.

دمدمت «لوكريثيا»:

ـ هناك ثلاثة رجال يظهرون لي وأنا نائمة.

ـ أخبريني كيف هو كل واحد منهم.

ـ هناك عجوز يحمل شبكة، كما لو أنه صياد. وهناك صياد آخر شاب يمشي مع أسد مربوط بحبل إلى خصره، ويحمل في يده مصباحًا في بعض الأحيان. وهناك آخر يظهر لي بكثرة، وهو عادي وبشري وغير مخيف، يلبس أسمالًا وجلودًا ويكشف عن ذراعيه وساقيه، ويمضي على تلك الضفاف المطلة على بحر إنجلترا.

ـ أخبريني بما يقولونه لكِ.

ـ يتحدثون لي عن أحداث لا أعرفها، ويحملونني طائرة إلى بلدان نائية، ويبدو لي أنني أجد في كلماتهم على الدوام نُذرًا رهيبة بالخراب والدمار.

ـ أخبريني أي نوع من الخراب هو؟ وما ذلك الدمار؟

ـ دمار إسبانيا وخراب الملكية.

أبعد المتنبئ يده عن وجه الفتاة ولمس إحدى ذراعي «دون ألونسو».

وقال مؤكدًا:

ـ لقد أخبرتُك من قبل أن هذه الفتاة ستقول أشياء كثيرة.

أجابه «دون ألونسو»:

ـ سأسعى كي تنال هذه الأمور ما تستحقه من اهتمام.

# ٤

كما لو أن ذلك اللقاء كان الإشارة إلى اكتمال بعض الأحداث في قدر «بيدرولا» و«لوكريثيا»، إذ أقدم ديوان التفتيش، بعد أيام قليلة، على اعتقال الجندي المتنبئ.

علمت «لوكريثيا» بالأمر من «دون ألونسو دي ميندوثا» مباشرة، فقد حضر إلى بيتها مضطربًا جدًّا، وبعد أن أمسكها بكلتا يديه ونظر إلى عينيها بإلحاح شديد، قال لها:

ـ أعداء «ميجيل دي بيدرولا»، وهم أعدائي وأعداء كثير من المسيحيين الكاثوليك الطيبين الآخرين، توصلوا إلى الزج به في سجن محاكم التفتيش السرية. لا وقت لدينا نضيعه في دراسة إنذارات السماء. سأنتظرك غدًا، بعد الظهر، في دير الرحمة. وليبارككِ الرب.

كان اللقاء منهكًا جدًّا لـ«لوكريثيا»، ذلك أن «دون ألونسو» استجوبها وقتًا طويلًا حول أمور كثيرة قبل أن يتكلم عن الأحلام. أراد أن يعرف قبل كل شيء من أبواها، ومتى ولِدت، وإذا ما كانت ابنة وحيدة، وكيف هي معرفتها بالعقيدة المسيحية، وإذا ما درست علمًا ما.

بدأت «آنا أوردونيث» التدخل، مستبقة بأجوبتها كلمات «لوكريثيا»، غير أن «دون ألونسو» طلب منها، بلهجة أقرب إلى الصرامة منها إلى اللطف، أن تخرج من الغرفة وتتركهما وحدهما.

تصورت «لوكريثيا» أن «دون ألونسو دي ميندوثا» يعرف، من دون ريب، أجوبة كل تلك الأسئلة من «خوان دي تابيس»، لكنها أدركت أنه أراد من خلال تلك المسائل والصرامة الدقيقة في صياغتها أن يقر نوعًا من التعامل التلقائي، كما لو أنه لم يكن يعرف قبل تلك اللحظة أي شيء عن الشابة، وأنه بدأ بذلك الاستجواب التعرف عليها والتواصل معها.

قالت إن عمرها تسعة عشر عامًا وإنها ستكمل العشرين في الشهر التالي، وإنها وِلِدت في مدريد، وهي ابنة «ألونسو فرانكو دي ليون»، المولود في «فالديبينيا»، ويعمل وكيل أعمال لدى الجنويين، وأمها «آنا أوردونيث»، المولودة في «ساليناس دي روسيو»، في الجبال، بالقرب من «أسبينوسا دي لوس مونتيروس»، وتعيش في شارع «سان سلفادور»، في بيت من طابق واحد للدوقة أرملة «فيريا»، وإن لها ثلاث أخوات وأخًا واحدًا، جميعهم أصغر منها. وتعتقد أنها تعرف جيدًا العقيدة المسيحية الكاثوليكية التي تؤمن بها، وإنها تؤدي بكل إخلاص واجباتها تجاه الكنيسة الأم المقدسة، لكنها لا تعرف القراءة والكتابة. وقالت أيضًا إن كاهن اعترافها كان «دون ألونسو دي بوبيلا»، كاهن «سان سيباستيان»، أما الآن فهو الراهب «خيرونيمو دي أجيار»، من أتباع طائفة القديس «دومينجو»، وهو واعظ مشهور.

ـ أأنتِ عذراء؟

ـ أجل يا أبتاه، لكنني أريد أن أتزوج.

ردَّت «لوكريثيا»، وأحست فجأة بالحياء لاعترافها بتلك السهولة بتطلعاتها السرية، وبالاطمئنان في الوقت نفسه لأنها نبهت رجل الدين إلى أنها لا تفضل مسوح الراهبة ولا رداء المنذورات للعذرية.

كان «دون ألونسو» يستمع إلى «لوكريثيا» وهو جالس على أريكة، يداه مضمومتان وملامحه ساهمة، كما لو أنه يتلقى اعترافها.

وقال لها:

ـ حدِّثيني عن أحلامك.

عندئذ حاولت «لوكريثيا» أن تتذكر، لكنها اعتادت نسيان معظم الأحلام بعد قليل من رؤيتها، باستثناء تلك التي تشد اهتمامها بقوة بسبب الأشخاص الذين يظهرون فيها أو غرابة أحداثها. ولم تستطع أن تصف، مرة أخرى، سوى هيئة الرجال الثلاثة الذين يظهرون لها، والملائكة، والتنانين، والنسور، والجواميس والحيوانات الأخرى التي تراها، وضفة البحر التي تجد نفسها عليها في أحيان كثيرة، والتحليق والرحلات التي تقوم بها فجأة، وانتقالها إلى أعالي برج أو قمة جبل، واقتيادها إلى أراضٍ نائية كي ترى ملكة إنجلترا في قصرها، أو دوق البولنديين في قصره، أو سلطان الأتراك بين محاربيه القساة.

وقالت إنها ترى في أحيان كثيرة مواكب غامضة في الشوارع، تشبه بعض الشيء مواكب تماثيل الوحوش المخيفة، ومواكب أخرى بتماثيل وأناس متنكرين، وحشودًا تتقدم في صفوف طويلة وتملأ الساحات.

واعترفت أيضًا أنها ترى أمامها الملك في قاعاته في القصر أو في الإسكوريال، أو في أحد بيوت الراحة التي يملكها، ويبدو مريضًا جدًّا، بينما تحلق الكواسر في سماء حمراء.

وتحدثت أخيرًا عن الأوبئة التي تحمل الموت لكثير من الناس، وعن مواجهات الجيوش التي تراها، وانتصارات المسلمين على الإسبان، وعن حروب في البحر، حيث تتعرض أعداد كبيرة من السفن الإسبانية للخطر.

احتفظ «دون ألونسو» بالصمت، ثم سألها بعد ذلك إذا ما كانت تعرف البحر.

- لم أره قطُّ إلا في لوحة في القصر يا أبتاه. وهو في أحلامي ماء عظيم، له ضفة واحدة، ويهتز من دون توقف.

كانت تختلط براحة قفازي «دون ألونسو» رائحة خشب الجوز الذي يغطي جدران الحجرة ورائحة نباتات الحديقة، مقدمة دليلًا على حياة رخاء، بعيدة عن بؤس الأزقة. وكانت الأصوات أيضًا هادئة: العصافير تغرد في المحبس، ومن الكنيسة تصل همهمة تراتيل ناعمة. ربما كانت تلك الروائح والهمسات إشارة إلى أن حياتها ستعرف خبرًا جديدًا طيبًا. كانت «لوكريثيا» تنظر إلى «دون ألونسو» وترى نفسها ثمينة في عينيه، مثلما رأت نفسها ثمينة في عيني الجندي المتنبئ، ومثلما رأت نفسها في تلك المرة، وهي طفلة، عندما عملت موديلًا للرسام الإيطالي «روملو سيشناتو».

باعد «دون ألونسو» أخيرًا يديه:

- قولي لأمك أن تأتي.

خرجت «لوكريثيا» بحثًا عن أمها، وعندما حضرت «آنا أوردونيث»، طلب منها «دون ألونسو» أن تجلس، وقال لها إنه يعرف أنها امرأة طيبة وحامية لأسرتها وبيتها، وأنها قدمت كذلك كثيرًا من الصلوات من أجل أن تنتهي أحلام ابنتها:

ـ ربما كان لهذه الأحلام منشأ إلهي أيتها السيدة «آنا أوردونيث»، وربما هي وحي من السماء، مثلما هي من دون ريب أحلام ورؤى «ميجيل دي بيدرو لا إي بياومونتي»، فهو نبي حقيقي للرب مثلما كان «أشعيا» و«أرميا»، على الرغم من الملاحقة الجائرة التي يتعرض لها من أعدائه الذين أجبروا حتى المطران «كيروجا» على الوقوف ضده بعد أن كان من أنصاره. لكن النور سيعم في نهاية المطاف، وسيكون الخزي من نصيب الحاسدين والأشرار.

ظل مقطب الجبين لحظات، ثم نظر بتعاطف إلى «لوكريثيا» وأمها ونهض واقفًا، واقترب منهما وهو يشير إليهما أن تظلا جالستين:

ـ إنني أعرف «الكتابات المقدسة» وكل ما تتضمنه من نبوءات، معرفة جيدة. وقد درستُ كتبًا كثيرة تتناول شؤون الأحلام. ويبدو لي أنه لا بد من أن أحيطكما بوصايتي الروحية منذ الآن. وسوف أكون عونًا لكما كذلك في الأمور الدنيوية.

احتفظ بالصمت لحظات بينما هو يفرك يديه ويستغرق بغتة في التأمل، ثم نظر بعد ذلك إلى المرأتين مجددًا وواصل الكلام:

ـ بالنسبة إلى أحلام هذه الآنسة، أرى أنه لا بد من تسجيلها خطيًّا كي تُدرس كل نقاطها فيما بعد باهتمام ودقة، ويجري تقصي معانيها ومغازيها. أما الآن، ومن أجل تجنب التقولات، وربما الأضرار، يجب ألا يعرف أحد سواي أنا ومَن أختاره بأمر هذه الأحلام.

وبدءًا من ذلك اليوم، كان «دون ألونسو» يأتي كل مساء إلى بيت «لوكريثيا» على كرسي محمول ذي مظلة، وينتظر أن تطلعه على أحلامها كي يدونها.

بعد زيارته الأولى، أمر «دون ألونسو» بإحضار منضدة مع شرشفها وأدوات الكتابة إلى البيت. وجاء كذلك بسجادة أرضية، وسجادة تعليق مطرز عليها رسم شجرة تفاح بديعة محملة بالثمر، وطيور محلقة، وحيوانات برية حسنة التوزيع. وجاء أيضًا بمجمر تدفئة حجمه ضعف حجم الموجود هناك سابقًا. وهكذا تبدلت غرفة معيشة الأسرة واغتنت بصورة باهرة.

كما أمر «دون ألونسو» تابعه «خوان دي تابيس» بأن يمون البيت بمأكولات كي يتمكن هو و«لوكريثيا» وأمها من تناول بعض الأطعمة التي يرغبون في تناولها من دون أن ينتقصوا من مؤونة الأسرة. ومنذ ذلك الحين، توفر في البيت فائض من جبن الغنم، وصناديق من فواكه بلنسية ومرسية، وأرز بالحليب، وحلويات من كل الأصناف، ولم تعد تغيب عنه لحوم الدجاج والحمام والحجل والسمان، أو لحم الجداء المشوية.

ومع زيارات «دون ألونسو»، بدأت «لوكريثيا» تحلم أكثر بكثير من السابق، وصارت ترى حلمًا في كل يوم، وحتى حلمين أو ثلاثة في بعض الأحيان.

كان «دون ألونسو» يجلس إلى المنضدة و«لوكريثيا» على حشية على الأرض، وتبدأ برواية حلمها بينما «دون ألونسو» يدونه بدقة، طالبًا منها أحيانًا توضيحات حول بعض الصور أو الأمور الغامضة، ومبديًا تقديره للغة التي تعرض بها «لوكريثيا» أحلامها، وهي لغة مختلفة جدًّا عن كلامها الذي تستخدمه للتعبير عن نفسها في الحياة اليومية، ولتلك الذاكرة الدقيقة والصائبة جدًّا، ليس للأشياء التي تراها فقط وإنما كذلك للكلمات التي تنطق بها شخوص رؤاها ودقائق مظهرهم، سواء تقاطيع وجوههم أو

أشكال ملابسهم، وصور الحيوانات، وتصميم المباني والمدن والكنائس والقلاع، وتوزع الجبال والوديان، والغابات والأنهار، والدروب وشواطئ البحار حيث تحملها رؤاها.

ـ ما يزيد من تقديري أنكِ تتكلمين عن أشياء لم تريها ولم تسمعي باسمها من قبل، لأنه لا يمكن لوضعكِ أو عملك أو أحاديثك مع من تربيتِ بينهم أن توفر لك فرصة معرفة تلك الأشياء.

في تلك الأزمنة بدأت تظهر بإلحاح بعض النذر التي أشارت إليها أحلام الآنسة: الصياد العجوز يقسم صيده إلى أجزاء، ويشير إلى الحالمة أنه يتوجب على المطارنة وأحبار الكنيسة أن يقتسموا أملاكهم بالطريقة نفسها لتسكين جوع الفقراء واتقاء غضب السماء. أو تظهر شباكه ممزقة، وقد ضاع الصيد منها، والصياد العجوز يقول إن تلك الخسارة هي إشارة أذى مشؤوم سيلحق بإسبانيا والكنيسة. أو أن الرجل الذي يرتدي الجلود على الطريقة التي يُرسم بها «يوحنا المعمدان»، يريها مختلف أماكن العالم التي تُهيأ فيها الجيوش والأساطيل لمهاجمة إسبانيا: من الشمال فرنسا وإنجلترا وبولونيا بهراطقتهم، ومن الجنوب والشرق الأتراك المحمديون.

عند الانتهاء من استنساخ الحلم، كان «دون ألونسو» يتكلم مع «لوكريثيا» في مسائل أخرى. لقد كان رجلًا متقلب المزاج، يمكن له أن يبدي عطف أب طيب ورقته، أو يتخذ مظهرًا فظًّا ونائيًا، كما لو أنه على شقاق مع الجميع.

في إحدى المناسبات التي ورد فيها ذكر الملك كشخصية أخرى في الحلم، انطلق «دون ألونسو» بالسباب ضده، متهمًا إياه بعدم الرحمة، وبأنه يحمي نفقات الإسكوريال الباهظة، والحملات الحربية التي لا تنتهي،

وتوزيع المناصب الكنسية الرفيعة على أناس ميزتهم الوحيدة هي البراعة في مكائد البلاط ومؤامراته.

وفي مرات أخرى كان «دون ألونسو» يشرح لـ«لوكريثيا» ما الأحلام حسب معارف الحكماء والعلماء، بدءًا من العقائد القديمة. وكانت «لوكريثيا» تستمع بانبهار إلى الاقتباسات، شديدة الصعوبة على فهمها، التي يستشهد بها من «أبوقراط»، و«جالينوس»، و«أرسطو»، وغيرهم من المؤلفين.

وبمساعدة كتاب صلوات، أراها «دون ألونسو» أن الأذرع السوداء التي تبرز من أثلام كل صفحة هي الحروف، ومنها تتركب الكلمات والصلوات. وخلال أيام قليلة، صار بإمكان «لوكريثيا» التعرف على تلك الحروف وقراءة بعضها، وكانت تُذهل من تحول تلك الحروف في رأسها، فجأة، إلى صورة شيء تستطيع التعرف عليه.

علَّمها «دون ألونسو» كذلك إمساك الريشة بأصابعها والمرور بها على الورق بالمهارة المطلوبة كي لا تتداخل الرموز في خربشات، إلى أن تعلمت «لوكريثيا» كتابة اسمها.

وفي أواخر الشهر، بينما كان الجو يزداد برودة، قال «دون ألونسو» لـ«لوكريثيا» إنه لم يعد يستطيع تأجيل عودته إلى طليطلة، حيث عليه أن يتابع واجباته اللاهوتية في الكنيسة المقدسة. وقال لها إن من سيتولى تدوين أحلامها، في غيابه، سيكون الراهب «لوقا دي أييندي»، وهو راهب فرنسيسكاني مرموق في طائفته.

اسم الراهب، وهو نفسه الذي رتل الصلوات الابتدائية في ذلك المساء الذي ذهبت فيه «لوكريثيا» وأمها للاستماع إلى الجندي المتنبئ، كان

معروفًا في بيتها، إذ كان صديقًا لأمين سر الملك «أنطونيو بيريث»، والذي يبدو أنه قد ساعده كثيرًا عند اعتقاله، قبل سنوات.

في ذلك اليوم بالذات، بعد الغداء، بعث «دون ألونسو» تابعه «خوان دي تابيس» في عربة خيول لنقلهما إلى دير «سان فرانثيسكو»، حيث التقتا في كنف صليبه مع رجلي الدين. كانت الغيوم العابرة تحجب الشمس وتكشفها واضعة في الإيماءات، مع الظلال العابرة، مظهرًا يضفي على الاجتماع، مع ريح المساء الباردة، جوًّا من التآمر والمداراة في ذلك المكان الصامت والمعزول.

قال «دون ألونسو» بوقار شديد:

ـ «لوكريثيا»، بُنيتي، ترين أمامك حارس «سان فرانثيسكو»، الراهب «لوقا دي أييندي». إنه متدين ورع ورجل واسع العلم، وسيكون في غيابي متلقي اعترافك والمستودع الأمين لأحلامك ورؤاك. امنحيه ثقتك كما لو أنك تتعاملين معي أنا، وتقبلي نصحه باهتمام وامتنان.

ردَّت «لوكريثيا» وهي تقبِّل حزام الراهب الفرنسيسكاني:

ـ سأفعل يا أبتاه.

تكلم الراهب «لوقا» بمودة إلى «لوكريثيا» وأمها منذ تعرف عليهما، وبعد سفر «دون ألونسو» إلى طليطلة، صار هو من يأتي كل يوم تقريبًا، على متن بغلة، إلى بيت «لوكريثيا»، في الصباح أحيانًا وبعد الظهر في أحيان أخرى، كي يدون أحلامها. كان يبدو أكثر شبابًا من «دون ألونسو»، وأكثر منه قوة، لكنه ليس بمثل تزينه باللباس ولا بمثل أناقته، وتطغى رائحة العرق في جسده على رائحة أي عطر.

كان الراهب «لوقا» كثير الكلام، يسأل أكثر من «دون ألونسو». وفي بعض الأحيان، بينما هو يسمع منها أحداث الحلم، يغامر فورًا بتقديم التفسيرات بثقة كبيرة، ويجد في الرؤيا على الدوام نبوءة مشؤومة متعلقة بأسطول «الأرمادا» الذي يجري إعداده ضد الإنجليز، أو حول إسبانيا أو صحة الملك.

ـ مما لا ريب فيه أن هذه السماء الحمراء تعني دمًا، دماء الإسبان.

يهتف الراهب «لوقا» حين يسمع «لوكريثيا». ويجد، بالطريقة نفسها، أن البحر المقفر يشير إلى أن مصير «الأرمادا» قد تقرر، وأن القمر هو رمز مؤكد لغزو إسلامي، وأن أشجار المنطقة التي تظهر في الحلم لها طبيعة تتطابق مع نذير الشؤم بشكلها وأوراقها، وحتى النوافذ الفارغة في الشوارع هي فجوات تنبئ بفراغ جماجم الموتى.

وبعد الانتهاء من تدوين الحلم أيضًا، كان من عادة الراهب «لوقا» تبادل الحديث بعض الوقت مع «لوكريثيا» وأمها. وكان حديثه عن شؤون المدينة التي تشغل أحاديث الجميع، ويبدو أنه يعرفها جيدًا، لكنه كان يتحدث كذلك في أمور أكثر فرادة.

كان لدى الراهب الفرنسيسكاني ميل كبير إلى ما يسميه أزهارًا مثيرة للفضول في الحديقة الدنيوية، ويجعل من نفسه صدى لكل الأحداث الغريبة والخارقة التي تبلغ مسمعه، إلى حدٍّ أنه يأخذ في تسجيلها في لوائح: قصص تماثيل تبكي، ووجوه تبدو مطبوعة على جدران أو أثاث، وولادات أطفال وحيوانات بتشوهات أو زوائد مسوخية، ونيازك غير مألوفة، والظاهرة التي لا تفسير لها في جعل النواقيس تُقرع من تلقاء ذاتها، أو شموع الكنائس تنطفئ من دون ريح، وكل ما لا يمكن فهمه بوضوح على ضوء عادات الأشياء أو الحس السليم.

ومع ذلك، فإن التواصل مع الراهب «لوقا دي أييندي» انقطع فجأة.

ففي إحدى الليالي حلمت «لوكريثيا» به. رأته يصلي في حجرته في الدير، فأبدى الراهب «لوقا» اهتمامًا كبيرًا، وطلب من الآنسة أن تصف له المكان. عندئذ أخبرته «لوكريثيا» بما رأته: فراش بائس، نافذة ضيقة، تمثال لسيدتنا العذراء، صندوق، بينما الراهب «لوقا» يتأملها بنظرة تزداد صرامة.

هتف أخيرًا وهو يبدي ملامح استياء:

ـ الحال ليس هكذا. حجرتي ليست كما تقولين.

ردت «لوكريثيا» مرتبكة:

ـ هكذا حلمتُ بها.

ومن دون أي كلمة أخرى، نهض الراهب «لوقا» وانصرف، وانقضت عدة أيام بعد ذلك لم يحضر خلالها إلى البيت. بدأت «آنا أوردونيث» تشعر بالقلق، ذلك أن «خوان دي تابيس» لم يعد يأتي أيضًا لزيارتهما، بعد أن كان يزورهما من قبل مرتين كل أسبوع، باسم سيده، كي يحمل هدية ما إلى «لوكريثيا» وأسرتها: حجل أو أرانب، لحوم، شحم خنزير أو كيس نقود.

وفي أحد الأيام، جاء «دون ألونسو دي ميندوثا» فجأة، ويبدو أنه حضر من طليطلة حين عرف بتوقف تدوين الأحلام. ابتهجت «لوكريثيا» ابتهاجًا عظيمًا حين رأت الكاهن القانوني. وعندما قبَّلت يديه وتنشقت عطر العنبر الذي يروقها كثيرًا، أحست في قلبها أن ذلك الرجل بالنسبة إليها هو الأب الدنيوي الحقيقي الذي منحته لها العناية الإلهية.

أبدى «دون ألونسو» كثيرًا من المودة نحوها، وأعرب عن اهتمامه بما

جرى وجعل الراهب «لوقا» يتوقف عن المجيء، فلم تستطع «لوكريثيا» قول أي شيء سوى إخباره بقصة حلمها ذاك عن حجرة الراهب الفرنسيسكاني.

لم يقل «دون ألونسو» شيئًا، لكنه كتب الأحلام التي رأتها «لوكريثيا» ولم يدونها الراهب «لوقا»، ووعدها قبل أن ينصرف بأن الأمور ستسوى.

وبالفعل، رجع الراهب «لوقا» بعد يومين من ذلك إلى بيت «لوكريثيا» كما لو أن غيابه ذاك لم يحدث قطُّ، وعاد إلى تدوين أحلام الفتاة بالاهتمام الذي كان يفعل به ذلك قبل غيابه المفاجئ.

# ٥

رحيل «دون ألونسو» الثاني الذي ترك لدى الوداع في يدي «آنا أوردونيث» حفنةً جيدة من الدوقيات، حمل مستجدات إلى حياة «لوكريثيا»، وسرعان ما وجدت نفسها تحظى بمساعدة كوكبة صغيرة من أصدقاء جدد يبدون نحوها كثيرًا من المجاملة. فبعد أيام قليلة من عودة الراهب «لوقا» إلى تدوين رواية «لوكريثيا» لأحلامها، جاء لزيارتها الصَّباغ «مارتين دي آيالا»، الذي يعرفه الجميع بلقب مزيل البقع، وهو زوج «مجدلينا دي خسيوس»، صديقة «آنا أوردونيث» المقربة.

حيا الصَّباغ «لوكريثيا» باحترام شديد، مقبلًا ظاهر يدها مثلما تُقبَّل أيدي أحبار الكنيسة البارزين، فاحمر وجه الفتاة خجلًا وحاولت سحب يدها من تودد ذلك الرجل.

اعترف لها «مارتين دي آيالا» بإيماءة مبهمة، من دون أن ينتبه إلى خجل الآنسة وهو يواصل الإمساك بيدها بين يديه:

ـ أنا أيضًا ينكشف لي الغيب. أنا أشد أبناء البشر وضاعة وتفاهة، وعبد من يحبون السيد يسوع المسيح، أرى أيضًا إشارات الكوارث التي

ستحل. أنا أيضًا أرى دمار إسبانيا، والخطر الذي يحيق بتاج الملك ومستقبل بيته وسلالته.

سألته «لوكريثيا»، وهي تشعر بمزيد من الخجل:

ـ وكيف تعرف أنني أحلم بهذه الأمور كلها؟ أأخبرتك أمي بذلك؟

ـ لقد حظيتُ بامتياز قراءة أحلامك، في نسخة من مدونات الراهب «لوقا دي أييندي». وأنا أؤمن حقًّا، ومعي آخرون كثيرون، بأنك نبية إلهية. أنا أعرف أيضًا أن يوم الانتقام والمرارة صار وراء الباب ولن تُسامح نملة ما ألحقه بها جمل أو فيل.

حين علمت «لوكريثيا» أن الأحلام التي يسجلها الراهب «لوقا» لم تعد تُحفظ بالتكتم الذي طالما أوصى به «دون ألونسو»، أحست بالاضطراب والخوف، ولم تتمكن من طمأنتها التلقائية التي كان «مارتين دي آيالا» المجامل والملاطف يتكلم بها.

ومع ازدياد ضيقها من اتساع انتشار خبر رؤاها، أخبرت «لوكريثيا» الراهب «لوقا» بمخاوفها خلال الاعتراف:

ـ علمتُ أن مدونات أحلامي تُستنسخ، وأن أشخاصًا لا أعرفهم يطَّلعون عليها ويقرؤونها.

سأل الراهب، بعد تردد لاحظته «لوكريثيا» بقلق:

ـ وهل يضايقك هذا؟ أخشى أن يُظن أنني أنا من أنشر أحلامي بنية خبيثة، وتجد محاكم التفتيش في أحلامي، أخيرًا، مسوغًا لمعاقبتي.

ـ لا علاقة لمحاكم التفتيش بأحلامك يا فتاة، فليس فيها ما يناهض

الدين أو الكنيسة، وهي بالتالي ليست مادة لمحاكم التفتيش التي تلاحق فساد الهراطقة والمرتدين.

وعمد الراهب «لوقا» نفسه الذي أوكل إليه «دون ألونسو دي ميندوثا» مهمة المرشد الروحي لـ«لوكريثيا»، إلى تكليف «مارتين دي آيالا» بتدوين أحلام الآنسة عندما لا يكون هو موجودًا.

وعلى الرغم من عدم فقدان الصَّباغ لمظهره المتكتم، إلا أنه كان كثير الكلام. قال إنه على اتصال يعجز عن وصفه مع الأخت «ماريا دي لابيسيتاسيون»، وهي راهبة ترأس دير راهبات في لشبونة، في يديها وقدميها وخاصرتها قروح كقروح آلام سيدنا يسوع المسيح، وهي في صلواتها تغيب عن العالم إلى أن تفقد الوعي. وكل خميس، بينما هي تردد صلاة «السلام عليك يا مريم»، تشعر حول صدغيها بأشواك التاج الذي عذَّب الفادي، بينما يتلألأ حولها نور السماء نفسه في هالة خارقة. ويؤكد مزيل البقع:

ـ هذه الراهبة القديسة ترى رؤى عن نهاية الملك الكارثية، وهي تُضيف إلى ذنوبه اغتصابه عرش الأمة البرتغالية.

مع التحاق «مارتين دي آيالا» كمدونٍ لأحلامها، راحت «لوكريثيا» تتعرف بصورة أفضل على ذلك الرجل الضئيل الذي يشعر نحوها باندفاعات عاطفية مفاجئة ويعانقها ويقبلها مرات كثيرة، مستذكرًا مجد الرب.

وكما الراهب «لوقا»، كان «مارتين دي آيالا» الذي يفضل أن يعرِّف بنفسه على أنه «مارتين دي نوسترا سنيورا» أو «مارتين دي سانتا ماريا»،

يبدي كراهية كبيرة نحو الملك، وينعته بالراعي المهمل الذي يتخلى عن نعاجه لأفواه ذئاب الضرائب والإتاوات الباهظة والعدالة الخبيثة. وعلمت «لوكريثيا» كذلك أن الصَّباغ يهيئ لمذكرة يحذر فيها الملك من عقاب إلهي، بسبب خطاياه، ينزل على ملكه وعلى إسبانيا، وأن تفادي ذلك يستدعي من الملك إصلاح أسلوبه في الحكم والتوبة والتكفير. وفي بعض الأحيان، كان الصَّباغ يقرأ لـ«لوكريثيا» مقاطع من مذكرته، فكان خداه يتأججان وهو يقرأ، ويغطي العرق جبهته، ويتنفس بلهاث متهدج ومندفع يثير ذعر «لوكريثيا».

في صباح أحد الأيام، جاء الراهب «لوقا» إلى بيت «لوكريثيا» يرافقه سيد في مثل سن «دون ألونسو»، يرتدي تحت عباءته السوداء سترة جلدية مفتوحة ذات مظهر قديم بعض الشيء، مع ملحقاتها الهولندية المكوية جيدًا حول العنق والمعصمين، وسروالًا واسعًا يُبرز نحافة ساقيه اللتين تمتدان تحته.

وكان السيد يعتمر قبعة عالية تطيل وجهه أكثر مما هو عليه، وينفتح في شحوبه فم قاتم، أسنانه منخورة، ويمسك بيده قبضة سيفه الكبير كما لو أن السلاح يساعده في تثبيت جسده المحدودب قليلًا. قال الراهب «لوقا» إن ذلك الفارس القادم لتوه من بلاد الهند هو من الأشخاص البارزين الذين يتلقى هو نفسه اعترافاتهم.

كان السيد أشبيليًّا، يُدعى «دون جييَّن دي كاساوس». ومع أن الراهب «لوقا» أولى أهمية خاصة لشرطه كمطَّلع جيد على مذاهب التنجيم اليهودي، إلا أن «دون جييَّن» كان قائدًا في الحروب الموريسكية، وحاكمًا في بلاد الهند «دي يوكاتان»، و«كوثوميل»، و«تاباسكو». وقد جاء إلى العاصمة

ليطلب من الملك منحه الإذن بالتوغل في أراضٍ إلى الشمال من إسبانيا الجديدة (المكسيك)، حيث يقال إن هناك، فيما وراء الصحارى الفسيحة، مدنًا مشيدة من الذهب الخالص في كل آجرة، وكل قرميدة وكل بلاطة فيها. ويحافظ كسمة ثابتة لشخصه على عادة العجرفة، والنظر شزرًا، وربما بسبب تشوه عضلي، يتكلم بفم معوج قليلًا إلى أحد الجانبين.

كان لـ«آنا أوردونيث» أخت في «يوكاتان»، متزوجة من كاتب لدى «دون جييَّن»، وكان السيد نفسه يحمل لها رسالة من أختها البعيدة.

ـ لا بد أن تعرفي أنني رغبت في تعيين صهرك حاكمًا ينوب عني، لكن السادة في مجلس بلاد الهند، ممن يعرفون عن بلاد الهند بقدر ما أعرف أنا عن التطريز، لم يسمحوا لي بذلك. هكذا هي الأمور في تلك الممالك.

معرفته بأقارب «آنا» و«لوكريثيا» أولئك، أفادت في التخفيف من تصلبه نحوهما، فكان تعامله المتنازل مع «لوكريثيا»، بالنظر إلى عجرفته عمومًا، يبدو أشبه بتعاطف شخص أقل تكبرًا منه.

بعد تلك الزيارة الأولى، بدأ «دون جييَّن» يكثر من مرافقة الراهب «لوقا» إلى بيت «لوكريثيا»، ويحمل في بعض الأحيان هدية للحالمة. ومن دون أن يكون ميالًا إلى المعانقات التقية وإلى عبارات الولاء الورع مثل الصَّباغ، اعتاد أن يقترب كثيرًا من «لوكريثيا»، ويمسك في بعض الأحيان يدها ويبقيها بين يديه بينما هي تروي أحلامها.

وفي إحدى المرات، بينما الراهب «لوقا» يدون أحد أحلام الفتاة، اقتربت هي من المنضدة كي توضح بعض الشكوك التي ساورت الراهب،

فدنا «دون جيين دي كاساوس» منها إلى أن التصق بجسمها، فأحست فجأة عند كليتها بشيء صلب في الرجل، ليس عظمًا من عظامه بأي حال. فابتعدت بتكتم، وصارت تحاول منذ ذلك اليوم، إذا ما كان «دون جيين» حاضرًا، ألا تغادر مجلسها على بعض الحشايا الموضوعة على الأرض.

بعد انضمام «مارتين دي نوسترا سنيورا» و«دون جيين دي كاساوس»، كشخصين مهتمين بأحلام الفتاة، توالى انضمام أشخاص آخرين. وفي تلك الأيام أيضًا جاء الراهب «لوقا دي أييندي» ومعه جندي سابق، اسمه «دومينجو لوبيث نافارو»، تحول مع الزمن إلى مُصلِّب معتمد للمرضى، وكانت أسرة «لوكريثيا» تعرفه، إذ إنه صلَّب أخاها الأصغر «ألونسينو» خلال ورم متقيح أصيب به الطفل، ومأمور قضائي من البلاط معروف بلقب «التريخويكي»، مشهور في المدينة بمتابعته الشرسة للتقيد بأنظمة حسن إدارة الحانات، والخمارات، والمواخير، ودور السمر.

حضور ودعم كل هؤلاء الناس منح مزيدًا من الشهرة لـ«لوكريثيا»، حتى إن النبيلة مالكة البيت الذي تعيش فيه الأسرة، تلك السيدة الإنجليزية المدعوة «جين دورمير» التي تزوج بها دوق «فيريا» بعد أن تعرَّف عليها في إنجلترا، عند زواج الملك «فيليبه» من الملكة «ماريا تودور»، أرسلت في أحد الأيام مدبرة بيتها لزيارة الفتاة، وأهدت إليها تميمة فضية باركها البابا، بعد أن وجهت إليها كثيرًا من الأسئلة حول أحلامها.

كان «ألونسو فرانكو»، أبو «لوكريثيا»، في بلد الوليد خلال الأيام التي بدأ فيها «دون ألونسو دي ميندوثا» وصايته الروحية على ابنته. وعندما رجع إلى بيته بمناسبة أعياد الميلاد، اضطر إلى تقبل ذلك الوضع على مضض، لكن الازدهار الجلي الذي جلبته فضائل «لوكريثيا» التنبئية إلى

مسكن الأسرة أجبره على تقبل الظروف الجديدة من دون تذمر. أضف إلى ذلك أن «دون ألونسو» والراهب «لوقا دي أييندي» كانا من المتنفذين، وكان «ألونسو فرانكو» مستعدًّا للنظر إليهما بعين الرضا لارتباطهما بحزب أمين سر الملك المعزول والمسجون. ومع ذلك، وقبل أن يرحل من جديد، تحدث «ألونسو فرانكو» إلى «آنا أوردونيث» و«لوكريثيا»، وقال لهما إنه لا يريد التدخل في مسألة رؤى ابنته، وإن كان يأمل ألا يَلحق الضررُ الجميعَ بسببها.

ـ ضرر؟ وهل ترى ضررًا في هذه السمكة أو في فراخ الحمام تلك؟ أوَلن يعرف رجال دين حكماء كهؤلاء ما الذي يناسب العقيدة السوية؟

ـ لن يكونوا أول كهنة أراهم برداء وقلنسوة المحكومين بالإعدام حرقًا.

ـ أبناء بيت إمارة، مثل «دون ألونسو دي ميندوثا»؟

ـ في صباي، وأنا في بلد الوليد، رأيت كيف كان جلالته يرسل إلى المحرقة لاهوتيين قانونيين، ومأمورين قضائيين، ومتحدرين من سلالات ملكية كما لو أنهم حطب سنديان، من دون أن يهتم قلامة ظفر بذلك.

ـ هيا، هيا، يا زوجي، اذهب مطمئنًا ودعنا من دون قلق، فـ«لوكريثيا» نبية حقًّا، وقد انتهت في هذا البيت أيام السردين البائس والصوم في غير مواسمه.

لم تنسَ «لوكريثيا» تحذيرات أبيها، وكان قلقها في ازدياد مستمر من اتساع صيتها. وفاقم من مخاوفها، علمها أن الراهب «لوقا» يواصل

استنساخ مزيد من نسخ أحلامها لتوزيعها في العاصمة. وهكذا، وعلى الرغم من أن الراهب «لوقا» كان الناصح الوحيد لها في قلقها ومخاوفها، خرجت في أحد الأيام من بيتها، بعد الانتهاء من رواية حلمها، وذهبت لزيارة الكاهن «خيرونيمو دي أجيار» الذي كان متلقي اعترافاتها قبل أن تتعرف على «ألونسو دي ميندوثا».

جعل الراهب الدومينيكاني «لوكريثيا» تنتظر طويلًا قبل أن يستقبلها، وعندما فعل ذلك، قابلها بفتور أوشكت الفتاة معه على الانفجار في البكاء. ومع ذلك، كانت الشكوك تحاصرها إلى حدٍّ دفعها إلى الإلحاح في طلب النصيحة من متلقي اعترافاتها القديم بشأن مسألة أحلامها والتدوين الذي يجري لها.

لم يكد الكاهن يتيح لها الكلام، وصرفها في النهاية بجفاء شديد، غير أن «لوكريثيا» خمنت أنه مُطَّلع على الموضوع، لأن أمرها صار شائعًا في المدينة كلها من دون شك، وأدركت بوضوح أن السبب المباشر لتذمر الكاهن «خيرونيمو» وتأنيبه لها غير مرتبط بأحلامها أو بالنُّسخ التي تدون منها، وإنما لأن «دون ألونسو» والراهب «لوقا» قد حلا محله كمرشدين روحيين لحياتها وحياة أمها، فقد كان معظم كلامه سبابًا لما سماه سرقة الأرواح، مقارنًا إياه بسارقين آخرين للحياة الدنيوية:

ـ الأرواح التي في وصايتي هي ركيزة مقامي، مثلما هو قطيع النعاج أساس عمل الراعي. وهذان الكاهنان اللذان تحدثينني عنهما ليسا إلا سُرَّاق أرواح. ليس في نيتي أن أقيِّد حريتك في الاختيار، ولكن اعلمي أنك إذا ما واصلت التعامل مع ذلك المدعو «دون ألونسو دي ميندوثا»، وهو المعروف بأنه مجنون، ومع قيم دير «سان

فرانثيسكو» الذي هو دساس داهية، ومع السكيرين الكبيرين، مزيل البقع و«التريخويكي»، فسوف تنتهين إلى الوقوع معهم، وإلى أن تحاكمي في ديوان التفتيش. أما بالنسبة إلى ذاك المدعو «دون جييِّن دي كاساوس»، فعليك أن تعلمي أنه رجل جرده مجلس بلاد الهند من منصبه، وقد هجر زوجته وابنته مخلفًا إياهما في أيدي المتوحشين.

أدت تلك الشتائم إلى شعور «لوكريثيا» بغم شديد بدل أن تخلصها من قلقها. فقررت عندئذ البحث عن العون لدى شخص يمكن له، بسبب ظروف حياته، أن يفهم بصورة أفضل ما الذي يجري لها.

وفي اليوم التالي، بعد انصراف الراهب «لوقا»، وخفية عن أمها أيضًا، خرجت للبحث في أحد شوارع أبرشية «سان بيدرو» عن تلك المتدينة البرتغالية المدعوة «خوانا كورِّيا»، والتي التقت بها في مرة سابقة. وردًّا على أحلامها، روت لها الرؤى الرهيبة التي تحاصرها هي نفسها أيضًا في بعض الأحيان. وقد كان دير الراهبات في بيت صغير محوط بأراضٍ محصودة، وما بين بقايا الحصاد تحفر بعض الخنازير وينقر الدجاج.

روت «لوكريثيا» للراهبة البرتغالية رؤى كثيرة مبهمة لم تكن لديها القدرة على تفسيرها. حدثتها عن ملكة إنجلترا التي رأتها جالسة على كرسي بلا مسند، وفي حضنها خروف ميت، بينما هي تدس يديها في أحشاء الحيوان لتخرجها مضمخة بالدم، وتمصهما بعد ذلك بجزع. وحدثتها عن نعوش تطفو في البحر وعليها أسماء ملكية، وعن دجاجات تسبح في البحر أيضًا، مثل البط، ولها وجوه سيدات ساميات من العاصمة. وكلمتها عن إنجليزيات يضربن شجرة لوز، وعندما كسرت إحداهن، بضربة غاضبة، فرعًا حديثًا من الشجرة، اتهمتها الأخريات بأنها أصابت

أفضل ما في الأميرة. حدثتها عما رأته عند أصل مدفن القديسة «ليوكاديا»، في كاتدرائية طليطلة المقدسة، حيث تدفق ينبوع دم، وكيف كان الدم يخرج إلى الشارع ويتحول إلى نهر يرتفع بعلو رمح، ويحمل في تياره الأحمر كثيرًا من الأجساد الميتة.

وروت لها كذلك رؤى أخرى تبدو واضحة جدًّا، والتفسيرات التي كان الصيادان والرجل ذو الأسمال يقدمونها لها على امتداد تلك الشهور: ضياع البلاد المؤكد بسبب خطايا الملك، وموت العاهل نفسه، وحتى الظروف التي سيبدأ بها الاسترداد الجديد لإسبانيا، بعد أن يغزوها الأعداء الذين سيتوافدون من كل الجهات.

أخيرًا واستها الراهبة قائلة لها إنها غير مسؤولة عن تلك الرؤى. وذكَّرتها، مثلما تفعل أمها، بأنها في أيدي أساقفة وكهنة شديدي الورع والحكمة، ولا بد أنهم يعرفون جيدًا ما هو مناقض للعقيدة السليمة. بهذا كله، أحست «لوكريثيا» بشيء من العزاء والسلوى.

وقد وجدت شكوك «لوكريثيا» حلًّا لها في النهاية بحلم رأت فيه جدلًا بين الأشخاص الثلاثة الذين يظهرون لها، وبدا لها أن الحل صار واضحًا.

كانوا أيضًا قبالة بحر «فينيستر»، في ساعة غسقية، وكان الثلاثة يتحاورون حول تشوش «لوكريثيا». كان الصياد الشاب يرى أن الكاهن «خيرونيمو دي أجيار» يفهم جيدًا تلك الأمور، وأكد أن مرشدها هو من سيمنح «لوكريثيا» الطمأنينة والثروة، لكن الصياد العجوز رأى أنه على الآنسة أن تثق بالراهب «لوقا دي أييندي» وحده.

ريح غربية عاتية كانت تبعثر بقوة شعور الصيادين وشباكهم، وأدركت

«لوكريثيا» أن تلك الريح تهب بمشيئة لا تُقاوم، تأمرها بطاعة «دون ألونسو» والراهب «لوقا»، صديقي وتابعي «ميجيل دي بيدرولا بيامونتي»، الجندي المتنبئ الميمون. وعندئذ قررت التخلي إلى الأبد عن نصيحة الكاهن «أجيار».

دمدمت: «لن أعود للقائك أبدًا أيها الراهب خيرونيمو دي أجيار».

عندئذ دخل إلى حلمها «ميجيل دي بيدرولا» نفسه، بنظرته المتوقدة كجمرة، ليشجعها بابتسامة، وليوجه إليها تحذيرًا كذلك:

ـ «لوكريثيا»، أيتها الآنسة ذات العينين السوداوين، انتبهي جيدًا لمن تروي رؤاكِ وأحلامك. وخذي العبرة مما حلَّ بي.

# ٦

في تلك الأيام، خرجت «لوكريثيا» و«آنا أوردونيث»، بصحبة الراهب «لوقا» الذي يمكنه، بفضل صداقاته وعلاقاته، الدخول بحرية إلى كل معابد المدينة، وذهبتا لزيارة كنيسة القصر الملكي، وتمكنتا هناك من رؤية الجدارية التي أثنى عليها جميع من استطاعوا مشاهدتها.

كانت تُروى أعاجيب عن اللوحة الجدارية، كما لو أنه لا وجود في العاصمة لشيء يستحق المشاهدة أكثر منها، وكان الحديث يدور بإعجاب شديد عن الشخوص الذين فيها، عن أوضاعهم وملابسهم، وتفاصيل المشهد بكامله. وقد تحول التمكن من رؤية الجدارية إلى امتياز، بغض النظر عن قيمتها الحقيقية، وإن كان امتيازًا متواضعًا. وكان من ليس لهم من يُدخلهم إلى تلك الكنيسة يشعرون بأنهم أشد مواطني المدينة أرقًا.

بدت «آنا أوردونيث» مزهوة جدًّا باعتمادها على مكانة الراهب «لوقا» ونفوذه في تلك الزيارة، لكنها كانت مزهوة أيضًا لأنها بدأت تتذوق طعم الشهرة وهي بصحبته، ذلك أن السُّمعة التي راحت تكتسبها ابنتها كمتنبئة، فضلًا عما كانت تأتي به إلى بيتها من هدايا وصدقات،

منحتها هي نفسها، أم فتاة الرؤى، شهرة لم تتصورها من قبل بين جيرانها وأصدقائها وأقربائها.

كان يتوسط الجدارية رسم لسيدنا يسوع، وعلى جانبيه مريم العذراء ويوحنا المعمدان. وفي الجزء السفلي، عدة مشاهد لفرسان ورهبان وحكماء، وفي الوسط تقديس الخروف في مرتع بديع تجوبه ملائكة، وعذراوات وأناس أتقياء.

كان الحقل يمثل فصل الربيع، بأعشاب تغطيها الأزهار البرية، وتتفتح فيها الزنابق والورود، بينما تحلق العصافير في السماء، وفيما وراء دغل الأشجار، تبرز أبراج الكنائس والقصور البديعة، مشيرة إلى مدينة المختارين المحظوظين.

كانت «لوكريثيا» وأمها تقدران التشابه الذي شخَّص به الرسام كل شيء، مذهولتين من المظهر الحقيقي للقطع الذهبية، والأحجار الكريمة، ومختلف أنواع الثياب والأردية.

في الجزء العلوي، في الجانبين كليهما، وفيما وراء الملائكة الموسيقيين الذين خلف مريم العذراء ويوحنا المعمدان، يظهر أبوا البشرية الأولان عاريين. ولدى إمعان النظر إلى رسم حواء، أبدت «آنا أوردونيث» بهجة عظيمة:

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، انظري إلى حواء وأخبريني إذا ما كنتِ ترين ما أراه.

ـ لست أفهم ما تعنينه يا أماه.

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، يذهلني شبه هذه الصورة بك، في شكل الوجه وفي لون البشرة.

ـ دعي عنكِ هذا يا أماه، ولا تقولي هذه الأشياء، فهي تُشعرني بالخجل.

ـ أجل، عليكِ الشعور بالخجل، وأنت الشابة العذراء، لو أن أحدًا آخر قال ذلك، أما أنا فإنني أمكِ التي أنجبتكِ.

عبارات الإطراء تلك كانت تجعل «لوكريثيا» تتورد خجلًا من جهة، لكنها تمنحها، من جهة أخرى، اليقين بجاذبية أحست بها وهي طفلة في عيني الرسام «ثينثيناتو» الملاطفتين، وعززتها معانقات العجوز «مارتين دي آيالا»، وتقرب «دون جييَّن دي كاساوس» اللجوج منها.

كانت أمها تقول لها أحيانًا، بشيء من التأنيب، إنها صارت في سن الزواج وأكثر:

ـ «لوكريثيا»، ستصيرين صبيةً عجوزًا، لا بد أن يكون هناك من يتودد إليك وأنت بهاتين العينين وهذه البشرة.

ـ أنتِ تعرفين يا أماه أن هبة الطبيعة ليست كافية في هذا الشأن.

ردت «آنا أوردونيث» متنهدة:

ـ أعرف ذلك جيدًا يا بنتي، ولا بد من الدعاء كثيرًا للرب كي يكسب أبوكِ ما يكفي من المال ويتمكن من شراء عقار ما لكِ، لأن ما نكسبه من عملنا لا يكاد يكفي نفقات البيت.

ومع أن شهرتها كانت تتزايد، إلا أن «لوكريثيا» لم تكن ترى، في أعماقها، أن وضعها كحالمة سيوفر لها فرصًا أكبر في العثور على متودد إليها.

ولكنها وهي تتأمل جدارية القصر، أحست حيال ذلك المشهد منظم الجمال ومتعدد الألوان، أن مكانها ربما يكون هناك بالضبط، بين

العذراوات والفرسان، حيث يشكل الدمقس والحرير، والياقوت واللؤلؤ، فرشة طبيعية لمجاري الينابيع، وحيث كل النظرات وادعة، من دون أي حزن يخدش انسجام الأشياء المكونة من البهاء والثراء وحدهما. فذلك المكان، فضلًا عن كونه تألق المجد السماوي، هو صورة للمكان الذي يمكن أن يشغله متنفذو الأرض.

بعد انتهاء الزيارة، وعودتها إلى أماكن عاداتها الأسرية، راود «لوكريثيا» اليقين بأنه قُدِّر لها، منذ الولادة، مصير بعيد جدًّا عن بهاء تلك الرسوم، في شوارع تجوبها، فضلًا عمن يلقون عقوبات الجلد والأشغال الشاقة في السفن، أعداد متزايدة من اللصوص والمتسولين من دون ترخيص، والغرباء والمتشردين الذين يكمنون عند الأسوار وفي أزقة الوحول النتنة.

وبعيدًا عن كل وداعة، في المدينة القذرة والحقيقية، كانت إشاعة الحرب في البحر التي يجري الإعداد لها ضد إنجلترا تُبقي الناس في قلق كبير، فالحديث يدور عن أكثر من مائة سفينة من أساطيل قشتالة، وأندلسيا، وفيثكايا، وجيبوثكوا، والبرتغال، وعن حوالي ثلاثين ألف رجل. وكانت ضخامة الأرقام تدفع إلى التفكير في ضخامة الحملة، وتكاليفها الباهظة، والنتائج الوخيمة التي ستحل إذا لم يحالفها الانتصار، حيث ستبقى الشواطئ الإسبانية من دون أي حماية. وكان يقال أيضًا إن الملك سقط مريضًا في حالة حرجة، بعد أن كان أعرج يستند إلى عكاز بفعل داء النقطة.

صارت أحلام «لوكريثيا» تزداد قتامة. فهي ترى وجه الملك هامدًا بعينين مغمضتين، وسط سنابل قمح، وإلى جانبه تاجه وصولجانه. وسمعت في أصوات الرجال الثلاثة كلمات إشادة بـ«ميجيل دي بيدرولا». ورأت

القرصان «دريك» يتأهب لمهاجمة «الأرمادا». وسمعت كيف كان زائروها الليليون يستنكرون كل الشرور التي اقترفها دوق «ألبا» في الفلاند.

«دون ألونسو دي ميندوثا» الذي عاد إلى العاصمة خلال هذه الفترة، شعر بحماسة عظيمة لتسجيل تلك الرؤى.

ـ رأيت كثيرًا من الأيتام الحفاة، بثياب مهلهلة، يهيمون على وجوههم في الحقول. بعضهم أطفال صغار جدًّا، وجميعهم يقتلعون الأعشاب ويأكلونها، لأنهم لا يملكون ما يقيمون به أودهم. «الملك ترك البلاد مهملة وآباؤنا ماتوا»، كانوا يتحسرون. ورأيتُ بعد ذلك خُرشوفة ضخمة عند رأس سرير الملك النائم، بل المستغرق في النوم إلى حدٍّ لا يشعر معه كيف يقترب وزراؤه منها وينتزعون أوراقها، واحدة فواحدة، إلى أن لم يبقَ منها حتى اللب. وعندئذ سمعت أصواتًا كثيرة، ووجدت نفسي في أرض خلاء، بعيدًا عن المدينة، ورأيتُ حشودًا من الناس تندفع نحوي وتصرخ طالبة العدالة، كما لو أن هناك من ينكل بهم. ورأيتُ وراءهم بريق شفرات سيوف، ثم سمعتُ بعد ذلك دوي طلقات، ورأيتُ هيئات جنود أتراك يهاجمون الحشود بضراوة. وعندئذ وجدت نفسي في المدينة، قريبًا من القصر، ورأيت كيف كانت بيوت العاصمة تُنهب، وكيف تُسرق المجوهرات والمرايا ولوحات الرسم، والمدافئ الفضية، والصحاف الذهبية، ورأيتُ ذبح الشيوخ والأطفال. ووسط صرخات الناس المحتضرين استطعت أن أرى كذلك أن النساء جميعهن قد اغتُصبن، المتزوجات منهن والعذراوات، المسنات والأطفال.

حلم كان يتكرر أحيانًا ويُظهر تلك «الأرمادا» التي يُعدُّها الملك

لمهاجمة الإنجليز، تترنح مزعزعة بعواصف رهيبة، ويبدو أميرالها، المركيز «سانتا كروث»، جريحًا أو مريضًا.

في صباح أحد الأيام، روت «لوكريثيا» لـ«دون ألونسو» أن رجل أحلامها العادي قد أخذها في تلك الليلة إلى شاطئ البحر، حيث وجدا رفيقيه المعهودين متسربلين بملابس الحداد وبوجهين حزينين جدًّا.

سألتهما «لوكريثيا» لماذا هما حزينان هكذا، فأجاباها بأن مرض المركيز «سانتا كروث» سينتهي بموته، وأرياها المركيز في فراشه مستنفدًا مثل جلد فارغ، وقد راح يزفر على الفور أنفاس الاحتضار المبحوحة.

ـ «دون ألفارو دي باثان»، مركيز «سانتا كروث» سيموت قريبًا جدًّا.

سألت «لوكريثيا» وهي تشعر بقلق عظيم:

ـ وماذا سيحل بأسطول «الأرمادا»؟

ـ ستظل «الأرمادا» بلا أميرال، تحاصرها السفن المعادية، وستدمر الرياح المعاكسة كثيرًا من سفنها. وستكون هناك مقتلة عظيمة للإسبان.

سجل «دون ألونسو» بصرامة مرتعشة تلك الرؤيا التي تؤكد «لوكريثيا» بحزم أنها رأتها.

كان الطقس لا يزال باردًا جدًّا، وعلى وحل الشوارع تتجمد آثار الخطى مشكلة عيونًا صغيرة جدًّا من الجليد محاطة برموش من الصقيع، عندما وصل من لشبونة خبر موت مركيز «سانتا كروث».

ـ حمل الخبر إلى بيت «لوكريثيا» «مارتين دي آيالا»، بعد أن طرق

الباب باندفاع شديد جذب فضول الجيران، ودخل بخطوات واسعة، ثم جثا على ركبتيه أمام الفتاة، وأمسك يديها وراح يقبِّلهما بشراهة تذكر بلحس الكلاب بألسنتها.

كان يكرر، ومن عينيه المحبتين تطفر الدموع:

ـ نبية إلهية! نبية إلهية! إنك نبية إلهية حقًّا!

راحت «لوكريثيا» تطلب، متضايقة من حماسة مزيل البقع:

ـ دعني، بالله عليك يا «مارتين»!

ـ العناية الإلهية تتكلم بفمكِ إلى الناس الإسبان، من أجل تصويب الطريق الذي يقود إلى هلاكهم!

خرجت «آنا أوردونيث» من المطبخ وقد أثارت ذعرها جلبة تلك الأصوات، فمدَّ مزيل البقع ذراعيه نحوها:

ـ سيدتي «آنا أوردونيث»، ابنتك الإعجازية «لوكريثيا» نبية إلهية، هذه الابنة التي ربيتِها على صدرك ترى ما سوف يحدث حقًّا! لقد مات «دون ألفارو دي باثان» في لشبونة!

هتفت «آنا أوردونيث»، وجثت أيضًا على ركبتيها:

ـ فليتبارك الرب!

وبعد قليل من ذلك، فوجئت «لوكريثيا» برؤية اجتماع جماعة من الناس غير المعروفين أمام باب بيتها، وكانوا يرتلون الصلوات بورع شديد.

أوضح «مارتين دي آيالا»، وكان قد هدأ، ولكن من دون أن يفلت يديها:

ـ إنهم أناس يعرفون موهبتك التنبئية يا «لوكريثيا»، وهم يصلون للرب سيدنا كي يحميك ويباركك.

ومع خبر موت مركيز «سانتا كروث»، وصلت أخبار مشؤومة أخرى: فالحمى تفتك برجال «الأرمادا» العظيمة، والمؤن تتعفن في الميناء، والسفن تتلف منخورة بقَنَعة[1] السفن.

---

(١) قنعة: رخوية بحرية تحفر لها أروقة في خشب السفن. (المترجم).

# ٧

قبل أن تفتح عينيها، أحست «لوكريثيا» ببرودة الليل كما لو أنها تخرج حقًّا من غيبوبة الحلم وتستعيد جلاء الحواس المعهود في اليقظة. لكنها أدركت في الوقت نفسه أن تلك البرودة المتركزة في وجهها فقط، مثل قناع وضعه أحدهم فجأة على وجهها، أو مثل جليد لاهث ينفخ قريبًا جدًّا منها، لم تكن علامة يقظة.

فتحت عينيها. لم يكن ثمة قمر، والوميض الوحيد الذي يُظهر بعض الأبعاد في السواد غير المحدود هو بريق المجمر الذي يظل مشتعلًا في القاعة، في الجانب الآخر من الستائر.

وعلى الرغم من الظلمة، كان بإمكان «لوكريثيا» أن تلمح كل السطوح والأركان كما لو أن المكان مضاء بنور أكبر مما هو فيه، فأيقنت أنها نائمة. عندئذ سمعت، على مقربة شديدة منها، صوت الرجل الذي يأتي إليها عادة في الأحلام:

ـ «لوكريثيا»، اخرجي إذا كنت تريدين رؤية الموتى المتبقين في إسبانيا.

وفي تلك النقلات المفاجئة في المكان التي اعتادت عليها في أحلامها، من دون حاجة إلى توالي وتسلسل التحركات والأعمال التي يتطلبها واقع اليقظة، وجدت «لوكريثيا» نفسها خارج البيت. كان الشارع مضاء كذلك بوميض جمر خفيف.

ومن دون أن تشعر بالمفاجأة أو الخوف، رأت «لوكريثيا» تنينًا هائلًا، بطنه الضخم يستند إلى الأرض بتلك المهابة التي ترقد بها الدجاجات لتحضن بيضها. لم تكن للتنين أجنحة، وكان جسده مغطى بصدفٍ أسود، وعلى رأسه الضخم الذي يُذكِّر شكله برؤوس الخراف، تنتصب قرون كثيرة متشعبة مثل التفرعات العارية التي تزين رؤوس الغزلان. وكان يخرج من فم التنين لسان أحمر طويل، ومن فتحتي أنفه دخان كثيف كدخان الحطب الأخضر. وكان ذيله، الملتف في جزء منه، طويلًا يصل طرفه حتى السماء.

كانت الشوارع تغص بأجساد مسيحيين ميتين، وكان هناك بين الموتى بعض المسلمين أيضًا. فكان التنين الأسود يتقدم بين الجثث، من دون أن يرفع كرشه عن الأرض، ويلقي إلى ما فوق قرونه أجساد المسيحيين المكومة، ثم يكنس بعد ذلك بذيله الذي بدا أن قوته كبيرة إلى حد أن ضرباته كانت تهدم الأبنية والأسوار كما لو أنها مبنية من رمال.

راح التنين يتقدم مدمرًا أحياء المدينة، محولًا ما يخلفه وراءه إلى برك ماء أسود ونتن. وعلى ضفاف تلك البرك خبيثة الرائحة، تنبت فجأة أعشاب غريبة، ملتوية وسقيمة. وكان يسحب أجساد المورو الميتين أبالسة ذوو وجوه مرعبة وأجساد حمراء، ولهم بدل الأيدي مخالب كبيرة، وأظلاف من فحم، وذيول تنتهي بحربة رمح.

كانت «لوكريثيا» إلى جوار دير «سيدة الرحمة» عندما رأت تمثال

عذراء «لوس ريميديوس» يخرج من كنيسة الدير محمولًا على أيد غير مرئية، قبل أن يغور البناء كله في الأرض مخلفًا حفرة عميقة ومظلمة. لكن «لوكريثيا» لم تعد، فجأة، في شوارع مدينتها المألوفة، وإنما إلى جوار بحر إنجلترا، وتنهدت حين أحست أن طمأنينتها ليست إلا نوعًا من الكآبة وفقدان الهمة.

ومع الرجل الذي يزورها عادة كان الرجلان الآخران، من يقتاد أسدًا مربوطًا إلى خصره، وأكبر الثلاثة سنًّا الذي أخذها من يدها وكلمها بغموض شديد:

ـ قولي لـ«دون ألونسو» أن يجمع أقصى ما يستطيع، وأن يكون شديد التكتم لأن أصدقاءه لا يفهمونه. وليعلم أنه بعد ثلاثة ملوك في إسبانيا يصل المسيح الدجال، لأن رزايا كثيرة ستنتهي في زمن «فيليبه»، وسيأتي الجيل الأخير. فالرب لن يجدد العالم أكثر من ثلاث مرات، وهذه هي المرة الأخيرة منها.

استيقظت «لوكريثيا» في غم شديد. وقد استمر ضيقها طوال اليوم، ولم تتخلص منه كذلك في الليلة التالية، إذ حلمت أنه في اليوم الذي اتفق فيه «دريك» مع التركي الأعظم، كان الموريسكيون الذين امتشقوا السلاح يتقدمون باتجاه طليطلة والعاصمة ويضرمون النار في الحقول والقرى ويذبحون كل من يعترض طريقهم.

وتكلم الرجل العجوز مرة أخرى:

ـ قولي لـ«دون ألونسو» إن الأمل الوحيد المتبقي هو في مدينة طليطلة تلك، وفي حفنة من المقاتلين المسيحيين الشجعان الذين يلتجئون

إلى مغارة «كوفادونجا»[1] الجديدة، سيقوُّون قلوبهم بالصلوات والتضحيات، كي يعدُّوا العدة للاسترداد الإسباني الذي سيتحقق من جديد.

كرر الراهب «لوقا» عندما روت له «لوكريثيا» حلمها:

ـ مغارة «كوفادونجا» جديدة؟

ردت «لوكريثيا»:

ـ هذا بالضبط ما قاله. وبينما هو يتكلم بدا لي أنني أرى مغارة عظيمة، لا بد أنها ستكون مخبأ أولئك المحاربين وملاذهم.

في يوم الجمعة، الثاني عشر من شهر فبراير، عندما خرجت «لوكريثيا» وأمها من كنيسة المجدلية، ولدى رؤية إغلاق المقام المقدس، تقدم أحد محضري محكمة معاون المطران «نيروني» وأوقفهما في وسط الشارع:

ـ ألستما «آنا أوردونيث» و«لوكريثيا دي ليون»؟

ظلت المرأتان جامدتين، وقبل أن تردا، واصل الرجل الكلام بنبرة آمرة:

ـ نيافة معاون المطران، المجاز «دون خوان بابتيستا نيروني» يأمركما بالمثول أمامه فورًا ومن دون تأخير.

ومن دون أن تمرا ببيتهما، توجهت «لوكريثيا» وأمها إلى مقر معاون المطران بخوف شديد، وقدمتا نفسيهما لحارس البوابة، فأدخلهما إلى

---

(١) تسميها المصادر العربية «مغارة الصخرة»، وهي في قرية «كوفادونجا» بالقرب من مدينة أبييدو. وفيها اعتصم «بيلايو» بعد تمرده على السلطة الإسلامية في الأندلس إلى أن قُتل عام ٧٣٧م. (المترجم).

قاعة شبه مظلمة ليس فيها سوى بضعة مقاعد من الجلد، ومنضدة مغطاة بغطاء كبير من القطيفة السوداء، ينتصب فوقها تمثال من العاج للمصلوب.

انتظرت «آنا أوردونيث» و«لوكريثيا» هناك خائفتين وقتًا طويلًا. وأخيرًا دخل معاون المطران نفسه إلى القاعة ومعه كاتب. جلس المعاون وراء المنضدة، وبعد أن تعرف على الفتاة، راح يتأملها بنظرة بالغة القسوة:

ـ أتعرفين من «خوانا كورِّيا»، الراهبة البرتغالية؟

ـ أعرفها.

ـ هل تبادلت الحديث معها؟

ـ أجل يا صاحب النيافة. لقد تحدثت معها أحيانًا.

ـ وأنت تعرفين من الأختان «ماريا» و«فرانثيسكا دياث»؟

ـ منذ زمن أعرفهما أيضًا.

تدخلت «آنا أوردونيث» لتقول إنهن جميعهن كن صديقاتها، لكن كاتب الكاهن المعاون قاطع كلماتها وأمرها بالبقاء صامتة، وعدم التكلم ما لم تُسأل:

ـ تقول «خوانا كورِّيا» إن فتاة تدعى «لوكريثيا دي ليون»، أخبرتها قبل خمسة عشر يومًا أنها حلمت بأن حربًا كبيرة ستقع، وسيأتي المسلمون إلى مدريد. وتروي الأختان المذكورتان أن «لوكريثيا دي ليون» نفسها قد قالت لهما إن حروبًا كبيرة أيضًا ستقع في طليطلة، وإن الأمير سيموت بعد ذلك. وقد حدثتهما كذلك عن أن المملكة

ستضيع، وعن كهوف يختبئ فيها بعض المختارين. هل صحيح أنكِ قلت هذا كله؟

ـ إنه صحيح يا صاحب النيافة.

ـ ولماذا تقولين هذه الأشياء؟

ـ إنني أحلم بها يا صاحب النيافة. أراها وأنا نائمة.

كانت عاجزة عن إخفاء أي شيء أمام نظرة ذلك الرجل الصارم المتوعدة التي تبدو أشبه بمهماز يستحثها على إفراغ أحلامها بروايتها له.

أجابت «لوكريثيا» عن كل أسئلة الكاهن المعاون، وواصلت التأكيد بأن الملك يظهر في أحلامها كمذنب في قتل ابنه «دون كارلوس» والملكة «دونيا إيزابيل»، والاستيلاء على أراضي الفلاحين، وعدم إشفاقه على الفقراء. وقالت كذلك إن طليطلة وحدها ستبقى حرة عند غزو إسبانيا، وهناك سيلتجئ الملك، وإن موته سيسبق تنصيب ملك آخر للإسبان يؤسس لسلالة جديدة.

ـ وهل تعتقدين أن هذه الأحلام كلها تأتي من وحي إلهي؟

ـ أنا مجرد فتاة بائسة بلا تعليم. فإذا كانت هذه الأحلام من الرب، فإنني لا أستحقها، وأطلب من الله أن يخلصني منها، لأنها تعذبني كثيرًا.

ـ سنرى في الأيام القادمة إذا ما كانت أحلامك من الرب أم لا أيتها الفتاة. وعليكِ أن تقولي الحقيقة في كل ما تُسألين عنه إذا كنتِ لا تريدين التعرض لعقوبة تكون مثلًا. لكنني لا أريد لسُمعتك كعذراء أن تتأثر، ولهذا ستبقين منذ هذه الليلة في بيتٍ يحمونك فيه جيدًا.

أما أنت يا أمها، فانصرفي الآن وانتظري ما ستُسفر عنه القضية.

رجعت «آنا أوردونيث» إلى بيتها، واقتاد بعض أعوان معاون المطران «لوكريثيا» إلى بيت الكاتب بالعدل «خوان جارثيا»، حيث جرى إيواؤها في حجرة مزودة بمجمر وسرير نظيف. لكن اعتقال الفتاة أصابها باضطراب لم تكد تستطيع النوم معه. وفي اليوم التالي حملت إليها أمها قميصًا داخليًّا، وبعد قليل من ذلك ذهب لزيارتها «دون ألونسو دي ميندوثا»، الذي استطاعت التكلم إليه تحت سر الاعتراف. أحست «لوكريثيا» بسعادة كبيرة لرؤيته، على الرغم من أنها فوجئت بالسماح له بالوصول إليها بهذه السرعة.

ردَّ اللاهوتي بكبرياء:

ـ عليك أن تعرفي بصورة أفضل مَن هو «دون ألونسو دي ميندوثا». الجميع في إسبانيا يحترمون سلالتي وشخصي.

لكنه ما لبث أن تخلى عن غروره، وأبدى اهتمامًا أكبر بالفتاة. وسألها، حتى وهي في تلك الظروف، عن أحلامها. أخرج ورقة ومحبرة وريشة من حقيبة يحملها معه، وراح يدون بصعوبة، ذلك أنه كان يستند إلى حافة كرسي الاعتراف وهو يسجل ما ترويه، ولم يكن ما روته كثيرًا ولا واضحًا.

وعند الوداع، أوصى «دون ألونسو» «لوكريثيا» بأن تصلي وتحافظ على هدوئها، لأنه لا يمكن لأحد أن يطبق فمها المتنبئ أو يخفي تلك الأحلام المدهشة:

ـ يبدو لي أن معاون الكردينال مطران طليطلة، يريد عرضكِ على بعض رجال الدين كي يستمعوا إليكِ، ويحكموا على أحلامك. لقد

تحدثتُ إلى الكردينال المطران نفسه وأنا واثق من أنه سيهتم بآرائي وسيمنحني الإذن بأن أظل أنا وحدي من يتولى دراسة أحلامك، لأني لم أدرس قطُّ من أجل رفع مكانتي أو زيادة شرفي، مثل الآخرين، وإنما من أجل مجد الرب. ولكن، حين يوجه إليك أي واحد من اللاهوتيين أسئلة، أجيبي بقول الحقيقة ومن دون خوف، لأن روح أحلامك خيرة من دون أي شك، وليس هناك من يمكنه استنتاج شيء آخر منها.

مضى يومان من دون أن يأتي أحد من طرف معاون المطران للتكلم مع «لوكريثيا». وكانت الفتاة لا تزال خائفة من حبسها، لكن نساء بيت الكاتب بالعدل لم يظهرن لها النفور. وكنَّ في أحيان كثيرة يأتين إلى حجرتها، للتطريز وتبادل الحديث. وكانت امرأة السجان نفسها، بعد أن تطري على جمال شعرها ولون بشرتها، تسألها بفضول خالص عن أحلامها المشهورة، فكانت «لوكريثيا» تحدثها عنها. ولكنها عندما تظل وحيدة، تعاودها المخاوف والهواجس من أن تؤدي تلك الأحاديث إلى إلحاق الضرر بها. وأخيرًا، جاءت في طلبها ذات صباح الخادمة العجوز التي تقوم على رعايتها.

قالت بصوت حذر، يمتزج فيه الخوف والتوقير:

- متلقي اعترافات الملك ينتظرك يا صغيرتي. كوني حذرة، يقال إن نابه شديد الاعوجاج.

اقتادت العجوزُ «لوكريثيا» إلى قاعة يجلس فيها راهبان من طائفة الدومينيكانيين، أحدهما متقدم في السن، شاحب ونحيل، والآخر أكثر شبابًا ومتانة. وكانت نظرات الاثنين تلمع في عتمة القاعة بحدة عيون

الصقور عندما ينزعون الغطاء عن رؤوسها. أومأ الكاهن المسن بيده، وأمر الآخر «لوكريثيا» أن تقترب:

ـ أنتِ العرافة التي يتكلمون عن أنها تنبأت بموت مركيز «سانتا كروث»؟

أجابت «لوكريثيا» بتواضع شديد ومن دون أن ترفع بصرها:

ـ أنا حلمت بأن المركيز سيموت يا أبتاه.

ـ وأنت أيضًا من تقول إن الحملة المقدسة على إنجلترا ستنتهي نهاية كارثية، بموت جنود وبحارة كاثوليك، وضياع أسطولنا «الأرمادا»؟

كانت «لوكريثيا» تشعر بأن نظرات الكاهنين تنبشان جسدها ووجهها بضراوة من يرمي إلى الكشف عن سر دفين.

ـ لقد حلمت في بعض الأحيان بأنهم يهيئون في مدن إنجلترا كلها أسلحة وفؤوسًا وكثيرًا من البارود، وأنهم يقومون بجمع عظيم للحديد والبارود، ورأيت «دريك» يخرج لزيارة رجاله مرتديًا ملابس داكنة ومبطنة بفراء السمور. وفي مرات أخرى رأيت سفنًا تحمل راياتنا يحاصرها العدو وتعصف بها الأمواج.

ـ يقال أيضًا إنكِ رأيتِ هراطقة ومسلمين يدخلون من كل الجهات.

ـ لقد رأيتُ جنودًا مسلحين يحرقون الحقول والبيوت والمواشي، ويقتلون الإسبان. وقال لي رجال أحلامي إنهم هراطقة ومُحمديون يهاجمون المملكة.

قال الكاهن العجوز عندئذ، وكان في صوته قدر كبير من الازدراء:

ـ حدثينا عن رجال أحلامك هؤلاء.

شرحت له «لوكريثيا» كيف يظهرون، وما هيئتهم، وما الموقف الذي اعتادوا اتخاذه أمامها.

سألها الكاهن العجوز بجفاء:

ـ وهل تعتقدين أن أحلامك ستتحقق؟

أحست «لوكريثيا» باضطراب كبير. فعندما كانت تلمح الثقة التي يرى بها «دون ألونسو» والراهب «لوقا» إشارات واضحة ومفهومة في أشد أحلامها غموضًا، كانت مشاعر تقدير نظرة هذين اللاهوتيين الثاقبة وحكمتهم تغلب دائمًا على أي شعور آخر، بحيث إنها لم تتساءل قطُّ، حتى عندما تحققت نبوءتها بموت مركيز «سانتا كروث»، عما إذا كان لا بد من تقبل أحلامها ورؤاها على أنها نبوءات صائبة حقًّا.

سأل الكاهن مجددًا، رافعًا صوته:

ـ ألا تجيبين؟

أجابت «لوكريثيا» من دون أن تتخلى عن إظهار كثير من المذلة في حركاتها وصوتها:

ـ لا أعرف يا أبتاه. أنا أروي أحلامي وهم يدونونها، لكنني لستُ واثقة من أن رؤاي ستتحقق. أنا لا أعرف إذا ما كانت أحلامي هذه حقيقية أم لا، فقول هذا يعتمد على رجال الدين الحكماء الذين يتلقون اعترافاتي. لقد صليت كثيرًا كي لا أرى هذه الأحلام، لكنها تأتي إليَّ على الرغم من مشيئتي.

ـ أتعرفين أن هذه الرؤى التي تروينها تسبب هياج بعض الناس الجهلة،

وعدم الثقة بالملك ووزرائه؟

لم تدرِ «لوكريثيا» أيضًا بمَ تجيب. الضوء الذي يدخل من خلال زجاج النافذة كان يصير أكثر بياضًا، وعندما بلغ ذلك البياض أوجه وبدأ يصطبغ ببريق أصفر، أنهى الكاهنان أسئلتهما.

كانت «لوكريثيا» تشعر بالإرهاق والدوار، حتى إنها لم تكن قادرة على تذكر ما أجابت به، لأن إيماءات الكاهنين المكدرة ومطالبهما الحاسمة في التوضيح جعلتها تتردد في أحيان كثيرة.

استجواب الراهبين وعدائية متلقي اعتراف الملك الواضحة أقلقت «لوكريثيا» كثيرًا. ومنذ ذلك الحين، وطوال الليالي التي أمضتها في بيت الكاتب بالعدل «خوان جارثيا»، كانت تظل مؤرقة وقتًا طويلًا. وعندما يغلبها النعاس في النهاية، يظهر لها شيطان أحمر بمخالب وأظلاف، وبذيل ينتهي بحربة، يشبه شياطين آخرين رأتهم في الأحلام، لهم الأشكال المتحركة نفسها، ولهذا هم مرعبون أكثر من الشياطين الذين في لوحة رسم في دير القديسة «آنا»، كانت ترتعب في طفولتها كلما نظرت إليهم.

كانت هيئة الشيطان تبرز شيئًا فشيئًا، وهو جالس فوق المجمر في حجرتها:

ـ «لوكريثيا»، أنتِ في خطر كبير. «دون ألونسو» والراهب «لوقا» يخدعانك كي تروي ما تروينه، ولكنك إذا اتبعتِ نصائحهما فسوف تنتهين شر نهاية. انظري، حتى الملك نفسه يرسل إليك متلقي اعترافاته ليعاقبك.

أرادت «لوكريثيا» صدَّ الشيطان، الرد عليه بأن ما يقوله عن «دون ألونسو» والراهب «لوقا» كذب، وأنه هو نفسه من جاء لخداعها. لكنها

كانت مشلولة، لا تستطيع الحركة، ولا حتى فتح فمها. وظهر الشيطان في اليوم التالي، وهو يضبع مؤخرته على الجمر كما لو أنه يجلس على أشد الوسائد راحة، وقال لها إنها إذا لم تبتعد عن «دون ألونسو» والراهب «لوقا» فسوف يوديان بها إلى المحرقة.

تلعثمت «لوكريثيا»، بعد جهد هائل:

- لن يحرقوني لن يحرقوني أيها الملعون من الرب.

- سيحرقونك وأنت ترتدين زي المحكوم عليهم بالموت حرقًا. من الخير لك أن تنتحري كي تتجنبي ذلك العار.

فكرت «لوكريثيا» في أن سبب تلك الأحلام هو خوفها الشديد من أنها ستنتقل من ذلك البيت إلى قبضة ديوان محاكم التفتيش. ولكن إلى جانب الخوف برز أيضًا الإحساس المذهل الذي لم يكن يضايقها، بأنها تحمي ثروة استثنائية. فاهتمام معاون المطران «نيروني» ومتلقي اعترافات الملك نفسه، الراهب «دييجو دي تشافيس»، بأحلامها وإظهارهما ذلك القلق الملح وكل تلك العدائية، ما هو إلا دليل على أن لأحلامها القيمة التي ينسبها إليها «دون ألونسو» والراهب «لوقا». فمن الواضح أنها، هي الفتاة الفقيرة، التافهة وغير المتعلمة، والعذراء التي بلا دوطة، تملك على الرغم من ذلك كله شيئًا له القدرة على اجتذاب فضول الحكماء والتسبب بالنزاع بينهم، وهو شيء لا بد أن هناك أخبارًا كاملة عنه لدى ذلك الملك النائي والمستغرق في تأملاته.

وأخيرًا، جاء في طلبها الأعوان أنفسهم الذين اقتادوها إلى بيت «خوان جارثيا»، ليأخذوها مجددًا إلى بيت معاون المطران «نيروني»

الذي استقبلها فورًا. وكان هناك راهب آخر بصحبته.

بعد إدخالها إلى القاعة، تقدمت «لوكريثيا» خطوتين، وتوقفت في انتظار استجواب رجلي الدين اللذين كانا يتكلمان بصوت خافت، ورأساهما متقاربان أكثر من جسديهما، مقدمين صورة بوح سري.

انسحب الأسقف الذي رافق «لوكريثيا»، ومع صرير إغلاق الباب، قطع رجلا الدين حديثهما والتفتا إليها.

قال معاون المطران بنبرة بدت نية السخرية واضحة فيها:

ـ ها هي ذي «نبيتنا»!

اقترب الكاهن الآخر من الآنسة وتأملها بتمعن. كان أطول قامة منها بكثير، ورأسه أصلع بالكامل. بذلت «لوكريثيا» جهدها لتبدو هادئة، وأكدت أنها لم تقل قطُّ إنها نبية، بينما هي تحاول ألا تسبب لها عيون الرجلين المترصدة الارتباك. وأضافت:

ـ أرجوكما ألا تسخرا من هذه الفتاة البائسة، فأنا لست خيِّرة إلى حدٍّ أستحق معه هذه التسمية العظيمة.

سأل الكاهن الأصلع، وكانت في صوته بحة خفيفة:

ـ أليس صحيحًا أنك تتكلمين مع النبيين إيليا وموسى بالطريقة نفسها التي تتكلمين بها إلى جاراتك، وأنك رأيت مليكنا ميتًا بين قش، مثل خنزير في يوم ذبح؟

ـ أنا لا أعرف شيئًا، وهذا كله يفقدني الصواب.

ـ أحلامك يجري تداولها مكتوبة في العاصمة، من يد إلى يد.

- أنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة يا أبتاه. إنني أرفع عن كاهلي وطأة أحلامي مع متلقي اعترافاتي، كما لو أنها خطايا. لا أريد مزيدًا من الأحلام. لكنني أحلم وأحلم.

أمسك الكاهن رأس «لوكريثيا» بين يديه، لكن حركته لم توحِ بأي نية في الملاطفة، وأحست الفتاة بملمس راحتي اليدين الكبيرتين اللّتين مثل لوحي خشب متوعدين، قادرين على سحق رأسها بينهما.

هتف الكاهن، وبدت في بحة صوته رعشة غضب:

- أنبياء كثيرون مثلك سحقتهم بيديَّ هاتين.

«لوكريثيا» المهددة باليدين اللتين تضغطان على صدغيها، طلبت من الرب نعمة نسيان مفاجئ يُبعد عن أحلامها ذلك الزائر الليلي غير المادي، الرجل ذا الأسمال والفراء الذي صار بالنسبة إليها أشد واقعية وقربًا من أسرتها نفسها، لكن الكاهن أبعد يديه وابتعد عنها بخطوات واسعة ونشطة، وظلت صورة رجل أحلامها في ذاكرتها، مبتسمًا بالملامح الحزينة لـ«ميجيل دي بيدرولا».

قال عندئذ معاون المطران:

- أيتها الفتاة، لا شك أن لك أصدقاء يحبونك كثيرًا، وسيخلصك دعمهم هذه المرة من مشقات عظيمة. ستعودين اليوم إلى بيتك. لا أستطيع منعك من الحلم، لكنني لا أريد أن أسمع بعد اليوم شيئًا عن أحلامك أو عن رؤاك.

في عصر ذلك اليوم بالذات، جاءت «آنا أوردونيث» إلى بيت معاون المطران «نيروني»، وعندما صارت الأم وابنتها معًا، تحدث الكاتب بالعدل

«خوان جارثيا» بوقار شديد:

ـ أصادق على تسليم «لوكريثيا دي ليون» لأمها، حرة من دون مزيد من التعليقات.

ثم نظر إلى المرأتين:

ـ أكلفكِ أنت يا «آنا أوردونيث»، أمها، بعدم السماح لابنتك بالخروج من البيت من دون مرافقتك لها، وألا تروي علنًا هذه الأحلام التي تقول إنها تراها. وأنت أيتها الصبية، احتفظي بالصمت وتقبلي وضعك كآنسة جاهلة. ابحثي عن عريس لك، وتزوجي، وأحضري إلى الدنيا أبناء يكونون مسيحيين كاثوليكيين طيبين. وليساعدك الرب.

# ٨

وجد «دون ألونسو دي ميندوثا» في إطلاق سراح «لوكريثيا» الذي أمر به معاون المطران أخيرًا، دليلًا على الإقرار بالطبيعة الإلهية لأحلام الفتاة، وبرهانًا حاسمًا على نفوذه الشخصي لدى الكردينال العجوز ومطران طليطلة والمفتش العام «دون جاسبار دي كيروجا» الذي كان الصانع الحقيقي للإفراج عنها.

وفي الليلة نفسها التي رجعت فيها «لوكريثيا» إلى بيتها، أقام «دون ألونسو» هناك وليمة عشاء حضرها الراهب «لوقا دي أيينديي»، و«مارتين دي نوسترا سنيورا»، و«دون جيِّن دي كاساوس»، و«خوان لوبيث دي ثاراتي»، وهو أيضًا ربيب روحي للراهب «لوقا»، وكان سكرتيرًا للملك في مجلس بلاد الهند. وجيء بالعشاء من مطعم قريب، يحمله عبد أسود وخادم، وكان يتضمن محارًا بحريًّا، وديوكًا مشوية، وحلوى حليب، ومشروبات مختلفة الطعوم.

«دون ألونسو»، بوجنتيه وأنفه المحمر من انهماكه في الأكل والشرب، لم يكن يتوقف مع ذلك عن الكلام. يشيد بالقيمة التنبئية الحقيقية لأحلام

الفتاة وطيب روحها المؤكدة التي تمكنت من دحض كل شكوك خصومها، وأعيدت إلى بيتها بتعويض هذا المجد الذي يُنسب عادة لمن عانى أحابيل سوء نية محبطة.

من خلال خطاب «دون ألونسو»، استطاعت «لوكريثيا» أن تعرف شيئًا أكثر مما كانت تعرفه عن الاستجوابات التي أُخضعت لها، وطلب الفتوى الذي تقدم به معاون المطران، حول قضية أحلامها، إلى اللاهوتيين الذين وجهوا إليها أسئلة كثيرة.

وكان «دون ألونسو» من جانبه، فضلًا عن تحدثه مع المفتش العام لطلب الحماية، قد توجه إلى اللاهوتي المشهور «فراي لويس دي ليون» طالبًا دعمه، لكن ردَّ اللاهوتي الحكيم لم يرضه، فقد وصف رؤى الفتاة بالصبيانية، مقدرًا أنها ثمرة أوهام أو كآبة، وأوصى «دون ألونسو» بأن يقوم بطرد الشياطين منها، حتى لو كانت بريئة تمامًا.

كان «دون ألونسو» يردد وهو يهز يديه بإيماءة احترام ساخرة:

ـ هذا اللاهوتي الحكيم يريدنا أن نُعزِّم عليك كمن بها مس من الشيطان!

جميعهم كانوا يضحكون، لكن طريقة «دون ألونسو» في رواية الحدث تشير إلى انتشائه بما يعتبره انتصارًا يسمح له بالتمادي في السخرية من مسألة لا شك في أنها جرحت كبرياءه.

كان الفجر قد أوشك على البزوغ عندما نهض المدعوون عن المائدة. ودعتهم «لوكريثيا» عند باب بيتها، ورأتهم يبتعدون وسط ظلال الشارع. كان الصقيع يسقط على المدينة بالقسوة المكشوفة لإحدى عقوبات أحلامها. وعندما أرادت إغلاق الباب، خرج من الظلام «دومينجو نافارو»

قافزًا. فالمُصلِّب الذي لم يغادر المكان مع الآخرين، راح يتكلم عندئذ بصوت خافت ومندفع، بينما هو يثبت بيديه ذراعي الآنسة:

ـ «لوكريثيا»، أيتها الفتاة، أحلامك تقود إلى أمور بالغة الخطورة على الجميع. لا بد لك أن تنسيها.

كانت «لوكريثيا» تشعر في قلبها أيضًا بالقلق، فالكلمات التي قالها «فراي لويس دي ليون» حول رؤاها ـ كما ذكر «دون ألونسو» ـ ظلت ماثلة في ذهنها طيلة العشاء كله، لكنها لم تشأ إظهار ذلك كي لا تكدر مجد تلك الليلة التي أشاد فيها الأصدقاء كثيرًا بموهبتها. قرَّبت القنديل أكثر من وجه «دومينجو نافارو»، كي تتأكد من أن ما تراه ليس واحدة من رؤاها الليلة:

ـ أحلامي هذه ليست استجابة لإرادتي، ولا أستطيع نسيانها بمجرد رغبتي في ذلك.

هتف «دومينجو نافارو» باندفاع وحماسة فيهما من دون ريب كثير من الإحساس بالواجب:

ـ عليكِ أن تنسيها حتى ينساها «دون ألونسو» والراهب «لوقا» أيضًا!

ـ لكن «دون ألونسو» والراهب «لوقا» متعلمان، ومن رجال اللاهوت الطيبين، وهما يعرفان أبعاد أحلامي خيرًا مني ومنك.

ـ فكري فيما جرى للجندي النبي!

ـ إذا ما أخذوني للمثول أمام محكمة التفتيش، فسوف أطلب منهم أن يعملوا هم على ألا أرى الأحلام، وسأكون سعيدة بذلك، فأنا لا أسعى لأن أحلم.

أفلت «دومينجو نافارو» «لوكريثيا»، وتراجعت الفتاة خطوات. أبقى ذراعيه بعيدتين عن جسده ويديه مفتوحتين، وحركهما عدة مرات قبل أن يتكلم.

قال أخيرًا:

ـ «لوكريثيا»، أنا حلمت بأنك تقذفين من فمك ثلاثة شياطين: أحدهما قاتم ولزج مثل سمكة «حنكليس» والآخران يبدوان كما لو أنهما من ضباب أو من دخان كثيف جدًّا. أنا أرى أن من يتحدثون إليكِ في أحلامك لا يتصرفون بروح طيبة.

وقبل أن ينصرف المُصلِّب بخطوات مستعجلة، هتف قائلًا:

ـ فليحفظكِ الرب وليحفظنا جميعًا.

منذ اعتقال «لوكريثيا» صارت شكوكها حول أحلامها تعطي نتيجة متناقضة. فمن جهة، بدأت تشعر بحزن متعاظم مبعثه حدس مشؤوم، لكنها من جهة أخرى صارت تحلم أكثر بكثير من السابق، كما لو أن عزلة أيام الاحتجاز ومحاصرة مستجوبيها لها قد أيقظت فيها قدرات جديدة على التنبؤ.

في إحدى المرات، تبدت لها كتلة بشرية كأنها ظل خفيف في مكان يتطابق بدقة مع حجرة أحلامها. وكان الرجل شبه مستتر بالستارة التي تفصل بين الصالة وباب الحجرة، حيث لا ضوء إلا وميض خافت.

تلفظ الشبح باسمها ثلاث مرات، وبدا لـ«لوكريثيا» أنها ليست نائمة، وأن تلك الحجرة ليست حجرتها المتخيلة في الأحلام، وإنما هي حجرتها الواقعية مُدركة في اليقظة. ولكنها في الوقت الذي اعتقدت

في وعيها أن تلك الرؤيا تحدث في الواقع وليس في الحلم، وجدت نفسها تحلم بأنها ترى «خوان لوبيث دي ثاراتي» وهو يحمل في يده عصا مأمور قضائي.

كان «خوان لوبيث» قد دعا الآنسة لحضور حفلة سيدتنا عذراء السلام، وحاول اقتيادها عبر درب موحل.

سألت «لوكريثيا» مستاءة:

ـ ألا توجد في مدريد شوارع جافة؟

فكان «خوان لوبيث» يبدل وجهة خطواته ويقتاد الآنسة أخيرًا إلى دار ديوان التفتيش. ووجدت «لوكريثيا» هناك كنيسة فيها ثلاثة تماثيل للسيدة العذراء. وكانت العذراء في أحد التماثيل الثلاثة تلقي بإحدى ذراعيها على كتفي تمثال للقديس «إلديفونسو» إلى يمينها، وذراعها الأخرى على امرأة «نبية» إلى يسارها. جثت «لوكريثيا» أمام تمثال العذراء وظلت تصلي بعض الوقت.

هتف «خوان لوبيث دي ثاراتي» فجأة، بنبرة متعجلة:

ـ أنهي صلواتك دفعة واحدة!

عندئذ انتبهت «لوكريثيا» إلى أن هناك في عمق الكنيسة امرأة شابة وأخريين مسنتين، وأن شابًا يدخل ويلقي إلى المرأة الأولى قبعة مملوءة بعناقيد عنب. فتبدأ المرأة الشابة بتقاسم العنب مع العجوزين، وعلى الفور تقترب العجوزان من «لوكريثيا» وتقدمان لها كسرتي خبز مع حبتين أو ثلاث حبات عنب ناضجة جدًّا موضوعة فوق الخبز.

خرجت «لوكريثيا» من الكنيسة من دون أن تأكل سوى الخبز، ووجدت الشوارع مزدانة، تتدلى على جوانبها الأقمشة الملونة والدمقس. لكنها ظنت عندئذ أن هناك من يناديها، استيقظت وفتحت عينيها كي تعود إلى اللحظة السابقة لذلك الحلم، فوجدت نفسها في فراشها، في حجرتها، وقبالة تلك الكتلة ذات المظهر الآدمي التي تلفظت باسمها ثلاث مرات.

هتفت «لوكريثيا»:

ـ فليحمني الرب! مَن يناديني؟

همس الشبح:

ـ إنني أنا، الرجل المعهود الذي يظهر في أحلامك.

أغمضت «لوكريثيا» عينيها وعادت للدخول في حلم هادئ. وفي الحلم، رأت نفسها في حجرتها، نائمة في فراشها، تحلم بذلك الشبح الذي يتكلم بصوت خافت جدًّا ونحيل.

سأل الرجل:

ـ لماذا تصرين على نشر أحلامك بين الناس؟ انسي أمرها وفكري في أنها مجرد أفكار غير مجدية، مجرد ظلال لا تعني شيئًا، ثمرات فارغة لأمور وهمية.

كان الشبح يتكلم بصوت هامس يُسمع بوضوح، إنما كانت تصل إلى «لوكريثيا» كذلك أنفاس إخوتها النائمين في الحجرة القائمة في الجانب الآخر من الصالة، ومواء بعض القطط في أفنية البيوت المجاورة. ومن

خلال الجلد الرقيق الذي يغطي النافذة، ينفذ بريق ضوء القمر، وليل المدينة يحيطها ببرودته الواقعية.

ردت:

ـ لا أراكِ جيدًا. اقترب مني أكثر، كي أتمكن من رؤيتك.

لكن الشبح المختبئ وراء الستارة ظل هناك، وواصل الحديث هامسًا. وتمكنت «لوكريثيا» من تقدير أنه يخفي وجهه.

هتف الشبح:

ـ توقفي عن إخبار الآخرين بهذه الأحلام يا فتاة، فهي لن تقودك إلى طريق طيب.

سألته «لوكريثيا» وهي ترسم إشارة الصليب:

ـ لماذا تضع على وجهك هذا الحجاب الذي يخيفني؟

وأضافت:

ـ أصحيح أنك مَن تدعيه وتأتي الآن بهذه المطالب الجديدة؟

ـ لقد خدعتُكِ على الدوام، وأريد الآن أن أُخرجكِ من الخداع، إشفاقًا على طفولتك وقلة فهمك.

عندئذ تذكرت «لوكريثيا» ترتيلة تعظيم قديمة باللاتينية وبدأت بتلاوتها، ولكنها ما إن بدأت بقول: «كلمة الرب هي الأسمى، فابتعد أيها العدو»، حتى أدركت أنها ليست في حلم، وأن تلك الرؤيا المريبة جدًّا ليست رجل الجلود الحقيقي وإنما هي روح خبيثة تحاول الحلول

محل ناصحها المعهود لزيادة بلبلتها. واصلت «لوكريثيا» الصلاة بخشوع شديد، وتمكنت بتصرفها ذاك من إفزاع الزائر الخبيث الذي انتهى إلى التلاشي بين طيات الستارة.

بعد ما حدث، فكرت «لوكريثيا» في أن نصيحة الشيطان الذي وصل إليها للمرة الثانية، مع أنه حاول الظهور في هذه المرة كما لو أنه الرجل الذي اعتاد أن يحدثها في أحلامها، إنما تؤكد حقيقة أن رؤاها ثمينة وأن عليها عدم إخفائها أو الصمت عليها.

أضف إلى ذلك أن اعتقالها بدا كما لو أنه قد وضع حدًّا سريًّا لأحداث هي خارج المألوف، ففي تلك الأيام وصل الخبر عن أنه عُثر في أبراج عربية قديمة في غرناطة على صناديق من الرصاص فيها رقاق مكتوبة بلغات قديمة تشير إلى نهاية العالم، وتتنبأ بأن ذلك سيحدث في تلك الأزمنة الجارية نفسها.

وأعلن «دون جييَّن» عن حدوث خسوف قمري، وأكد أن فلكيين مشهورين آخرين تنبؤوا أيضًا بأن هذا الخسوف هو إشارة أخرى من إشارات مشؤومة كثيرة في العام ثمانية وثمانين ذاك، وأن التقاء الكواكب وتوجهات النجوم قد قُدرت لجعل هذه السنة مترعة بالكوارث والانكسارات.

حيال الدهشة التي أيقظها في «لوكريثيا» وأمها الإعلان عن الخسوف الوشيك، وعدهما «دون جييَّن دي كاساوس» بأن يأتي في تلك الليلة لمرافقتهما في بيتهما، كي يروا الخسوف معًا.

عندما التقى «دون ألونسو» أول مرة بـ«لوكريثيا» بعد إطلاق سراحها من قبضة معاون المطران، وفي احتدام سعادته، وجه إليها نصائح كثيرة،

ومنها نصيحته لها بأن تتزوج، كي توفر لنفسها مزيدًا من الحماية والرعاية، وأن أفضل زوج محتمل هو «دون جييَّن دي كاساوس».

لم تبدِ «لوكريثيا» المرتبكة عدم رضاها. لم تقل إنها تمقت ذلك الرجل ذا النظرة المزدرية والقاسية والفم النتن، بل قالت إن مسألة زواجها تخصها هي وحدها ولا علاقة لها بشؤون دمار إسبانيا. إلا أنه كان هناك حزم في كلماتها فوجئت هي نفسها به، إذ لم تكن تعلم أنها قادرة على إبداء مثل تلك الثقة بالنفس أمام «دون ألونسو» الذي تدين له بالكثير:

ـ ثم إن هذا الرجل ليس حرًّا للزواج، فقد ترك في «يوكاتان» زوجة وابنة مثلما هو معروف، على الرغم من أنه يحاول إخفاء ذلك.

لم يجب «دون ألونسو» بأي شيء، ومن ملامح وجهه، من عينيه الساهمتين في نقطة غير محددة، وفمه المفتوح في تكشيرة ذهول، وأصابع يديه المتشابكة بالحركة الخاصة بالصلاة، رأت «لوكريثيا» بخوف، لأول مرة، غيابًا يبدو أنه يتناسب أكثر مع ذهن هذياني، من تناسبه مع ما يجب أن ينطوي عليه ذلك الرأس النبيل وواسع الحكمة.

غير أن «دون ألونسو» استعاد حاله المعهودة على الفور، ومن دون مزيد من التلميح إلى إمكانية ذلك الزواج، وواصل المزج في احتضانه الحميم بين إمارات السعادة وكثير من النصائح ذات النفس الأبوي. وفي النهاية فقط أعرب عن أنه يكن احترامًا كبيرًا لـ«دون جييَّن دي كاساوس» ويعتبره مجادلًا جديرًا في الموضوعات المتعلقة بالعمليات الخيميائية وفي قراءة منازل النجوم.

قال لها واضعًا في كلماته تفخيمًا يبدو أنه يمحو اقتراح الزواج غير المرغوب فيه:

ـ لا يمكن لصداقته وحمايته إلا أن تكون لمنفعتك يا بنتي.

ردَّت «لوكريثيا» وهي تقبِّل يده:

ـ وأنا أحترمه لأنك تحترمه يا أبتاه.

تصورت «لوكريثيا» أن اقتراح الزواج ذاك إنما انبثق من «دون جييَّن» نفسه، غير أن المحبة الكبيرة التي يبديها نحوه «دون ألونسو» والراهب «لوقا» تضطرها إلى مواصلة تقبل رفقته من دون اعتراض أو تجهم، وإن كانت تعمد إلى أن تكون «آنا أوردونيث» حاضرة في كل لقاء معه.

# ٩

حدث الخسوف في ليلة الثالث من مارس، وكان هناك في الهواء، على الرغم من برودة الجو، عبق أزهار وتبرعم، إشارة إلى الربيع الذي يقترب. كان خبر الخسوف قد ملأ الناس بالقلق، وظل سكان الوادي كلهم تقريبًا حول بيوتهم في انتظار الحدث.

في تلك الليلة، بعد العشاء، انتقلت «لوكريثيا» و«آنا أوردونيث» و«دون جييِّن دي كاساوس» إلى الفناء الخلفي الصغير للبيت، وبينما هم يجلسون على مقعد المطبخ الطويل الذي أخرجوه إلى الفناء، راحوا ينتظرون حدوث تعتيم القمر المعلن عنه. كان الليل يتطاول وكان الثلاثة يرتدون عباءات للاحتماء من الندى.

تحولت عجرفة «دون جييِّن» المعهودة إلى عذوبة بفعل اهتمام المرأتين في الاستماع إلى كلماته، فراح يتكلم عن بعض أسرار النجوم والكواكب، عند تلاقيها، وكيف أن هذه وتلك تستقبل إحداهما الأخرى في منازلها:

ـ من زيارات الكواكب والنجوم تلك تحدث تأثيرات سرية تحدد، لحسن حظنا أو بؤسنا، مصيرنا نحن البشر، والمشاريع التي نبادر إليها.

في عتمة الفناء الصغير، كانت تلمع الأوراق التي يحملها الفارس بين يديه، وقد أشار فيها، بواسطة دائرة تخترقها خطوط متعددة وأُشِّر عليها بعدة دوائر صغيرة وصلبان وأسهم، ورسوم أخرى، إلى موضع الشمس والقمر بالنسبة إلى الكواكب المختلفة، كعناصر من الحدث الفلكي الذي سيحدث في تلك الليلة. لقد تكهن بالحدث كثير من العلماء، بينهم فرنسي مشهور تنبأ قبل عشرين سنة بالحقبة الغريبة التي يعيشونها. وقد تحدث «دون جييَّن» كذلك عن فلكي يهودي قديم ألَّف عدة كتب متميزة في زمن الخليفة المنصور، في مدينة بغداد البعيدة:

ـ يقول موسى حلال إنه لا بد في شأن خسوفات القمر من الأخذ في الاعتبار موضعه الوسطي مع الكوكب السائد وتوابعه. وجميع خسوفات هذه السنة تتأثر بكواكب سائدة مشؤومة. وهذه إشارة أخرى إلى شرط شؤم هذه الأزمنة التي نعيشها.

وأخيرًا، بدأ قوس منحن من الظلمة بحجب دائرة القمر الفضية اللامعة. وتعالت مفاجأة الناس في همهمات إثارةٍ وهياج تصل من الجانب الآخر لسور الفناء، وما لبث الصمت أن خيم بعد ذلك على المدينة، بينما كان الحجاب يطمس القمر ببطء، وبالدقة نفسها التي تلتهم بها سُرفةٌ ورقة خضراء.

كان «دون جييَّن» يجلس بين المرأتين، وقد تأخرت «لوكريثيا»، المستغرقة في تأمل الخسوف، بضع لحظات قبل أن تنتبه إلى أن البرودة التي أحست بها فجأة على ساقيها إنما سببها يد الفارس التي رفعت أذيال ثوبها بتكتم وراحت تتقدم من دون تردد، وإن يكن ببطء، إلى أن لمست ساقيها.

صورة الظلمة التي راحت تطغى بشحوبها على بياض القمر البرَّاق كانت تتوافق مع حركة اليد المتسللة بخفة على الركبتين، مما تطلب من «لوكريثيا» بضع لحظات كي تقدر بصورة صائبة ما تعنيه تلك اليد من غزو لجزء من جسدها تحافظ عليه بغيرة على الدوام.

كانت ملامسة اليد قد بلغت استدارة الركبتين، وتمكنت من الاندساس بينهما، وصارت تحاول التقدم باتجاه ملتقى الفخذين. ضغطت «لوكريثيا» إحدى ساقيها بقوة إلى الأخرى، مثبتة بين فخذيها اليد الباردة التي تريد مواصلة تقدمها متلمسة ومتململة مثل حيوان صغير.

ولأنها رصدت بطرف عينها هيئة السيد الثابتة، ورأسه المرفوع باتجاه ذلك القمر الآخذ بالاحتجاب، فكرت «لوكريثيا» في أن ما يتحرك بين ساقيها قد لا يكون يد «دون جييَّن»، وإنما أحد صغار الشياطين الذين يتوصلون في بعض الأحيان، كما يقال، إلى جِماع مع نساء ينقضون عليهن على حين غرة.

وعلى الرغم من جهود «لوكريثيا»، فقد وصلت اليد أخيرًا إلى مقربة من المكان الأكثر سرية في جسدها عندما لم يبقَ من القمر إلا خط رفيع من الضوء اللامع بينما اصطبغت بقية الكواكب بلون ضارب إلى الحمرة. كانت الآنسة مرتبكة إلى حدٍّ يمكن لها معه أن تسمح لليد بأن تصل أخيرًا إلى ما تبحث عنه. غير أن «دون جييَّن»، في تلويه الجسدي الذي يضطره إليه مسعاه، قرَّب وجهه كثيرًا من «لوكريثيا».

الإحساس باقتراب نتانة تلك الأنفاس جعل الفتاة تبتعد عنه فجأة، وتنهض بحركة كادت أن تُفقد «دون جييَّن» توازنه.

لم تكن «آنا أوردونيث» قد انتبهت إلى شيء مما يحدث، فسألت ابنتها إذا ما كان قد جرى لها شيء.

قالت «لوكريثيا»:

ـ أشعر ببرد شديد، سأذهب لجلب شيء أكثر دفئًا.

دخلت الآنسة إلى البيت، ورجعت على الفور حاملة بطانية، وأحضرت معها قنديلًا مشتعلًا علقته على سور الفناء، قبالة الثلاثة، أفاد في نشر بعض الضوء في الفناء الصغير عندما احتجب القمر تمامًا واصطبغ بلون يذكِّر بالدم المذاب الذي كثيرًا ما يغطي الأرض والأمكنة في أحلامها. وهو اللون نفسه الذي تخلِّفه على وحل الشوارع بعض المشاجرات الليلية التي يتصارع فيها أشخاص مجهولون ينقض أحدهم على آخر بالسيف أو الخنجر.

احتجاب بريق القمر ملأ السماء بنجوم، وغطى الأرض بظلمة دامسة. ثم شيئًا فشيئًا، بالتقتير نفسه الذي تقدم به، راح الحجاب الدامي ينسحب عن القمر، إلى أن صار القرص نظيفًا وعاد الضوء الفضي ليكشف للرؤية واجهة البيت الخلفية وأركان الفناء. ومن الأفنية المجاورة والشارع وصلت إليهم همهمات الراحة التي أطلقها المشاهدون الآخرون.

لم يحاول «دون جيين» العودة إلى لمسها، لكن «لوكريثيا» انسحبت مضطربة، فقد كانت تلك هي أول مرة تلمس فيها يد رجل جسدها، على مقربة من أشد مواضعه سرية. وعلى الرغم من عدم رضاها عن الفارس، إلا أنها لم تشعر نحو ملامسته بالاشمئزاز نفسه الذي تثيره فيها الأنفاس النتنة التي ينفثها ذلك الفم، أو مظهر الموت في هيئته الضامرة والمزعجة،

كما لو أن اليد التي حاولت التسلل بين ساقيها ليست أكثر خبثًا مما يمكن أن يكون عليه هرٌّ يوضع في الحضن، ويُنزل قائمتيه الأماميتين، مرة بعد أخرى، في أشد الأماكن طراوة.

بعد بضعة أيام من ذلك، جاء «دون ألونسو» بأخبار سببت اضطرابًا كبيرًا لأسرة «لوكريثيا». فعلى ما يبدو أن الكردينال العجوز «كيروجا»، على الرغم من تقبله لمبررات «دون ألونسو» في الدفاع عن براءة الآنسة الحالمة، إلا أنه اقترح، كحل ملائم، أن تُحتجز الآنسة في دير، من دون التوقف عن وصف أحلامها، إذا ما كانت لتلك الأحلام الأهمية الكبيرة التي يؤكدها «دون ألونسو دي ميندوثا» انطلاقًا من معرفته المؤكدة بالكتابات.

قال «دون ألونسو»:

ـ لا بد من انتقال «لوكريثيا» إلى طليطلة.

هتفت «آنا أوردونيث»:

ـ يا يسوع! وأين ستسكن هناك؟ ومَن الذي يستطيع تغطية كل تلك النفقات؟

قال «دون ألونسو»:

ـ لا داعي للقلق بهذا الشأن لديَّ في طليطلة ربيبة رحيمة جدًّا، سيدة تُدعى «دونيا خيرونيما دوريا»، هي جارة لدير راهبات القديسة «آنا» الفرنسيسكانيات، حتى إنها تستطيع من بيتها سماع القداس، إذ لها مدخل مباشر إلى الكنيسة عبر ردهة صغيرة. وفي ذلك البيت ستجد «لوكريثيا» إقامة مريحة وأكثر مسيحية. أما بشأن النفقات، فسيكون كل شيء على نفقتي.

لم تنظر «آنا أوردونيث» بعين الرضا إلى ذلك الاقتراح، فابتعاد ابنتها قد يحمل معه أخيرًا الازدهار المفاجئ الذي جلبته الشابة المتنبئة إلى البيت. لكنها لم تستطع الاعتراض، لإدراكها أن حماية «دون ألونسو» هي الركيزة الراسخة لمستقبل الفتاة. ومع ذلك، لم تشأ أن تتخذ أي قرار من دون أن يعرف زوجها بالأمر:

ـ إنه رأس هذه الأسرة، وهو المسؤول عن إعطاء الموافقة على مثل هذا الأمر الذي يتضمن خروج ابنتنا من بيت أبويها.

ولأن زوجها في بلد الوليد، يقوم هناك بواجبات عمله، فقد وقَّعت «آنا أوردونيث» على رسالة أعدَّها لها «دون ألونسو»، يشرح فيها الأمر للأب.

وكان الرد على الرسالة هو عودة صاحب الشأن نفسه إلى المدينة، غاضبًا للأخبار عن اعتقال ابنته الذي اعتبره لطخة تشوه سُمعة أسرته الطيبة. وكان هناك لقاء بين الراهب «لوقا دي أييندي» والأب، تحدث فيه الراهب طويلًا وبجدية كبيرة، وقدم المسوغات التي تبرر انتقال «لوكريثيا» إلى طليطلة، وخصوصًا لما يوفره ذلك من سهولة في تدوين النبوءات التي تنقلها الإرادة الإلهية إلى الفتاة في أحلامها.

في ذلك اللقاء، لم يقل «ألونسو فرانكو» أي شيء تقريبًا، مما حمل الراهب «لوقا» إلى الظن أنه قد تقبل أخيرًا انتقال ابنته إلى طليطلة. ولكن، ما إن انصرف الراهب الفرنسيسكاني، حتى انفجر غضب معقب المعاملات بصورة جعلت أبناءه الصغار يبكون، وراح يهدد زوجته و«لوكريثيا» بالسوط، كما لو أنه يتأهب لضربهما:

ـ هذا المدعو «دون ألونسو دي ميندوثا» ليس سوى مجنون فاقد العقل.

جميع من يعرفونه جيدًا يبدؤون الكلام عنه ـ ولا ينتهون ـ بأنه مقامر، ويذهب إلى مصارعات الثيران بصحبة النساء. وتلك السيدة الطليطلية هي خليلته، مهما كانت الردهة التي تفضي من بيتها إلى دير الراهبات.

ردَّت «آنا أوردونيث»، وقد شجعها التحسن الواضح في وضع الأسرة الذي جلبته حماية أستاذ اللاهوت:

ـ «دون ألونسو» هو شخص متحفظ ومتدين طيب، وهو على الأرض رفيع النسب ومتنفذ من علية الناس. وهو صديق أولئك الجنويين الذين تقوم أنت بالمساعي لهم، مثلما هي ابنة جنويين تلك السيدة المدعوة «دونيا خيرونيما دوريا» التي تُكثر من الإساءة إليها بلسانك البذيء.

ـ صحيح أن أسرتي ليست نبيلة مثلما هي أسرته، إلا أنني مسيحي قديم مثله، وأنا من سلالة نظيفة، ودمائي ليست ملوثة، ولا أريد أن أرى اسمي في أحد الأيام في قوائم محاكم التفتيش معلقًا في كنيسة «سان سيباستيان».

ـ إذا ما ذهبت ابنتنا «لوكريثيا» إلى طليطلة، سيتولى «دون ألونسو» نفقاتها كلها، وسوف يواصل مساعدتي في الحصول على ما تعجز أنت عن كسبه.

ـ ليس هناك بين ذويَّ من يؤمن بالرؤى! فالأحلام هي أحلام وحسب، والنظر إليها على أنها شيء آخر هو من أكبر الحماقات!

كانت أصوات معقب المعاملات وامرأته تُسمع خارج البيت، وقد اقتربت بعض الجارات من الباب ليفهمن بوضوح أكبر ما الذي يقولانه.

«ألونسو فرانكو» الذي كان يتنقل بخطوات عصبية من جانب إلى آخر في الصالة، دخل إلى حجرة الفتاة، ورفع السوط مرة أخرى فوقها وحثها على نسيان تلك الأحلام اللعينة إلى الأبد:

- انسي هذه الأحلام يا فتاة! انسيها إلى الأبد، وإلا أمرتُ بانتزاع حياتك!

ومع ذلك، لم تكن شؤون العمل في بلد الوليد تسمح لمعقب المعاملات بالبقاء وقتًا طويلًا في بيته، فكان عليه أن يرحل من جديد، متوعدًا امرأته بعقاب صارم إذا ما وافقت على انتقال «لوكريثيا» إلى طليطلة، وملحًّا على أنه يتوجب على الفتاة أن تتوقف عن الأحلام.

غير أن «دون ألونسو» كان دؤوبًا وعنيدًا. وعندما عرف رأي معقب المعاملات باقتراحه، كتب إليه مذكرة طويلة، أرسلها لتُسلم إليه مع كاهن يعمل في خدمته.

وقد بدا لـ«لوكريثيا» وأمها صحة كل ما عرضه «دون ألونسو» في المذكرة، ذلك أن اللاهوتي يروي على امتداد صفحات عديدة، وبالتفصيل، المعارف التي منحت «لوكريثيا» الأصالة، والرأي الطيب الذي تشكل لديه عنها وعن أمها «آنا أوردونيث»، والانزواء الذي تعيشان فيه، وميلهما إلى الاعتراف، والمناولة وزيارة الكنائس. ويتحدث كذلك عن كيف تحولت «لوكريثيا»، بعد حبس «بيدرولا بيامونتي» الذي يدعوه «دون ألونسو» «بياومونت»، إلى روح جديدة يرغب الرب في أن يكشف لها أسرار عنايته الإلهية، ورحمته، وعدالته غير المتناهية فيما يتعلق بممالك إسبانيا.

وذكر في الرسالة كيف أنه، وهو مضطر إلى الغياب بكثرة عن العاصمة،

عهد بـ«لوكريثيا» وأمها إلى عناية الراهب «لوقا دي أييندي» الروحية، وكيف أنه لم يجد، في دراسته لأحلام «لوكريثيا»، هو والراهب الفرنسيسكاني، ما يشير إلى أنها من وحي روح خبيثة، بل وجدا فيها كثيرًا من المعتقدات والنصائح الكاثوليكية.

ويقدم خبرًا صادقًا عن اعتقال «لوكريثيا» من قبل معاون المطران والاختبارات التي تعرضت لها الفتاة بنية طيبة، وتعقل، وحكمة، وكيف أُخلي سبيلها في النهاية. وفي زيارة قام بها إلى الكردينال «كيروجا» ليقبل يده بعد مساعدته الكبيرة للفتاة في أزمتها الحرجة، نصحه الكردينال نفسه بإدخال «لوكريثيا» إلى أحد الأديرة.

ويواصل «دون ألونسو» رواية الأحداث وعرض مسوغاته الدينية، كي يلح على وجوب استقرار «لوكريثيا» مع تلك السيدة في دير في مدينة طليطلة، لأن سنها وما يحدث في العاصمة يجعل انتقالها أفضل من أي شيء قد يحدث لها فيما بعد، ويؤكد أن انتقال «لوكريثيا» إلى طليطلة سيكون جيدًا، لأن تلك المدينة هي المكان الوحيد الذي سيظل آمنًا في إسبانيا عندما ستقع الأحداث الرهيبة التي تكشف عنها رؤى الآنسة.

لكن معقب المعاملات واصل رفضه القاطع لانتقال «لوكريثيا»، وإن كان قد وافق على مواصلة تدوين أحلامها، شريطة ألا تذاع على الملأ مثلما حدث حتى ذلك الحين، لأن ذلك في رأيه هو السبب المباشر في اعتقال ابنته.

كان «دون ألونسو» واثقًا من أن الكلمة هي جوهر الحكم الإنساني، مثل ثقته بأن الكلمة الإلهية هي التي منحت قوامًا ووجودًا ونظامًا لكل أشياء الكون. وكان قادرًا على بذل الوقت والجهد الضروريين ليطور

مسوغاته خطيًّا، ففوجئ كثيرًا عندما لم تستطع مذكرته ثني معقب المعاملات عن عناده.

غير أنه لم يكن هناك في نهاية المطاف حاجة لمواصلة الجدل، ذلك أن «لوكريثيا» سقطت مريضة، فقد ارتفعت حرارتها كثيرًا وأُصيبت بوهن شديد، واضطرت إلى ملازمة الفراش وقتًا طويلًا.

## ١٠

أحزن مرض «لوكريثيا» أصدقاءها، فقد راحت الفتاة تغرق أكثر فأكثر في حزن يسرق منها الرغبة في الكلام، وحتى في الأكل.

كانت متعبة إلى حد تظل معه في الفراش ساعات طويلة، لكنها لم تعد تحلم كثيرًا كما في السابق، وصار مشهد أحلامها هو أمكنة الحياة اليومية، حيث يظهر جيرانها وأشخاص تعرفهم، وإن كانوا يقولون ويفعلون أشياء لا معنى لها: الأستورية «ماريا برافا» تطلب عدد الرب وهي تحمل دجاجة على رأسها، وتاجر الكتب الذي في آخر شارعها، يرتدي صفحات مخيطة من كتب كثيرة، ويصرخ بغضب غير مفهوم بأن الرب مصاب بالتيفوئيد، والخباز يذرُّ حفنات من الدقيق في الشارع إلى أن يحيله أبيض كما لو أن الثلج قد هطل عليه للتوِّ.

يمر هؤلاء وغيرهم، بمن فيهم أمها «آنا أوردونيث»، بمسوح الرهبنة الفرنسيسكانية، وجميعهم يبدون منهمكين في أعمال لا يمكن فهم مغزاها بوضوح، يذهبون ويجيئون بمزاج فظ وهم يحملون حزم ملابس وسلال مأكولات، كما لو أنهم يتمونون بالحاجات الضرورية لمواجهة تهديد وباء أو نكبة أخرى.

وعندما تستيقظ «لوكريثيا»، تشعر حيال أحداث اليقظة بغرابة مشابهة لتلك التي يسببها لها انعدام مغزى الكلمات والأفعال التي تراها في أحلامها، كما لو أن انكباب الراهب «لوقا» على تدوين رؤاها المشوشة، والإلحاح الذي يأتي به مزيل البقع و«خوان دي تريخويكي» و«دون جييّن دي كاساوس» لزيارتها مبدين ورعهم أمام مواهبها التنبئية وأساهم للوعكة التي تنهكها، هي جميعها أيضًا من تصرفات كائنات أحلامها.

وهكذا راحت ترتاب، فترة من الوقت، بأن كل ما تراه، مما يحيط بها في الليل والنهار، ليس إلا مداخل مختلفة لحلم وحيد متاهي وغير متناهٍ، لا يمكن لها الخروج منه ولو حاولت ذلك بكل قواها. فمثل تلك الرؤيا للشيطان عندما أراد الظهور بمظهر محاور أحلامها المعهود، رأت مكانًا مُتضَمَّنًا في مكان حلمي آخر يضم بدوره مكانًا أكثر اتساعًا من السابقين، لكنه أصغر من الذي يحتويه.

ولمحاولة فصل ما في تجربتها الحلمية، في النوم واليقظة، كانت «لوكريثيا» تستغل سكون الوقت في ليال كثيرة، قبل أن تغفو، لتفكر من دون أي سهو، وتحاول أن تتقصى إذا ما كان صحيحًا أن الوقت قد انقضى، ولم تعد تلك الطفلة التي كانت ترافق أمها إلى خارج تخوم المدينة، باتجاه النهر، للبحث عن أعشاب علاجية وعن براعم الهليون، ولا الطفلة التي كانت تظل في فراشها حالمة بأنها قد كبرت إلى أن وصلت إلى اختلاط الرؤى الرهيبة التي تنذر بكثير من الموت والدمار، وتستثير اهتمام أولئك المتدينين والحكماء والسادة.

لكن جهودها لم تكن كافية قطُّ للخروج من الحلم، إذا كان الأمر

مجرد حلم، والطفلة تظل مستغرقة فيه، وقد تحولت إلى صبية، حبيسة خدر لا سبيل للمح مخرج منه.

قال «دون ألونسو» الذي جاء من طليطلة لزيارتها عندما وصله خبر مرضها:

ـ أنا لا أرى في وهنك هذا أي مرض، وإنما هو إشارة إلى ضعف جسدي ترغب العناية الإلهية أن تبرز من خلاله الصلابة الروحية لمختاريها.

في غيابه، كان «دون ألونسو» يبحث عن الوسائل ليوصل إلى الفتاة الدليل على حمايته الكبيرة لها وإسعاد أيامها قدر المستطاع، بإهدائها علب خياطة، وصور قديسين، وأقمشة للملابس، وحلويات ومجوهرات صغيرة. وكان يسعى لأن يوفر لبيت «لوكريثيا» على الدوام وفرة من المأكولات اللذيذة، ويرسل إليها عربته كي تتمكن من الخروج برفقة أمها إلى محيط المدينة، للاستمتاع بالأيام التي يتبدى بها الربيع المزهر.

وعندما تطاولت الأمسيات وجاء الطقس الطيب، جاء خادم أرسله «دون ألونسو» إلى «لوكريثيا» وأمها مكلفًا بمهمة أخذهما في رحلة إلى مسافة تبعد أكثر من ثمانية فراسخ عن المدينة، كي يريهما مكانًا معينًا. وكان عليهما أن تقضيا ليلتين خارج بيتهما، فأوصت «آنا أوردونيث» إحدى قريباتها ببقية أبنائها.

انطلقت الأم والابنة في الرحلة قبل بزوغ الفجر. أظهر فانوس بصورة غائمة أبواب ونوافذ مباني المدينة، ثم راح بريقه الضئيل يترنح على تعرجات الطريق. وأخيرًا أضاء الفجر الأماكن المظلمة التي يجتازونها.

كان المطر ودفء الأيام السابقة قد ملأ كل الأنحاء بالخضرة، وكانت المرأتان اللتان تشكل لهما أي رحلة، مهما قصرت، مغامرة استثنائية، تنظران بإعجاب إلى الجبال المكسوة بأشجار سنديان ضخمة، تبدو مرصعة بالثلج من بياض أزهار اللاذن. والأودية المغطاة بخضرة غضة من الأوراق الأولى، حيث تلتم أشجار الحور والدردار فوق العشب المتجدد. والحقول القاتمة حيث بدأت تبرز أول بوادر القمح. وتتأملان بفضول القرى المكومة بجوار الكنائس الكبيرة والقلاع الضخمة.

توالى اجتيازهم القرى التي يجري تداول أسمائها في العاصمة بسبب قربها، وكان الحوذي يشير إليها من مقعده الذي يتحكم منه بالبغلتين:

ـ هذه هي قرية «بايّكاس». وهذه هي «باثيا مدريد»، وتلك هي «أرجاندا».

ومروا من قريتي «بيراليس» و«إلبيّاريخو» أيضًا، وقبل الضحى وصلوا إلى «تارانكون»، ثم إلى «بيّاروبيا دي سنتياجو»، وانحرفوا إلى طريق سيئ جدًّا ليصلوا فجأة إلى وادٍ بالغ العمق، يتلوى فيه نهر التاجو في انحناءات كبيرة.

قال الرجل، وقاد العربة باتجاه المكان الذي يبدو أنه وجهته، حيث توجد عربات أخرى متوقفة:

ـ إنهم ينتظروننا في واحدة من هذه الغابات.

وكان ذلك المكان في أسفل جرف صخري، حيث الأرض معروقة بأخاديد غائرة، بعضها أمغر وبعضها ضارب إلى البياض، خلفتها سيول مياه الأمطار. وتشكل الضفة هناك دغلًا صغيرًا من أشجار الحور. وفي

الفسحة الخالية من الشجر، ثمة سرادق أزرق اللون، ومقابله مظلة بيضاء ومذهبة، مثبتة بقوائم عديدة مطلية بالأحمر، تمتد تحتها موائد خشبية ومقاعد طويلة مصفوفة إلى جانبها.

هناك كان يجلس «دون ألونسو دي ميندوثا» مع جماعة من السادة، ينتظرون مجيء «لوكريثيا». ترجلت الفتاة من العربة، وسارعت إلى تقبيل يده، مظهرة في تحيتها حرارة الامتنان الذي تشعر به نحوه حقًّا، وبدا «دون ألونسو» مبتهجًا جدًّا:

ـ لا أجدك نحيلة جدًّا مثلما أخافوني يا بنتي «لوكريثيا».

كان هناك أيضًا «دون جييَّن دي كاساوس»، والراهب «لوقا دي أييندي»، و«دون خوان لوبيث دي ثاراتي» الذي دأب على زيارة «لوكريثيا» منذ إطلاق سبيلها، والاستماع إليها تروي أحلامها. وكان هناك أيضًا سادة آخرون غير معروفين، قدَّم «دون ألونسو» إليهم «لوكريثيا» بمحبة فيها كثير من الأبوية، إنما فيها كذلك شيء من اعتزاز السيد، كما لو أن أحلام الفتاة وفضائلها هي ملكه:

ـ هذه هي آنسة الأحلام التي طالما حدثتكم عنها، والتي ترى أشياء عجيبة وعظيمة. وقد أوكل لي الرب مسؤولية تفسير رؤاها وإطلاع سائر الكاثوليك الصالحين عليها.

تبين أن أحد السادة غير المعروفين لـ«لوكريثيا» هو «دون كريستوبال دي أييندي»، شقيق الراهب «لوقا»، وأن الآخر يدعى «أندريس دي باراهونا» مدبر حجرات الملك، والثالث هو المعماري المشهور وكبير المخططين والمكلف ببناء أماكن إقامة جلالته، «دون خوان دي هيريرا».

وبعد التقديم والتعارف، تحدث «دون ألونسو» إلى «لوكريثيا» بعذوبة:

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، لقد جعلتك تسافرين كل هذه الفراسخ كي تتمكني من معرفة بعض الثمار الطيبة لرؤاك. تعالي معنا وليباركك الرب ألف مرة.

ومن دون مزيد من الكلام، توجهوا جميعهم سائرين باتجاه تلك الجروف المحيطة عن قرب بالمكان إلى أن وجدوا دربًا ضيقًا محفورًا على السفح، فراحوا يصعدونه بعض الوقت ممسكين بحبل مثبت بحلقات معدنية إلى الجدار، على امتداد الدرب. وساعد الراهب «لوقا» بذراعيه القويتين «لوكريثيا» على الصعود.

وصلوا أخيرًا قبالة فجوة كبيرة تتوغل في الأرض، حيث توجد كومة من الأحجار غير المشذبة، وكومة أخرى نحتتها أيدي الحجارين باستخدام أدوات كثيرة. وأمام فتحة الفجوة يتدلى حبل ثخين، ربما هو جزء من آلة ما أو رافعة موضوعة في أعلى الجرف.

قال «دون ألونسو» بعد أن استرد أنفاسه:

ـ بُنيتي، هذه التي ترينها هي مغارة أحلامكِ.

وأضاف:

ـ إنها «السوبينيا».

كانت «لوكريثيا» تتأمل باهتمام تلك الفجوة التي تنفتح فجأة في الجرف الأملس والمتماثل. بينما راح «دون ألونسو» يقول:

ـ هذه ستكون مغارة «كوفادونجا» المستعادة، حيث سيلتجئ أنصار

«بيلايو» في انتظار يوم التحرر، عند تعرض أراضي إسبانيا كلها لغزو المسلمين والهراطقة.

هتفت «لوكريثيا» مذهولة:

ـ فليتبارك الرب!

ـ شاءت الإرادة الإلهية أن تكون المغارة في أراضي «دون كريستوبال دي أييندي»، شقيق الراهب «لوقا». وقد وضع «دون خوان دي هيريرا»، المؤمن أيضًا برؤاك النبوية، مخططات إقامة كنيسة صغيرة وأربع حجرات في المغارة، إضافة إلى مخابئ أخرى. ومنحني القاصد الرسولي نفسه، الموفد من قداسة البابا، صلاحية إقامة القداديس في المصلى.

قال المعماري بما يشبه المزاح:

ـ الحقيقة أن الأمر لم يكن سهلًا. فعندما وجدنا المغارة، لم يكن هناك طريق للوصول إليها، وكان عليَّ أنا نفسي أن أتدلى من أعلى الجرف معلقًا بحبل مثبت إلى شجرة خوخ بري من أجل معرفتها جيدًا.

كان عمق الفجوة يبدو بعيد الغور بحيث لا يمكن لنور الشمس في الخارج أن يضيئه، وتتشكل في منتصف المكان عتمة أعادت إلى «لوكريثيا» ظلمة وضوء أحلامها وجعلتها تتعرف في تلك الحجرة الهائلة التي تنفتح داخل الأرض الضاربة إلى البياض على المعقل الذي رأته مرات كثيرة في رؤاها. فقالت متلعثمة:

ـ إنها لا تبدو مغارة، وإنما بيتًا محصنًا وبيت الرب.

قال «خوان دي هيريرا»:

ـ ما كان يمكن لرحمته الإلهية أن تمنحنا مكانًا ملائمًا لأهدافنا أكثر من هذا.

وأضاف:

ـ فالمكان يتسع لكثير من الناس، مع ما يحتاجون إليه من مؤن، كما أنه مناسب للدفاع عنه، والماء قريب منه.

أضاف «دون ألونسو»:

ـ لقد بدأنا بجمع المال لشراء الأسلحة، وكذلك القمح والحمص، وحتى الأسرَّة التي سنحتاج إليها. ولا بد لك أن تعلمي يا بنتي «لوكريثيا» أن جميع هؤلاء الرجال كانوا أسخياء جدًّا بمساهماتهم، مثلما هو الإيمان الذي توقظه فيهم نبوءاتكِ، وحتى أنا نفسي وجدت الإرادة لبيع سلسلة من أول الذهب المجلوب من بلاد الهند، ورثتها عن أسلافي، من أجل الحصول على أموال لهذا الهدف السامي.

رتلوا هناك بوقار وخشوع بعض الصلوات، ثم نزلوا على الدرب شديد الانحدار ورجعوا إلى الغابة. وعلى الموائد التي تحميها المظلة من الشمس، كانت قد وضعت سُمُطٌ وفوقها أطباق أنواع كثيرة من الأطعمة التي أراد «دون ألونسو» تقديمها للاحتفال بتلك المناسبة: تين على الطريقة الفرنسية، وكبد خنزير مطبوخ، وفطائر لحم، وأسماك شبوط مع الخبز والفلفل والزنجبيل، ولحم أرانب منقوع بالخل، ولفائف لحم خراف، وأخيرًا حلوى الملائكة وأصناف أخرى من لذائذ المقلاة.

ولأن المسير سبب لهم الجوع، فقد جلسوا جميعهم إلى المائدة فورًا

وشاركوا في مأدبة بهيجة. أما «لوكريثيا» التي لم تكن قد استعادت الشهية بعد، فراحت تتأمل وفرة الأطعمة ونهم المدعوين بشيء من النفور، لكن الأحاديث المتداولة على المائدة أنستها اشمئزازها.

روى «دون خوان دي هيريرا» تفاصيل كثيرة مذهلة عن بناء الإسكوريال، وفسر كذلك العلاقة بين البناء والشكل المكعب، وهو الشكل غير المرئي والذكوري لكرة الأرض المرئية والأنثوية.

وجرى الحديث كذلك عن الملك، وإن لم تخرج إلى العلن الانتقادات المعروفة في لقاءات الثقة بين «دون ألونسو دي ميندوثا» وصحبه المعهودين. وعرفت «لوكريثيا» أن جلالته أيضًا يقدر ذلك التنجيم اليهودي الذي يستثير كثيرًا من اهتمام الراهب «لوقا» و«دون جيين»، كما أنه يقدر الخيمياء إلى حد أنه أعد برجًا في قصر الإسكوريال كي يعمل فيه أشهر الخيميائيين في العالم وأوسعهم معرفة.

أوضح المعماري:

ـ قدر جلالته محكوم بكوكب زحل، كوكب الكآبة. غير أن النجم الذي له تأثير خبيث في العادة، يأتي في طالع الملك مصحوبًا بالمشتري، والزهرة، وعطارد، بحيث يتوصل التأثير الزحلي، بعيدًا عن أي شر، إلى مفاعيل نافعة.

وعلى امتداد الحديث، اكتشفت «لوكريثيا» أن عددًا من السادة الحاضرين يهوون البحث عما تخبئه الأرض في أعماقها. فقد قال «دون ألونسو» إنه دفع تكاليف عدة مشاريع للتحقق من وجود معادن نادرة في إسبانيا وإنجلترا. وروى «دون خوان دي هيريرا» باعتزاز أنه

حصل على تصريح من الملك للبحث عن كنوز ذهب وفضة، وعن مجوهرات ونقود وأشياء أخرى ثمينة كذلك، يمكن أن تكون مطمورة، منذ أزمنة المسلمين، في أماكن مختلفة من جبال طليطلة، مثل جبل «مولينيُّو»، بالقرب من خانات «بينياجيليرا»، وأن لديه تصريحًا ملكيًّا الآن للبحث عن كنوز في بلدة «سانتاريم» البرتغالية، وفي أراضي «هويتي» ومدينة «أوجاس».

وتحدث «دون جيين» أيضًا عن مدن الذهب الموجودة شمالي إسبانيا الجديدة (المكسيك)، وتحسر لأن مكائد بعض الوزراء الخبثاء حالت دومًا من دون حصول مساعيه العقلانية على التصريح اللازم لتنظيم حملة توغل في تلك الأراضي، لأن طلباته لم تصل قطُّ إلى علم الملك الذي كان سيدرك من دون ريب منافع المشروع.

وبينما حاكم «يوكاتان» القديم يتكلم، كان ينظر باستياء واضح إلى «دون خوان لوبيث دي ثاراتي» الذي أبهجت وفرة الخمر مزاجه، فرد على «دون جيين»، بنبرة مصالحة، مؤكدًا له أن عدم الرد على طلباته لم يكن بسبب عدم اطلاع الملك عليها، وإنما لكثرة الالتماسات المماثلة لطلبه:

ـ فكر يا صديقي الطيب في أن سادة كثيرين مثلك كانوا يتنافسون لتحقيق مآثر كالتي حققها «هيرنان كورتيس» و«فرانثيسكو بيثارُّو»، إلا أن جلالته كان يفكر في أن الأزمنة ليست أزمنة اكتشافات جديدة، وإنما استيطان الأراضي المكتشفة واستغلالها إلى أقصى الحدود، كي تزدهر، لأن الحروب ضد الملعونين اللوثريين والأتراك تتطلب ذهبًا بلا حساب ولا نهاية.

وجرى الحديث خلال اللقاء كذلك عن ديوان التفتيش، وقد استمعت إليه «لوكريثيا» باهتمام، لأنها بعد تلك الاستجوابات والسجن الذي تعرضت له على يد معاون المطران، وعلى الرغم من تأكيد «دون ألونسو» والراهب «لوقا» بأن عليها ألا تخشى شيئًا من تلك الناحية، إلا أنها لم تكن تشعر بالطمأنينة الكاملة.

غير أن الإشارة إلى المسألة اقتصرت على قصة كان «دون خوان دي هيريرا» يتبجح بها، وهي مسألة الإيواء التي قام به السنة الماضية في طليطلة، بمناسبة رحلة الملك لتلقي رفات القديسة «ليوكاديا»، حيث أُنزل البعض في بيت أمين ديوان التفتيش، وقد انزعج المضيف بالإكراه من الضيف الذي خاض جدلًا عنيفًا مع مسؤول الإيواء، وانتهى إلى تلقي طعنة سكين على يد هذا.

قال المعماري وهو يضحك، وبفخر كبير:

- لا شك أن ديوان التفتيش كان راغبًا في إيوائي في سجونه السرية، لكن «دون خوان دي هيريرا» يتمتع في هذا العالم بأعظم حماية، حماية عاهلنا الكاثوليكي الذي يحميه من أي أذى، مثلما يأمل أن يكون له حارس أعظم في العالم الآخر، آمين.

احتفى الحضور جميعهم بالحادثة وبكلمات «خوان دي هيريرا»، وأرادت «لوكريثيا» أن تفهم في ذلك كله مغزى غامضًا، يحمل إلى المجتمعين الطمأنينة المؤكدة بوجود حماية خفية.

وقد كان الجو مطمئنًا أيضًا، فالعصافير تصدح بين آجام التوت البري على الضفة. وكان تغريدها ودوي النهر، مع صدى كلام الحاضرين، هي

الأصوات الوحيدة المسموعة في ذلك الصمت الشفاف. وكان الخدم والحوذيون قد انتحوا جانبًا وراحوا يتداولون قربة النبيذ فيما بينهم، ويقطعون شرائح كبيرة من الخبز البيتي ليرفقوها بطعامهم.

وللحظة، تخيلت «لوكريثيا» أن ذلك المشهد أيضًا يشكل جزءًا من حلم، وأن تلك الطمأنينة التي تبدو شديدة الحقيقة في مغزى الإيماءات وفي معنى الكلمات، ومشرقة في بهاء الربيع الوليد تحت الشمس التي ملأت المرج بأزهار الأقحوان، وجعلت الحشرات تلمع مثل درر طائرة، يمكن لها أن تنجرح فجأة بفظاظة إحدى صور الدم والموت الرهيبة التي تحاصرها كل ليلة.

بعد الانتهاء من الغداء، ودَّع الجميع بعضهم بعضًا مع كثير من التقدير للآنسة. وتوجهت «لوكريثيا» مع أمها و«دون ألونسو» في العربة إلى طليطلة، حيث ستقضي تلك الليلة. كانت هناك أنواع أخرى من عربات السفر والنقل تتخذ الطريق نفسه، وكان «دون ألونسو» يتذمر من تلك الأزمنة الجنونية التي تحمل في كل يوم مزيدًا من الحركة على الدروب، بذهاب وإياب لا يتوقفان للبهائم والعربات مما يجعل التنقل شديد الخطورة والبطء.

مروا من قريتي «أوكانيا» و«ييبيس»، وبعد ذلك الخانات المنتشرة على الطريق، في «ديهيل»، و«ماخاثلا»، و«كافا»، و«كالاباثاس» التي يعرف «دون ألونسو» أسماءها جيدًا، وإن كان يتكلم بصورة سيئة جدًّا عن مطابخها.

لم تكن «لوكريثيا» قد زارت طليطلة إلا في تلك المناسبة التي ربما تكون نفسها التي جرت فيها حادثة «خوان دي هيريرا» مع أمين ديوان

التفتيش، قبل حوالي سنة، عندما ذهب أناس كثيرون من العاصمة في إثر الملك وابنه والأميرة «إيزابيل كلارا أوخينيا» لتلقي جسد العذراء الشهيدة القديسة «ليوكاديا» الذي جيء به من الفلاند.

وعلى الرغم من المطر الذي كان يهطل يوم ذاك، فقد شعرت «لوكريثيا» بالانبهار من ضخامة الاحتفال، وزينة الشوارع وواجهات الأبنية، وبهاء الموكب الملكي الذي تتألق فيه سيدات راقيات كثيرات بملابسهن الفاخرة، ويتقدمه الحرس الإسباني، ويختمه الحرس الأصفر والألماني، وسط حشود تملأ الشوارع والنوافذ وتعتلي الأسطح.

لكن «لوكريثيا» لم تكد ترى الكنيسة الكبرى في المدينة، ولمحت بصورة عابرة بعض الكنائس والأبنية الأخرى، غير أنها تحتفظ بذكرى عن تخطيط المدينة الشامخ وحضورها المهيمن.

وصلوا إلى المدينة مع بداية الليل واقتراب موعد إغلاق أبوابها، وتوجهوا إلى بيت «دونيا خيرونيما دوريا» الذي كان مقدرًا له أن يكون مأوى «لوكريثيا» لو لم يعارض أبوها «ألونسو فرانكو» ـ بإصرار ـ انتقالها إلى هناك.

تناول الأربعة العشاء معًا. لم تكن «دونيا خيرونيما دوريا» شابة جدًّا، لكنها ذات لحم وافر وأبيض، شعرها شديد الشقرة، ولها عينان واسعتان زرقاوان، تفصحان جيدًا عن أفكارها ومشاعرها.

ومع أن «لوكريثيا» لم تشأ تصديق ما قاله أبوها عن طبيعة العلاقات الآثمة بين «دون ألونسو» وتلك المرأة، إلا أنها لم تستطع استبعادها من ذاكرتها. وعلى امتداد ذلك العشاء، أحست بالارتباك حين أدركت أن

المضيفة تحتفظ نحوها بتحفظ نفور، يبدو أنه يتضمن شكوكًا وتأنيبًا، لم يتوصل إلى التخفيف منه موقف «آنا أوردونيث» المتذلل.

وبينما هي ترى أمها إلى جانب تلك المرأة، اكتشفت «لوكريثيا» أن أمها، بسنوات عمرها الأربعين، لا تزال نضرة وحسنة المظهر، وأن حركات السيدة ونبرة كلامها، حيث لا يكاد التهذب يخفي الاستياء الذي تشعر به، يكشفان عن مؤشرات غيرة قوية جدًّا، تؤكد صحة علاقتها الخاطئة مع «دون ألونسو».

عندما استلقت «لوكريثيا» في الفراش، كانت تشعر بالإنهاك من السفر ومن تجارب ذلك اليوم، لكنها تأخرت طويلًا قبل أن تغفو.

وجدت نفسها في ضيق شديد، ذلك أن ارتيابها بتلك العلاقة الآثمة بين «دون ألونسو» و«دونيا خيرونيما دوريا»، حطَّ فجأة من مكانة رجل اللاهوت، ومن جلال مغارة «السوبينيا»، وجعل الأحاديث التي تداولها أولئك السادة البارزون في أسفل الوهدة، في ذلك الدغل الوادع، تفقد وقارها وسحرها لتتحول إلى مجادلات ومماحكات تافهة لعدد من الندماء الثرثارين.

لكن «لوكريثيا» فكرت على الفور في أن سبب تلك الأفكار التي ضايقتها كثيرًا لا بد أن يكون ضعفها المرضي. فمما لا شك فيه أن «دون ألونسو» شخص شديد الورع وواسع الحكمة، و«السوبينيا» ملاذ مهيب ومقدس. وواقع أن المعماري الملكي، باني قصر الإسكوريال، مشارك في المشروع يشير إلى أي حدٍّ تلقى رؤاها القبول كحقائق إلهية لا تُدحض.

مما لا شك فيه أنه ليس هناك من سبب آخر لتصرف «دونيا خيرونيما دوريا» سوى تكبرها المفرط، وأنه مجرد ازدراء لعدم عراقة نسب «آنا أوردونيث» ونسبها هي نفسها. وهكذا، بطمأنينة أكبر، راحت تستغرق في النوم من دون أن تأتي أية رؤى لتقلق راحتها في تلك الليلة.

# ١١

لم تتوقف «لوكريثيا» عن رؤية الأحلام منذ الليلة التالية. فبعد عودتها من المحكمة، استعادت أحلامها ثبات وهول الأزمنة السابقة لاعتقالها من قبل معاون المطران.

رأت من جديد أيادي مبتورة، وبطونًا مبقورة، ووجوهًا شوهها العنف. وبدأت تخوض في أحاديث مطولة مع الملك، وتقدم إليه نصائح لا يتقيد بها أبدًا. وكان الملك يظل في بعض الأحيان جامدًا بلا حراك، محرومًا على ما يبدو من أي إحساس. بينما الحشرات واليرقات تدخل إلى فمه وتخرج منه كما لو أنه ملجأ طبيعي لها، وتُحفر على جبينه في أثناء ذلك رسائل تتحدث دومًا عن ضعف إيمان العاهل وافتقاده الرحمة. وكانت «لوكريثيا» تفهم تلك الرسائل على الرغم من أنها لم تكن، آنذاك، قادرة على القراءة بطلاقة.

رأت نفسها في طليطلة الليلية، تلك التي عرفتها عند زيارتها بيت «خيرونيما دوريا»، تمتطي جوادًا أبيض، من دون أن تدري جيدًا ما الذي تفعله، لكنها واثقة من أن لحضورها علاقة بالدفاع عن المدينة في مواجهة الغزو الرهيب الذي يتهددها.

وفي إحدى المرات كان «دون جيِّن دي كاساوس» هو من يتولى التدوين، وحين سمع بعض توصيفات الآنسة، ارتبك كثيرًا وطلب من «لوكريثيا» أن تكرر قصتها عدة مرات.

هتف «دون جيِّن» مبتهجًا:

ـ لا شك في أن هذه الرؤى يجب أن تُفسر على ضوء كتاب «إسدراس» حول «الكتابات المقدسة»! وبهذا تصبح حكمة «دون ألونسو دي ميندوثا» واضحة!

بتلك الكلمات، كان «دون جيِّن» يعزز ما أكده «دون ألونسو دي ميندوثا» مرارًا حول علاقة ذلك الكتاب برؤى «لوكريثيا».

ـ محنة ذلك النبي مكتوبة في تذكُّره العقاب الذي نزل بشعبه عندما أخلَّ بالأمانة، وذلك العقاب يمثل توافقًا واضحًا مع النكبات التي سيتعرض لها الإسبان، بحسب رؤاكِ!

لم ترَ «لوكريثيا» «دون جيِّن» بمثل ذلك الاضطراب من قبل، وخشيت أن يكون انقلاب حالته المعنوية، وإيماءاته المفخمة والتكشيرات التي تشوه وجهه، دلائل تبين أن ذهنه ليس بالجودة التي يظنها «دون ألونسو» والآخرون. ولكنها سرعان ما استبعدت من تفكيرها تلك التخيلات، فهي تعرف أنها جاهلة في أمر تفسير أحلامها ولا تعرف شيئًا في هذا الشأن، ولا يمكنها أن تحكم إذا ما كان إثبات «دون جيِّن» لتكهنات «دون ألونسو» في العلاقة بين أحلامها وكلمات النبي القديم تستحق تهللًا يوصل إلى تلك الأصوات والإيماءات.

عندما استرد «دون جيِّن» الرصانة، أضاف أنه بالإمكان إثبات العلاقة

بين أحلام «لوكريثيا» وذلك الجزء من «الكتابات المقدسة» بالاستناد إلى رموز كثيرة موجودة في كتاب مشهور يملكه هو حول تفسير الأحلام بعنوان «أرتيميدونو دارديانو».

قالت «آنا أوردونيث»، وكانت تخيط كعادتها وهي جالسة بالقرب من الحالمة:

ـ فليتبارك يسوع على الدوام!

وتابعت:

ـ وهل توجد كتب أيضًا لتفسير ما تعنيه الأحلام؟

أجاب «دون جييَّن»:

ـ القدماء درسوا كل شيء يا سيدة «آنا». وكثير مما نعرفه اليوم مصدره علومهم.

ـ هل صحيح إذن ما تقوله عرابتي عن أن المريض حين يحلم باللفت تكون إشارة إلى أنه سيشفى قريبًا، والحلم بالتقاط عصافير يبشر بالمحن، وإذا حلمت بأن هناك من ينتزع دماغك، فهذا يعني أن موتك صار وشيكًا؟

ـ هذه مجرد شعوذات عامية. أما كتاب «الأرتيميدونو» فليس بهذه البساطة. ومن جهة أخرى، يشير كتاب «دليدا» إلى أن من يرغب في تفسير الأحلام عليه ألا يتوقف عند صورة واحدة، بل يتوجب عليه التمعن بدقة كبيرة في ظروف وأجواء كل حلم. ويقال كذلك إن الطعام الكثير والثقيل يشوش الأحلام ويُفسدها.

ردت «آنا أوردونيث»:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فإنني أحمد الرب مولانا لأنه لم يمنحني هبة الأحلام، فأنا لا أجد، باستثناء واجباتي الدينية، ما هو أفضل من الذهاب إلى الفراش بعد عشاء دسم.

ردَّ عليها «دون جيين» محذرًا:

ـ الأطباء يقولون إن المقابر ممتلئة بمحبي العشاءات الدسمة، بل هي أكثر امتلاء بالميتين جوعًا، كما هو معروف بكل تأكيد لشخص عليم ومشهور مثل حضرتك.

كان «دون جيين»، وهو يدون أحلام «لوكريثيا»، يصر كثيرًا على أن يعرف، ليس فقط طبيعة وكمية الأطعمة التي تناولتها قبل أن تنام، وإنما كذلك كل التفاصيل التي تقدمها الأحلام في مشاهدها وأمكنتها، وتصرفات الأشباح وملابسهم، وإذا ما كان الهواء هادئًا أو ريحًا عاصفة، أو نسيمًا لطيفًا، وإذا ما كان الجو صافيًا أم ماطرًا، ويريد أن يعرف كذلك إذا ما كان الحلم في الضوء أم في الظلام، عند الفجر أو عند الغسق.

في تلك الأيام وقعت بعض الاختلافات بين «دون جيين» والراهب «لوقا» الذي طالب بإعادة بعض مدونات أحلام «لوكريثيا» التي يبدو أن السيد احتفظ بها لنفسه. وقد بدا الراهب «لوقا» مستاء جدًّا:

ـ لقد كتبتُ إلى «دون ألونسو» لأخبره بأن «دون جيين دي كاساوس» يحتفظ لنفسه بتلك المدونات من دون أن يعطينا نسخة منها، بحجة أنه يريد إثبات ما قلناه أنا و«دون ألونسو» عن بعض أحلامكِ. هذا السيد يدعي أنه متلقي اعترافات، وهو ما ليس من اختصاصه، وربما يمكن

اعتبار مزاعمه تدنيسًا للمقدسات. ومع ذلك، عليك ألا تتوقفي عن إطلاعي على ما تخبرينه به، فحتى لو كانت واجباتي الكثيرة تحول من دون مرافقتك طوال ما هو ضروري، إلا أنني لا أريد التخلي عن متابعة رؤاكِ أولًا بأول.

في تلك الأثناء رأت الفتاة في أحلامها رؤيا الرجال الثلاثة. وحرضها الصيادان ضد «دون جييّن».

أكد رجل الجلود بصوت خفيض جدًّا:

ـ هذا السيد ليس طيب الروح. عليكِ أن تعلمي أن كتاب الأحلام الذي لديه، ويحاول من خلاله اكتشاف المغزى الحقيقي لأحلامك، ممتلئ بأشياء خبيثة ومؤذية.

وقد عُرف في تلك الفترة أن أسطول «الأرمادا» الذي سيغزو إنجلترا قد خرج لتوه من لشبونة. وبدأت المدينة تشهد مزيدًا من الازدحام والصخب، ومزيدًا من تجول دوريات العسس التي توحي من وقع خطواتها أنها تريد اللحاق بأعداء مستترين، وكثيرًا من الجلبة في بعض الأزقة.

وقد اعتاد «خوان دي تريخويكي»، قبل البدء بدورياته، أن يزور «لوكريثيا» وأمها، ويتناول ربعًا من أنواع النبيذ الجيدة التي اعتاد «دون ألونسو» أن يمون بها ذلك البيت. ويتحدث عما يحدث بشيء من المفاجأة:

ـ لم يُرَ من قبل مثل هذه الأعداد من المترددين على المواخير وموائد القمار. يبدو كما لو أن المدينة في عيد متواصل. ويقال إن المراهنات عالية جدًّا، وكأن الناس لا يخشون الإفلاس.

وتعكس «آنا أوردونيث» مشاعر الناس البسطاء، مبدية احتجاجها على ذلك الصخب المتجدد:

ـ هناك معركة كبيرة تقترب، ولا يبدو لي أن الوقت هو وقت الخطيئة، وإنما الصلاة والتوبة والتضرع إلى الرب لنصر رجالنا.

لم تكن «لوكريثيا» تقول شيئًا، غير أن ضخامة أبعاد تلك المعركة التي كثيرًا ما لمحت صورها في أحلامها، جعلتها تدرك أن في ذلك النشاط الليلي، كما في كل خطيئة، نوعًا من الوداع السابق لأحداث خطيرة يمكن أن تنشأ عنها نتائج غير مواتية للإسبان.

بعد بضعة أيام من ذلك، زاد من هياج توقعات الناس وصول خبر عن أن «الأرمادا» اضطرت إلى أن ترسو في ميناء «لاكورونيا»، للتموين والاحتماء من رداءة الطقس. وحين انتهى كاهن «سان سيباستيان» من القداس، تحدث في صباح أحد الأيام إلى رعيته بمزاج ذاهل:

ـ يقال إن عاصفة مفاجئة قد أغرقت ثلاثين سفينة. وأي صلوات وابتهالات تقدم في مثل هذه المناسبة ستكون مقبولة من الرب، وعلينا ألا نكتفي بضخامة الأسلحة وحدها.

بعد زمن طويل من الإشاعات حول الحملة، أدت تلك الأحداث، مع الانطلاق المحبط والمناخ المشؤوم، إلى زيادة قلق الجميع.

وكما لو أن هناك سعي إلى إضافة تزمت جديد إلى القلق الذي تسببه الحملة على إنجلترا، مُنع في تلك السنة النزول إلى النهر للاحتفال بعيد «سان خوان».

بائع جوال يبيع نبيذ العسل والتوابل وكعك الحليب، أخبر أم «لوكريثيا» ـ

وما لبثنا أن سمعنا المنادين فورًا يعلنون الخبر ـ بأنهم يبررون المنع بالسُّمعة الفضائحية التي بلغتها ممارسات الاستحمام التي يقوم بها، في ليالي المهرجان، شبان «مانثاناريس» وشاباتها بعد إشعال المواقد.

كانت تلك العادة قد استثارت استنكارًا عامًّا من جانب رجال الدين وخطب الواعظين الذين يرون في تلك الممارسات، فضلًا عن كونها فرصة للخطيئة، بقايا مؤكدة من بعض الشعوذات والعادات الوثنية، كإقدام بعض الشابات في تلك الليلة على كسر بيضة في طست مملوء بالماء وانتظار حدوث تأثيرات اعتدالية سحرية تمنح زلال البيض المنتشر في الماء صورةَ من سيكون زوجًا لهن.

لم تقل «آنا أوردونيث» شيئًا، غير أن إيماءتها المتحفظة تشير إلى أنها غير موافقة على حظر المهرجان. أما «لوكريثيا» التي لم يسمح لها أبواها قطُّ بأن تشارك في ذلك العيد، فقد نظرت باستغراب إلى موقف أمها.

سألتها:

ـ ولكن، أليس صحيحًا أن خطايا كثيرة تقترف عند النهر في هذه الليلة، أو أنها توفر على الأقل فرصة لاقترافها؟

ـ أنا لم أنزل إلى هناك قطُّ يا بنتي. وعندما كنتُ طفلة وشابة، كان فتيان قريتي يشعلون موقدًا في أعلى الجبل، وموقدًا آخر في الساحة، ونرقص حوله معًا. وكان هناك من يخرجون للبحث عن أزهار النفل، ومن يستحمون في النهر، ومن يستبدلون بيوتهم كي يتخلصوا من سحر خبيث. وكان يرتكب الخطيئة، بالطبع، من يريد ارتكابها، مثلما يحدث دائمًا. ولكن هذه الأعياد قديمة جدًّا ولا أحب أن تُلغى هكذا، لمجرد الارتياب بما يمكن للبعض أن يرتكبوه من خطايا.

حظر تقليد الاستحمام الليلي شجع كثيرًا المنافسة بين يوحنا المعمدان ويوحنا الإنجيلي التي كانت تقسم بصورة تقليدية راهبات الأديرة المختلفة إلى فريقين متواجهين.

حضرت «لوكريثيا» المعركة الدينية في كنيسة المجدلية. ووسط عبق الأزهار والنباتات الكثيرة التي أحاطت الراهبات بها تمثال «يوحناهن» المفضل، والسجاجيد التي تملأ الكنيسة بالزينات، والشموع المضيئة، ودوي الأرغن المتوتر، وجدت بين الحضور أناسًا غير معهودين أيضًا: كثير من الجنود بملابسهم المزينة بشراشيب تكشف البطانات متعددة الألوان، وبعض النساء المرحات، ممن يعشن حياة قليلة المثالية، متدثرات بعباءات كبيرة وخفيفة، يحاولن إخفاء حقيقتهن بالتقليل من التبرج والزينة على جلودهن.

وإلى جانب أولئك النسوة، كان يُرى هناك أيضًا بعض من يُشتبه بأنهم يمارسون النشل والسرقة، كما لو أن الفرصة مواتية لاختلاس عباءة أو لكسر صندوق صدقات.

تمتمت «آنا أوردونيث» لابنتها، بنبرة ساخطة:

- لقد ألغوا حفلة النهر، لكن بنات الهوى والنشالين صاروا يأتون الآن إلى القداس الأكبر. يا يسوع، كيف هي الأحوال!

لم ترد «لوكريثيا»، لكنها فكرت في أن حظر ذلك المهرجان الذي كانت تسمع الكبار، منذ طفولتها، يتحدثون عنه بخبث غامض، قد جلب لحفل التقوى، في توازن سري، كثيرًا من رواد ذلك المهرجان المحبطين. وبحضور أولئك الورعين غير المألوفين، اكتشفت إشارة غير مواتية أيضًا،

فيها ظلال من النحس، هي أكثر توافقًا مع أحلامها منها مع تلك المدينة الساهرة.

في أواخر يوليو، وصل الخبر بأن «الأرمادا» قد انطلقت باتجاه هدفها النهائي. وأقيمت في كل الكنائس صلوات التضرع، وكثير من القداديس، من أجل نهاية سعيدة للحملة.

كانت تنتقل من فم لفم مقاطع أغنية جاء بها العميان، تحث الجنود الإسبان وتسخر من الهراطقة الإنجليز:

ذهب إلى إنجلترا

ليحرق القرصان «دريك»

ويقتل الملكة

عليه أن يحضر لي

من حربه تلك

لوثريًا

مربوطًا بسلسلة

وخادمة لوثرية

للسيدة جدتي

كانت «لوكريثيا» تفكر في إمكانية أن تلعب المفاجأة، بطريقة ما، لمصلحة الحملة، لكنه أمر لا بد من استبعاده تمامًا. فمنذ وقت لا بأس به، يجري في كل مجالس النميمة والأسواق تداول ورقة طُبع عليها المجموع

العام لسفن تلك «الأرمادا» التي تبحر باتجاه إنجلترا، مع تعداد لمختلف الأساطيل الأساسية والأساطيل الصغيرة التي تتألف منها.

وفي تلك الورقة يُذكر بالتفصيل عدد السفن وأنواعها، سواء أكانت غليونات شراعية، أم سفن قتال، أم أفلاكًا، أم مراكب نقل من نوع «أوركا»، أم سفن خدمة، أم من ذوات الصاريين، أم من سفن التجديف والأشرعة معًا، أم من السفن التجارية الحربية مع حمولتها من العتاد، ومدافعها، والبارود وكرات القذائف التي ستستخدمها في هجومها، وحتى أعداد جنود الحرب والبحر الذين تحملهم.

وحيال تطور الأحداث، كانت «لوكريثيا» تشعر بمزيج من القلق المذعور والفضول المُلح، ففي مناسبات عديدة أملت أحلامها تلك عن أن سفنًا إسبانية ستغرق وسط موت أناس كثيرين، محاصرة بسفن معادية ومصفوعة برياح عاتية غير مواتية.

# ١٢

كان الحر شديدًا في المدينة. وجميع النبلاء ورجال البلاط المهمين ذهبوا إلى أماكن راحتهم الصيفية، وقد مضى على الملك نفسه أكثر من شهرين بعيدًا عن القصر، يستمتع بتلك الغابات والجنائن التي يقال إنها تخلب الألباب.

أما الناس العاديون الذين ليس لهم أملاك في الريف ولا بيوت لها حدائق في المدينة، فكانوا بعد اجتماعهم عند غروب الشمس في جماعات سمر صغيرة يتخللها هز المراوح اليدوية وغرغرة أباريق الفخار التي تنتقل من يد إلى يد، يُخرجون فراشهم إلى الشرفات وإلى الأفنية ليستغلوا برودة الليل الخفيفة.

وكانت «لوكريثيا» التي وضعت فراشها كذلك في الفناء، تظل وقتًا طويلًا تتأمل تلك السماء التي تنتشر فيها نجوم كثيرة نابضة. ربما كانت تلك النجوم، كما يؤكد العارفون بمواضعها واختلاجاتها، تحدد مصير بني البشر وشؤونهم. ومع ذلك، فإن من لا يتعرفون على النجوم ولا يفهمون مغزى مواضعها واتجاهاتها، تظل السماء بالنسبة إليهم كتابًا أبكم مثلما

هي كتب الكلام المكتوبة بالنسبة إلى من لا يعرفون القراءة، إنها كتاب يعلن فيه ألف وميض مختلط سرًّا يجعله صمتها وعدم فهمها مناسبة للغم والكروب أكثر منه للسعادة.

لقد سألت هي نفسها «دون ألونسو» عن تأثير النجوم على حياتها، لكنها عرفت منه فقط أنها ولدت تحت برج الميزان:

ـ حدثني عن فضائل برجي يا «دون ألونسو»، وأخبرني كيف يؤثر على شؤون حياتي.

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، الميزان هو برج توازن. وفي كنفه ينقضي الخريف الذي هو غسق الشتاء. ولا بد أن يحمل إلى روح مواليده فجر ربيع سيولد من دون شك.

ـ لا أفهم ما تقوله يا «دون ألونسو».

ـ يكفي أن تعلمي أن برجك يساعدك في الحفاظ على الاعتدال في شؤون حياتك. وبهذا، وبكونك مسيحية طيبة، لا حاجة بك إلى الشعور بالقلق.

غير أن «لوكريثيا» كانت تلح على معرفة الكواكب التي تتحكم في مصيرها وتفاصيل قدرها. وعندما لم يولِ اللاهوتي اهتمامًا لرغبتها، قالت له إن هناك وسائل أخرى أيضًا ليعرف المرء طالعه، موحية إليه بأنها قادرة على اللجوء إلى ناصحين أسهل منه منالًا. فمذ كانت طفلة تعرف أن الحديث يدور، في حكمة الشارع المتواضعة، عن أمور يمكن لها أيضًا أن تفيد في معرفة المستقبل، من دون أن تكون مرتبطة بحركة الكواكب، كما هو الكتاب المسمى «المفتاح الصغير». فبذلك الكتاب،

كما يقولون، ومن خلال رسوم وصلوات، وجداول ودوائر، ورموز أختام وتعليمات وصفات محددة، يصبح بالإمكان الدخول في معرفة شؤون الحياة اليومية المخبأة تحت غلالة السرية، وحتى تعديل الوجهة غير المتوقعة لما سيأتي.

أبدى «دون ألونسو» عندئذ قلقه، بل غضبه تقريبًا، ووبخ «لوكريثيا» لأول مرة في حياته:

ـ فكري جيدًا فيما تقولينه أيتها الفتاة، فهناك ستجدين أرواحًا خبيثة حقًّا. هذا الكتاب الذي تحدثينني عنه يجب أن يكون كتاب «المفتاح السليماني» المستنكر بشدة، حتى إن أحد البابوات أمر بحرقه قبل أكثر من مائتي سنة، وهو ضمن قائمة الكتب المحظورة.

أدركت «لوكريثيا» أن تلك الطريقة ليست هي الوسيلة الفضلى للحصول من «دون ألونسو» على ما تبتغيه، لأن رجل اللاهوت يمقت كل ما يمكن أن يمت بصلة إلى الشعوذة وأعمال السحر. ومع ذلك، كانت تريد أن تعرف الكواكب التي حكمت طالعها وحددت الملامح الأساسية لشخصيتها بالتقاء وتداخل بعض المنازل بغيرها التي سمعت «دون جيِّن» يتحدث عنها، وإذا كانت لم تسأل هذا الأخير عنها فلأنها لا تريد منح الفارس ذريعة للاقتراب من جسدها لما يسببه لها ذلك الاقتراب من استياء. أما «دون ألونسو» الذي يبدي اهتمامًا بالموضوع عندما يتحدث فيه مع أشخاص آخرين، فلم يشأ الحديث في الأمر معها:

ـ أنتِ يا «لوكريثيا» متنبئة إلهية حقًّا. دعي البشر الفانين العاديين يقلقون لما يمكن أن تكون عليه حياتهم ويطلبون أن تنكشف صورة مستقبلهم في المزولة والأسطرلاب، لأن مستقبلك مقدر ومرسوم،

وهو مرسوم على خير ما يرام. وبدلًا من الاهتمام بالكواكب، عليك أن تهتمي باسمك نفسه، فهو يعني العفيفة والطاهرة، مثلما يعني في الوقت نفسه المحظوظة. وفي اسمك هذا يكمن مفتاح سر شخصيتك ومستقبلك.

رأت «لوكريثيا» في تلك الأيام أحلامًا كثيرة تبعث على الضيق، وقد ظهرت فيها شخصيتان تتعارضان بالتناوب: إحداهما شخصية الملك، والأخرى شخصية «ميجيل دي بيدرولا».

كان الأول يبتعد أكثر فأكثر عن رعيته، عابسًا وأصم، يتأمل الأفق من أعلى أحد أبراج الإسكوريال الذي جُبلت أحجاره واحدًا فواحدًا بدم الفقراء، حسب ما يشكو منه رجال أحلامها في تصريحاتهم. والثاني «ميجيل دي بيدرولا»، متحررًا من سجنه ببشارة حمامة دخلت طائرة من إحدى نوافذ الإسكوريال واستقرت على عرش الملك، مجبرة إياه على منح الإذن بإطلاق سراح الجندي المتنبئ الذي يظهر ممتطيًا حصانًا أبيض بهيئة مهيبة لا تُقاوم.

إلى جانب تلك الأحلام كان هناك أيضًا حدث غريب جاء ليفاقم القلق الذي يرافق «لوكريثيا» كجزء من ضعفها المرضي منذ اعتقلها معاون المطران. عند غروب يوم قائظ من تلك الأيام، وبينما هي في فناء بيتها مع «دون ألونسو» الذي جاء من طليطلة، و«دون جيين دي كاساوس» الذي لم يُفقده تهرب الفتاة حماسته، سقط فجأة القنديل المعلق جيدًا على الجدار. رفعت «لوكريثيا» القنديل، وملأته مجددًا بالزيت ثم أشعلته وعلقته، لكنه ما لبث أن سقط من جديد، ثم سقط مرة ثالثة بعد أن أعادت إصلاحه. وفي هذه المرة الأخيرة، أمسك

«دون ألونسو» القنديل وألقى به بعيدًا بغضب شديد، ثم انصرف مستاءً من دون كلمة وداع.

رجع في اليوم التالي صباحًا كي يدون الرؤى التي رأتها الفتاة في تلك الليلة، لأنه كان يرى أن المدونات الوحيدة الموثوقة هي التي يسجلها بنفسه. وكان كلما جاء إلى العاصمة، يسعى لأن يسجل هو نفسه أحلام «لوكريثيا».

وبكثير من الحذر، أرادت «لوكريثيا» أن تعرف سبب غضبه في العشية. فوجئ «دون ألونسو» بالسؤال، وبعد أن أظهر ما يشير إلى أنه قد نسي الحادث، أبدى في نهاية الأمر غمًّا شديدًا:

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، لا أرغب في الحديث في هذه الأمور، لكنني خشيت أن يكون ذلك القنديل النحس الذي أفلت من الجدار ثلاث مرات متتالية، وانطفأ نوره، علامة شؤم لحريتنا نحن الثلاثة الذين كنا مجتمعين معًا. علينا أن نكثر من التضرع إلى ربنا كي لا يخذلنا ويقصينا عن كنف رحمته.

لم يشأ «دون ألونسو» أن يضيف مزيدًا من التفسيرات، على الرغم من أن نذير الشؤم ذاك قد ذكَّره من دون شك بذكرى خبيثة أخرى. وبإيماءة انزعاج حولت استياءه فجأة إلى غضب، أخبر «لوكريثيا» بأن المدعو «خوان لوبيث دي ثاراتي» الذي أبدى تقربه الشديد منهم، وساهم بأموال في أعمال بناء «السوبينيا» وتموينها، قرر الانفصال عنهم إلى الأبد:

ـ أبدى ندمًا شديدًا، كما لو أنه يشعر به حقًّا، لكنه لم ينسَ أن يطلب مني أن أعيد إليه مساهمته المالية.

ـ أوَلم يقدم مبررات تسوغ هذا التحول؟

زفر «دون ألونسو» قبل أن يجيب:

ـ لقد قال فقط إنه تحدث إلى الأخ «دييجو دي تشافيس»، متلقي اعترافات الملك.

كان «دون ألونسو» يرى في ذلك الارتداد، وفي أشخاص آخرين أقل أهمية، مثل «دومينجو نافارو»، انعكاسًا لمكائد بعض الشخصيات المقربة من الملك، وجميع أعوان متلقي الاعترافات الملكية، ممن يريدون الحفاظ على تسلطهم ويغمضون عيونهم ويصمون آذانهم عن النبوءات بدمار كبير سيطيح من دون شك بمناصبهم وامتيازاتهم:

ـ لقد مرت أزمنة معاكسة على الجديرين بالتقدير حقًّا، بينما علت مقامات هؤلاء الدكاترة التافهين، ممن لا يعرفون إلا التآمر والتجسس. لكن كل شيء سيتبدل مع الكارثة الوشيكة، وإذا ما نجا هذا الراهب من الموت ذبحًا على يد الأتراك، فسوف أرسله إلى مكان يعيش فيه حياة النكرة حقًّا، حياة التعبد والتضحية التي طالما ادعى أنه يتشوق إليها وهو في خدمة الملك.

كان «دون ألونسو» يؤمن إيمانًا مؤكدًا بالشرط التنبئي لرؤى «لوكريثيا»، ويتحدث عما سيحدث بالحماسة البريئة نفسها التي يكرر بها الأطفال بعض ما يُروى لهم من خرافات. وكان ذلك الإيمان الذي فيه شيء من السذاجة يربك «لوكريثيا»، وإن كان وعيها لسعة معارف «دون ألونسو»، الدكتور من جامعة «ألكالا»، والذي كان أستاذًا لمادة «الكتابات المقدسة» في «سلمنكا» ومقومًا لديوان التفتيش، وعالمًا مشهورًا في أمور كثيرة سرية وغامضة، يعيد إليها على الفور ثقتها بحمايته.

لم تقل «لوكريثيا» أي شيء آخر، لكنها أمسكت يد «دون ألونسو» وقبَّلتها. ورفع هو يده الأخرى إلى رأس الآنسة وداعب شعرها:

ـ أعداؤنا أقوياء ومتنفذون يا «لوكريثيا»، وجلالة الملك لم يتقبل بطيب خاطر رفضي تخصيص بعض الاعتمادات له عندما كنت أترأس المجمع الكنسي للعطايا والمنح الرسولية، ولهذا قد يكون سهل الانقياد لمكائدهم. أضيفي إلى ذلك، ومثلما تمكن الشيطان من الوصول إليكِ لإقناعك بأنه عليك عدم إطلاعي على أحلامك، هناك من دون شك من يحوك المؤامرات في البلاط ضدي وضدك، لأن إسكاتنا سيكون ملائمًا لخططهم ولترك إسبانيا من دون حراسة أو حماية. لكننا لن نتخاذل بعون الله.

لم تعد تصل أخبار جديدة عن «الأرمادا»، وركدت الحياة في أيام القيظ الملتهبة التي لم يعد يخرج من سكونها سوى بعض العواصف، وإن كانت الشوارع والأزقة تستعيد صخبها منذ الغروب.

في ذلك الانتظار الصامت، كانت تُسمع أحاديث عن أمور لا تفسير لها، يسارع الراهب «لوقا دي أييندي» ـ المعتاد على تدوين أي حدث غريب يصل إلى مسمعه ـ بنقلها إلى أصدقائه.

وهكذا علموا أنه في حدائق البيت الريفي الذي يملكه الملك قبالة القصر، على الضفة الأخرى للنهر، حيث تفوح روائح الزنبق والورد والخزامى، حسب توالي الفصول، وتوجد في بحيراته أسماكٌ كبيرة ملونة جُلبت في براميل من بلدان بعيدة، نزل تمثال قديم يزين دربًا في الحديقة عن قاعدته، ومشى بضع خطوات وهو يبكي أمام ذهول البستانيين المذعورين.

وعلموا كذلك أن بَرَدًا من شمع قد هطل بغزارة على أراضي الشمال الغربي، وغطى الحقول والجبال بطبقة كثيفة أذابتها الشمس بعد ذلك.

وأثار عجبهم كذلك معرفة أن شيئًا غير مألوف وغير مرئي، ظهر ذات ليلة في كنيسة «سانتا كروث»، ولم يكن بالإمكان تقدير ضخامة حجمه إلا من خلال وقع خطواته في تنقله الفظ، وسحبه المقاعد ومساند الركوع والمقارئ والشمعدانات. وقد أعلن ذلك الكائن الخفي للكاهن الذي كان يحمل الصليب في يده، بأنه آت من عالم آخر. وواصل الكائن غير المرئي تقدمه الصاخب في ممر الكنيسة، وتنبأ عدة مرات بدمار إسبانيا قبل أن يصعد إلى برج الكنيسة، حيث اختفى وسط نور مبهر ضارب إلى الخضرة، خلَّف حروقًا في نير الناقوس. وقد كانت قوته خارقة إلى حد ليِّ مقرعة الناقوس بالسهولة نفسها التي يجعد بها إصبعٌ خصلةً من الشعر.

ومع أخبار أعاجيب الكائنات الخرافية تلك، كان الحر لا يزال يلف، بركود مضنٍ، ذكرى «الأرمادا» التي توغلت في البحر لغزو إنجلترا ومعاقبة الهراطقة فيها.

في الأيام الأولى من شهر أغسطس، أرسل السفير في باريس، «دون بيرماردينو دي ميندوثا»، يُبلغ الإسكوريال بأخبار متفائلة جدًّا. وقد تمكن «دون ألونسو» من الاطلاع على تلك الأخبار لأن السفير هو أخوه، وقد استغل فرصة إرسال البريد كي يبعث له بعض الكتب التي تهمه. غير أن أخبارًا أخرى مختلفة تمامًا وصلت بعد أيام قليلة، ولم يكن فيها ما يدعو إلى التفاؤل. وفي أوائل شهر سبتمبر، بالتوافق مع عواصف جديدة ضربت

المدينة بوابل شديد من البَرد، عُلم بصورة مؤكدة أن الحملة على إنجلترا قد أخفقت.

في تلك الفترة أيضًا، كان مزيل البقع «مارتين دي آيالا»، هو أول من جاء إلى بيت «لوكريثيا» بالخبر. ومثلما حدث في المرة السابقة، عند موت مركيز «سانتا كروث»، وبعد أن تأكدت تمامًا أخبار النكبة الجديدة، اجتمع أناس غير معروفين أمام البيت. وكان الحشد أكبر بكثير، وقد جثا معظم المحتشدين على رُكبهم وأشعلوا شموعًا على الأرض.

راحت «لوكريثيا» تطلب من أمها:

ـ اطلبي منهم أن ينصرفوا يا أماه. فلينصرفوا ولا يتسببوا لي بمزيد من الارتباك.

ـ لا تكوني بلهاء يا صغيرتي. ألا ترين أنهم يعترفون بموهبتك وقدراتك؟ ثم إنهم جميعهم يصلون، والصلاة تسعد الرب دومًا.

وعلى الرغم من إحساس «لوكريثيا» بالخجل، إلا أنها كانت تشعر في أعماق روحها بتأكيد باهر بأن تلك الأحلام التي تطاردها ليلة بعد أخرى، محملة بنبوءات صحيحة.

وفي المدينة، كان ردُّ فعل الجميع في أول الأمر على الأخبار المتوالية، سواء حول النصر أم الإخفاق، هو الصمت الذاهل، من دون أن تتوقف الأمور الروتينية اليومية، كما لو أن النصر الذي تداولته الألسن بالهمس أولًا، أو الهزيمة التي انتشر خبرها بالصراخ، لم يحدثا أصلًا. لكن الحر راح يخف، ومع اعتدال الطقس، بدا كما لو أن المعنويات قد انتعشت أيضًا.

في أواخر شهر سبتمبر، عندما وصل ناجٍ من الغرق حاملًا معه شهادة شخصية عن نكبة أسطول «الأرمادا»، فقد الجميع إحساسهم بعدم المبالاة، ابتداء من السادة والسيدات المحترمين وحتى البغايا والمتسولين، وأبدوا نوعًا من الذهول الجماعي الشامل. وعُرف أنه في اليوم السابع والعشرين من ذلك الشهر بالذات، استقبل الملك في الإسكوريال لجنة مؤلفة من عشرة نواب من مجلس الكورتيس كي يطلعهم على خبر الهزيمة.

تروي «آنا أوردونيث» وسط الدموع وهي تنقل الأخبار التي حملت إلى المدينة مشاعر الحداد والمأساة:

- أكثر من عشرة آلاف رجل لن يعودوا أبدًا إلى بيوتهم، والسفن التي غرقت تزيد كثيرًا عن نصف السفن التي خرجت من إسبانيا.

وكانت «لوكريثيا» تفكر: «أنا حلمت بهذا، أنا حلمت بكل هذا الموت، رأيتُ في الأحلام هذه الكارثة كلها». ولم يكن رعبها حيال هول الفشل ونتائجه الدامية قادرًا على تخفيف الزهو الذي فرَّخ في وعيها، على الرغم من إرادتها، كثمرة للاعتراف الذي أخذت تلقاه بين الناس طبيعة نبوءاتها وأحلامها التي تبدو صائبة.

مع بدايات برودة الجو، بدأ الناجون من الحملة بالوصول إلى العاصمة، وأعطت رواياتهم أبعادًا مرعبة للكارثة. فقد عُرف أن هياج البحر، في أثناء الهزيمة، ساهم في الحصار الذي فرضه الأعداء المتمثلون، من جهة، في المتمردين الهولنديين الذين دفعوا ضد سفن «الأرمادا»، بغدر، زوارق محملة بحطب مشتعل، ومن جهة أخرى في الإنجليز الذين استغلوا تشتت شمل الإسبان واضطرابهم ليشنوا عليهم الهجمات من دون هوادة ولا رحمة.

أدخلت الهزيمة مخاوف كثيرة في النفوس. وقد حذر كاهن مشهور أمام الملأ، بعد ذلك الفشل، من أن أعداء إسبانيا قد تخلصوا من الخوف من الإسبان، وفقد هؤلاء الأخيرون كل السمعة الطيبة التي كانوا يتمتعون بها كرجال محاربين. وعلى الرغم من انتشار إشاعات عن أن الملك قد أمر على الفور ببناء اثنتي عشرة سفينة غليون ضخمة، تحمل أسماء الحواريين الاثني عشر، لتشكل «أرمادا» دفاعية جديدة، إلا أن فكرة خلو السواحل الإسبانية من الحاميات، ووقوع تجارة بلاد الهند (أمريكا) تحت رحمة نهب القراصنة المتواصل، حوَّل تلك المخاوف إلى عادة وبيلة ضمن أحاديث كل من يتهامسون عن ذلك الملك المصمم بتمادٍ على حروبه المدمرة، متناسيًا فقر رعيته المتزايد، ومتسامحًا مع ثراء الوزراء على حساب الحروب النائية والمكلفة.

مع ذلك، وعلى الرغم من إخفاق الحملة على إنجلترا، وما سببته من ذهول في العاصمة، إلا أنها كانت سببًا جديدًا في تعاظم سمعة «لوكريثيا». لكن الأنفاس الدافئة التي جلبها لها تقدير أتباعها لم تتوصل إلى تبديدٍ كامل للحدس الذي بث البرودة في عظامها حاضنة الحميات الحقيقية.

بعد موت «خوان دي تريخويكي» المفاجئ، والذي شاطرته في بعض الأحيان رؤى كارثية متشابهة، جاء خبر اعتقال الأخت «ماريا دي لابيسيتاسيون»، راهبة لشبونة، ومحاكمتها كدجالة، واعتُبرت مذنبة بالتدجيل والهزء، ونُفيت إلى الجانب الآخر من البحر المحيط.

هذا ما أوضحه الراهب «لوقا دي أييندي» بتكشيرة متشككة مع شيء من الغم، كمن يعاني خيبة أمل مفاجئة:

ـ يؤكدون أنها هي نفسها من تعمدت إحداث قروحها، وأن الهالة التي كانت تحيط بها ليست سوى خدعة توصلت إليها باستخدام عدسات ومرايا وأضواء.

ـ فلينجنا يسوع من تربص العدو الشرير.

ردت «لوكريثيا»، مدركة فجأة أن التوقير الذي كان مزيل البقع يمتدح به فضائل الراهبة لم يكن إلا نوعًا من التدنيس الفظ للمقدسات:

ـ آمين يسوع.

في تلك الشهور، كانت «لوكريثيا» لا تزال تشعر بوهن شديد، وتبذل الجهد للقيام بواجباتها الدينية بنوع من العناد. فقد زارت كل الكنائس، واستمعت إلى كثير من القداديس والمواعظ والخطب الدينية، وتضرعت إلى الرب أن ينيرها في ذلك الشك الذي لم تعد تتجرأ على ذكره أمام متلقي اعترافاتها، حيث تشعر من جانب بأنها مدفوعة إلى مواصلة الأحلام، متوصلة من خلال ذلك إلى نيل احترام الكثيرين وتحقيق حياة رفاه في بيتها، وخائفة من جانب آخر أن تلقى مصيرًا مماثلًا لمصير راهبة البرتغال إن هي لم تنسَ تلك الأحلام إلى الأبد.

دفعتها هذه المعضلة إلى الإكثار من استشارة رجال أحلامها الثلاثة، ومع أنها لم تتوصل إلى توضيح الموقف الذي عليها اتخاذه من السبب الرئيسي لقلقها، إلا أنها قررت رفض أن يتولى «مارتين دي آيالا» تدوين أحلامها بدلًا من الراهب «لوقا»، ذلك أن ناصحيها الليليين أخبروها، بوحي من الشيطان، أن الصباغ غير أمين في تدوين تلك الرؤى.

وكما لو أن «آنا أوردونيث» كانت تخمن معضلة ابنتها، فقد دخلت

في إحدى الليالي إلى حجرة «لوكريثيا» عندما كانت هذه على وشك النوم، وبعد أن أخبرتها بكثير من التصنع عن المدى الذي بلغته شهرتها، والصدقة الكبيرة التي أرسلها إليها بعض السادة الدوقات من خلال كاهن كنيسة «سان سيباستيان»، هتفت أنها ترجو أن يُبقي الرب مولانا على تلك الموهبة سنوات طويلة.

ـ ألا تخشين يا أماه أن ينتهي بي الأمر يومًا إلى أحد سجون ديوان التفتيش السرية، مثلما حدث لراهبة لشبونة، أو إلى المحرقة أو ما هو أسوأ من ذلك؟

كانت الحجرة مظلمة، ولم تستطع «لوكريثيا» رؤية وجه أمها، لكنها أحست في أنفاسها جزع لهاث لا يتناسب مع اللمسة الحانية لتلك اليد الممتلئة التي تداعب نحرها وخديها وأذنيها. انحنت «آنا أوردونيث» على الفراش، وقرَّبت رأسها منها:

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، يقولون إن راهبة لشبونة تلك كانت تعمل مع من يريدون ملكًا برتغاليًّا. أما أنت، فلديك بين أصدقائك أناس من أنبل السلالات في إسبانيا.

ـ وكان هناك أناس محترمون جدًّا كذلك بين من يساندون راهبة لشبونة. فالراهب «لويس دي جرانادا»، وهو قديس، كان يحميها ويؤمن بطيب نية بقروحها ومعجزاتها.

ـ «لوكريثيا»، يا بنتي، أنت لا قروح فيكِ ولا تجترحين معجزات. ورجال الدين الصالحون هؤلاء الذين يدونون أحلامكِ ويمنحونها معانيها بقدراتهم، هم من يرونها أفضل. لا تخافي شيئًا، فأنت بريئة

تمامًا ولا تتحملين وزرًا في هذا الشأن. فلنستغل موهبتك، فنحن من لا نملك أي ثروة مادية لا بد لنا من استثمار مواهبنا مثلما يأمرنا الإنجيل المقدس. وربما يؤدي تحسن مستوى حياتنا إلى زيجات لأخواتك أفضل مما نلته أنا.

لم تقل «لوكريثيا» شيئًا. ولا بد أن «آنا أوردونيث» قد أدركت عندئذ أنها لم تكن لطيفة في كلامها، فعانقت ابنتها وقبَّلتها عدة مرات:

ـ وأنتِ أيضًا ستجدين زوجًا طيبًا يا «لوكريثيا»، يا بنتي، فهناك كثيرون ممن يفقدون عقولهم ليكونوا رعاة هذين النهدين الصغيرين وبستانيِّي هذه الحديقة.

ولكن مع ازدياد برودة الجو جاء الخبر بأن القسوة ضد «ميجيل دي بيدرولا» قد تعاظمت كنتيجة غريبة لتلك الكارثة التي أراد الجندي المتنبئ مرات عديدة أن يحذر الملك شخصيًّا منها.

علم «ألونسو دي ميندوثا» وهو في طليطلة بالحكم، وذهب إلى العاصمة ليطلع أصدقاءه عليه. وكان في الحكم اتهام للجندي المتنبئ بأنه مثير للفتن في الدولة ومستغل للبلاغ السماوي والإلهي، ويصفه بالمتعجرف، والمشاغب، والمُشهر، وبأنه مغوٍ للنساء، ومخادع، كي يؤكد نفسه نبيًّا للرب ويصدق أنه نبي حقيقي.

وكان الجندي المتنبئ قد احتُجز، كما يبدو، بحكم مؤبد في قلعة «جوادامور» التي يملكها كونت «فوينساليدا» بالقرب من طليطلة. وقد أُعلن أنه عليه أن يبقى محرومًا طوال الوقت من قراءة الإنجيل وكل الكتب المقدسة الأخرى. وألا يوضع تحت تصرفه ورق أو حبر أو أي

شيء يمكن أن يفيده في الكتابة. وقد فُرضت عليه العزلة بصرامة بالغة، وطُلب من الحراس عدم التوقف عن مراقبته وحراسته بصورة مباشرة حتى وهو نائم.

جلبت الأخبار المحزنة عن تلك العقوبات قلقًا متجددًا لـ«لوكريثيا»، لأنها على الرغم من قناعة «دون ألونسو» بالتحقق المؤكد والوشيك لرؤاها، وتأكد «آنا أوردونيث» من عدم مسؤولية الحالمة، إلا أن الفتاة كانت تحدس أن ما يحدث للجندي المتنبئ هو إشعار بشيء سيحدث لها هي نفسها في أحد الأيام.

ومع ذلك، كان «ميجيل دي بيدرولا» لا يزال يظهر في أحيان كثيرة في أحلامها، كتجسيد لصلابة لا يمكن لأحد أن يثنيها. ممتطيًا صهوة حصان أبيض، يغطي صدره وظهره رداء رهبان من قماش أسود، يتلألأ عليه بياض الصليب، وكان «ميجيل» يهاجم بغضب الأعداء الذين يحاصرون طليطلة ويدفعهم إلى التراجع بقوة سيفه.

يقول لـ«لوكريثيا» زائروها الليليون الثلاثة:

- اسمعي. اسمعي ولا تخشي شيئًا، فحتى لو جرى غزو إسبانيا وتدميرها، واستمتعت الغادرة «إليزابيث» مع القرصان «دريك» بالثروات المنهوبة، وعوقب الملك بما يستحقه على حكمه الخبيث، وحتى لو حاصر الكفار الكرسي الرسولي واضطروه إلى الانتقال إلى طليطلة، فإن «ميجيل»، انطلاقًا من «السوبينيا»، سيخرج على رأس حفنة من الإسبان غير الفاسدين، على صدرهم رداء الصليب المستعاد، ويسترد إسبانيا والعالم المسيحي بأسره. وسيتم صد الأتراك والمسلمين، وكذلك الهراطقة اللوثريين الملعونين.

وعندما جاب، في الأيام الأخيرة من السنة، تنينٌ غاضب ذو سبعة رؤوس شوارع أحلام «لوكريثيا» الدامية، أعلن «دون ألونسو»، بعد كثير من الاجتهاد والبحث في كتبه، أن رؤى الآنسة الأخيرة يجب أن تُقرأ على ضوء بعض فصول سفر رؤيا القديس يوحنا، حيث يصارع تنينٌ قرمزي، له أيضًا سبعة رؤوس وعشرة قرون، ضد ميخائيل وملائكته في معركة كبيرة.

انفعل «دون ألونسو» وهو يتلو:

ـ لكن التنين طرح الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يُضِل العالم كله، وانتصر عليه ميخائيل وملائكته بدم الخروف!

قبلت «لوكريثيا» أخيرًا، من دون تردد، أن تكون أداة نقل رسائل الرجال الثلاثة، وأدركت أنه عليها تولي مهمتها كقدر في يد الرب وحده، سواء تحكمت أم لم تتحكم فيه النجوم التي تصدرت السماء في يوم مولدها.

# ١٣

مخاوف «لوكريثيا»، وهواجسها متزايدة القتامة من الرعب الذي تثيره فيها عيون ديوان التفتيش المترصدة وسجونه السرية، وتأكدها من عقابها المحتم، بدت جميعها غير مبررة. فقد حلَّت السنة الجديدة، ولم يعد معاون المطران أو أي سلطة كنسية أخرى أو الملك إلى الاهتمام بأحلامها، وانتهى الأمر بتلك الهدنة إلى التحول إلى طمأنينة اعتيادية تبدو نهائية وحاسمة، كانت أفضل علاج لآلامها.

أضف إلى ذلك أن خبر تَنَبُّؤ أحلامها بموت مركيز «سانتا كروث» وكارثة «الأرمادا» كان قد انتشر في بعض أوساط النبلاء.

وهكذا فإن دوقة «فيريا»، الليدي «جين دورمير»، العضو في الأخوية الفرنسيسكانية منذ بدء ترملها، ومن كانت حامية وصديقة للجندي المتنبئ، بدأت تلح على إحضار «لوكريثيا» إلى قصرها الذي يرتاده كثير من الناس المهمين. وهناك كان يُحتفى بالفتاة في مسامرات طويلة يطلبون منها فيها أن تروي لهم بعض رؤاها الدموية. وكانت تقام كذلك في تلك السهرات صلوات، وتُقرأ كتب التقوى والورع، وتُسمع مواعظ مألوفة يقدمها بعض رجال اللاهوت.

ومما كان يثير عجب «لوكريثيا»، في بعض تلك اللقاءات، التلقائية التي يتداول بها المجتمعون، إلى جانب الصلوات والشؤون الدينية، بعض الأمور التي تبدو قريبة جدًّا من ميادين الأرواح الخبيثة. فمثلما كان الحاضرون يستمعون في أحد الأيام بورع إلى كلمات تقية يلقيها راهب «تياتيني» محترم، تجدهم يستمعون في يوم آخر إلى رواية أحداث وقصص لا تمت بأي صلة إلى الإيمان المسيحي.

كان الحضور مولعين بنقل الصيغ والوصفات السحرية التي يمكن من خلالها، حسب قولهم، تحقيق أشياء كثيرة، منها الوصول إلى محبة المحبوب، واستعادة الزوج الخؤون، واتقاء السحر والإصابة بالعين، واختفاء المرء وتحوله إلى غير مرئي، ونيل حصيلة وفيرة من الصيد البري والمائي، والسير مائة فرسخ في ليلة واحدة، والحيلولة من دون دخول الجرذان إلى البيت، وطرد الذئاب بعيدًا في البرية، وحتى استعادة غشاء بكارة فتاة متهورة فقدته بحماقتها.

وكانت الوصفات شديدة التعقيد، يتطلب إعدادها أمورًا غريبة، مثل قتل هرٍّ أسود، وقطع رأسه، ثم دفن الرأس بعد ملئه بحبات فول في يوم معين وساعة محددة، وانتظار انتباش البذور. وتستخدم بعض الوصفات بقايا قبورية، مثل لحية أو شعر أو أسنان المشنوقين.

وكان الحديث يدور كذلك عن لبخات وأشربة سحرية للحب تدخل في تركيبها مواد مستنكرة أو مقززة، أو عن تعويذات وترتيلات هدفها استذكار النجوم أو القمر أو أنواع محددة من الشجر، تبدو أحق بملاحقة الكنيسة من أحلامها التي استثارت حفيظة معاون المطران.

وكان بين الرواد سيدة تتباهى بأنها ترسم دائرة متعددة الفوائد تسميها دائرة الحسم:

ـ عندما أُبرم صفقة مع أحد التجار، ولا تروقني البضاعة بعد أن أدفع له ثمنها، يمكنني أن أسترد ما دفعته من نقود بالدخول ضمن الدائرة والتلفظ بترتيلة معينة. لكنني لم أفعل ذلك قطُّ، لأنه سيكون نوعًا من ممارسة السحر، وهو أمر خبيث تدينه كنيستنا الأم المقدسة. كما يمكن استخدام الدائرة في استرداد أشياء مفقودة، وحتى في استرداد الذكرى الحية للملذات التي استمتعنا بها في زمن مضى.

كانت سيدة، على الرغم من ملابسها الأنيقة، مع وفرة من الدمقس في أقمشتها وتزينها بكثير من المجوهرات، وإكثارها من أصباغ الزينة كأنها لوحة رسم، لا يمكنها إخفاء تجاعيد وجهها ولا فمها الخالي من الأسنان. وعلى الرغم من تأكيدها بأنها لا تستخدم معارفها مطلقًا، إلا أن «لوكريثيا» كانت تفكر في أنه يمكن لها ـ لولا مهدها النبيل والثراء الذي يميزها عن الناس العاديين ـ أن تكون واحدة أخرى من أولئك العجائز الساحرات اللواتي يعرضهن الجلادون أحيانًا في الشوارع وهن معممات بالريش.

علقت سيدة أخرى:

ـ أنا أعرف رجلًا، لأنه وُلد سابع أبناء أسرته، يتحول إلى ذئب في ليلة «سان خوان» ويجوب الغابات والحقول بهياج الضواري، قاتلًا المواشي ومهاجمًا البشر.

أكدت ثالثة:

ـ أمي الطيبة عرفت واحدًا من أحبار الكنيسة كان يحتفظ بشيطان أليف في دورق معوج، وبقدرة ذلك الشيطان توصل إلى نيل قلنسوة كردينال، وجمع ثروات كبيرة جدًّا.

سألت «لوكريثيا» مستهجنة نوعية بطل القصة:

ـ ولكن، أليست هذه خطيئة بالغة الخطورة؟

نظرت السيدة إلى الآنسة نظرة تنازل متفضل:

ـ لقد ندم ذلك الحبر قبل موته، وسلَّم الدورق إلى البابا الذي خبأه في إناء من الفضة مملوء بماء مبارك لإبطال قدرات الشيطان، لأن الشيطان خالد بطبيعته ولا يمكن القضاء عليه.

قال سيد عجوز ذو صوت متقطع، من دون أن يستثير أية تعليقات من الحاضرين:

ـ يمكن للبابا نفسه، إذا أراد، أن يستغل قدرات ذلك الدورق.

ولأن الحديث يدور عن الشياطين، فقد قال السيد العجوز إنه يعرف رئيسة دير كان يزورها كائن غير مرئي، ويجبرها على الاتصال الجسدي. وهناك آخرون يقولون إن لديهم أخبارًا مؤكدة عن شياطين صغار وضئيلي الشأن، يمكن التحكم بهم، بفضل تعويذة، وجعلهم يحملون الماء والحطب إلى البيت كل يوم، أو يدفئون بأنفاسهم فراش أسيادهم قبل اندساسهم للنوم فيها.

تلك القصص عن العفاريت الخدم استثارت شكوك البعض المعلنة. ومع ذلك، كان الجميع من دون استثناء يؤمنون بخطط الكواكب التي تحكم الطالع منذ الولادة، وبمنافع بعض الطلاسم وفضائلها.

وبما أن أولئك الأشخاص متعلمون ويتحدرون من سلالات نبيلة، فقد انتهت «لوكريثيا» إلى الاستماع إلى أحاديث الشعوذة من دون أية وساوس، وبالطمأنينة نفسها التي تستمع بها إلى مواعظ الحض على الورع التي يقدمها رجل الدين «بيدرو دي ريفادينيرا». وكانت تشعر فوق ذلك بأنها قريبة جدًّا من الليدي «جين دورمير» بسبب التقدير الذي تبديه تلك السيدة المرتدية طيلة الوقت مسوح أتباع القديسة «كلارا»، نحو الجندي المتنبئ، وتقول إن السبب في سجنه هو مشاعر حسد خبيثة من جانب الملك.

تقول لها الليدي «جين» بلكنتها الغريبة:

ـ أيتها الصغيرة «لوكريثيا»، لا شك في أن مغارة أحلامك تلك هي المغارة نفسها التي تنبأ بها «بيدرولا بياومونت». فبعد أن لم يعد بيننا الآن، أتاح الرب لك أن تكوني أنت من تواصلي تنويرنا. أيتها المباركة.

لم يكن المشاركون في تلك الاجتماعات يوارون تعاطفهم مع «أنطونيو بيريث» المشهور و«دونيا آنا دي ميندوثا»، الأميرة أرملة «إبولي»، التي يبقيها الملك سجينة في برج قصره في «باسترانا»، من دون أي مرافقة أخرى سوى ابنتها. ولم يكن مستغربًا سماع من يقول إن الضغوط على أمين سر الملك السابق والأميرة لم تكن تستند إلى مسوغات عادلة، وإنما إلى نزوات تسلطية، صادرة عن قلب جاحد وحسود.

تلك الضغينة القاتمة ضد الملك ووزرائه، والتلميح بأن الحكومة ليست في أيدي أفضل الناس، كان يضاف إليها الذعر الآخذ في التنامي

من أخبار الأسطول الذي تهيئه الملكة «إليزابيث» الإنجليزية، كما يبدو، لمهاجمة السواحل الإسبانية.

ومن أجل إعداد الدفاع عن البحر واستعادة القدرة الهجومية، طلب الملك من مجلس الكورتيس الموافقة على تقديم ثمانية ملايين دوقية. وبدأ الإعداد لإجراء إحصاء جديد، يكون تسجيل الرعايا جميعهم أساسًا موثوقًا لتحصيل الضرائب، على الرغم من أنه كان معروفًا كذلك أن النواب ليسوا موافقين جميعهم على مطالب الملك، وأن بعضهم، مثل نائب ليون، يرون أنه يتوجب على كورتيس قشتالة وحده تقديم نصف المبلغ المطلوب، كي يخصص لإصلاح الأضرار وتنظيم «أرمادا» قادرة على حماية الممالك وحراسة السفن التي تقوم بالرحلة من بلاد الهند وإليها. أما بالنسبة إلى الأهداف الحربية الأخرى، فيتوجب على الملك أن يبحث عمن يساعده ويخدمه في الممالك الإسبانية والأجنبية المرتبطة بتاجه، من دون أن يحمِّل دومًا رعاياه المنهوكين أنفسهم ذلك الاستنزاف القاسي.

وتأكيدًا للمخاوف من الهجوم الخارجي، وصل في شهر أبريل الخبر بأن الإنجليز قد نهبوا «لاكورونيا»، ثم عُرف فيما بعد أنهم على وشك الدخول إلى لشبونة.

كان زمن توبة وتكفير ومواكب طويلة لرجال يجلدون بالسياط ظهورهم الدامية من دون هوادة. ومواكب نساء وأطفال يمشون حفاة في الوحل، وسط ضوء الشموع المتذبذب، وتأرجح التماثيل المقدسة التي يحملها تائبون آخرون على أكتافهم، وأنين الأبواق الأجش ودوي الطبول العميق،

تربط الشوارع الواقعية بأمكنة الأحلام، حيث تجد «لوكريثيا» في كل ليلة صورة مطابقة لتلك المواكب.

كانت قوانين الحلم تمنح في رؤاها، لما كان في اليقظة مجرد أشباح أجساد، صورةً واضحة لموكب موازٍ مخيف، تحتفل فيه الشياطين بموت سيدنا المسيح.

وقد راحت هيئة الملك، في أحلام «لوكريثيا»، تكتسب صورة آخذة بالتردي، صورة عجوز مقعد يكاد لا يستطيع التحرك، بيدين ترتعشان بصورة دائمة، وعينين متقافزتين يملؤهما عمص ودموع سميكة كأنها القيح، وأنف ينز خيوطًا طويلة من المخاط، وتسيل من فمه تلك الريالة البطيئة والثابتة كما في البلهاء، بينما الوزراء والأعيان النهابون يملؤون صناديقهم، وراء ظهره، بالمجوهرات والنقود الذهبية.

ولم تكن «لوكريثيا»، بحذر برز لديها عندما وعت حقيقة مهمتها التنبئية، تروي أمام الملأ أي شيء عن تلك الصور للملك والمتنفذين المحيطين به، وتقتصر على نقلها لمن يدون أحلامها، وهو لا يزال آنذاك الراهب «لوقا دي أييندي». ومع ذلك، بدأت الفتاة تتلقى، في بيت الليدي «جين دورمير»، أسئلةً كثيرة حول ذلك الأمر الذي أيقظ نهم الفضول بين جماعة الرواد، فأدركت «لوكريثيا» أن الراهب «لوقا» قد عاد ثانية لإشاعة رؤاها، وضايقها ذلك كثيرًا.

أعربت الفتاة للراهب عن استيائها، غير أنه لم يعرها اهتمامًا. فقد كان واثقًا من أن أحلامها صارت تلقى قبول من لهم بعض النفوذ على أنها صادرة عن روح خيِّرة، وأنه ليس هناك خطر في نقلها وتداولها:

ـ سيكون لنا خصوم على الدوام، لأن البشر في وادي الدموع هذا ينتظمون في زمر وأحزاب متعارضة، حتى ضمن الأسرة نفسها أحيانًا. لكن المهم هو أن يكون حماتنا رفيعي الشأن وأقوياء. ويجب ألا تخامرنا أية شكوك في هذا الشأن، على الرغم من أن صديقنا الأهم يتعرض الآن لبعض المكائد القاسية.

وكي يؤكد على ذلك القبول، جاء الراهب بعد بضعة أيام إلى بيت الفتاة عندما كان الجميع نائمين، لينقل إليها، من القاصد الرسولي، أن البابا نفسه، ولدى علمه بقدرات «لوكريثيا» توجه إليه كي ينقل إليها بعض الأسئلة:

ـ أيا «لوكريثيا»، قداسة البابا «سيستو الخامس» يريد أن يعرف منك إذا ما كانت آمنة بعض النقود في المكان الذي خبأها فيه.

ـ وما الذي يمكنني عمله أنا؟

ـ عليك أن تسألي رجال رؤاك. وأنا واثق من أنهم سيخبرونك الحقيقة، لأن الأمر يتعلق بالبابا.

في تلك الليلة بالذات، دخل رجل الجلود إلى حلم «لوكريثيا»، وحين سألته الفتاة عن طلب القاصد الرسولي، بدا شديد الصرامة والتحفظ. وحيال إلحاحها، انتهى رجل الجلود إلى القول بجفاء إنه لا يهتم بجشع أحد، حتى لو كان المعنيُّ هو حبر روما الأعظم نفسه.

وعندما نقلت «لوكريثيا» الرسالة إلى الراهب «لوقا»، أبدى استياء شديدًا:

ـ لقد أخبرتك من قبل بأن حماية الأصدقاء وحدها هي القادرة على إحباط مكائد من لا يحبوننا. وهذه الردود السلبية ليست الطريق الأمثل لنيل عطف حُماتنا.

جاء الصيف، وكانت «لوكريثيا» قد تعافت من أحزانها الطويلة، وتستمتع سعيدة بالرحلات القصيرة التي تتيحها لها من جديد عربة «دون ألونسو». وكانت شهرتها قد اتسعت كثيرًا، والأصدقاء المهمون الذين يحيطون بها يمنحون معنوياتها مزيدًا من الصلابة.

في الأيام الأولى من شهر أغسطس، عندما كانت وطأة الحر تشتد، وتستعيد الشوارع الصمت الذي كانت تقطعه بصورة متواصلة، على امتداد العام، جلبة العربات وأصوات المنادين والباعة، عُلم أن أحد رهبان طائفة الدومينيكانيين قد قتل ملك فرنسا، وأن عاهل إسبانيا يتمتع بإمكانية تتويجه ملكًا على تلك البلاد، على الرغم من وجود منافس شرس يعارض ذلك هو «إنريكي دي نافارًّا»، المشهور بلقب «باندوما»، والذي يتطلع إلى تكليل رأسه بالتاج الفرنسي.

صارت أحلام «لوكريثيا» طويلة جدًّا، وأخذت أحداثها المفاجئة تتعقد خلال ليالٍ عديدة متتالية. ويتنبأ فيها الرجل الذي يرتدي الجلود والرجلان الآخران، الصياد العجوز حامل الشباك، ومن يقتاد أسدًا مربوطًا إلى خصره، بأن النكبات والكروب وضياع إسبانيا تقترب أكثر فأكثر.

سافرت «لوكريثيا» في تلك الأثناء كثيرًا في أحلامها، ينقلها بصورة سحرية الرجل الذي كان محاورها المعهود. رأت على السجاجيد المعلقة في قلعة فرنسية الكلفينيين المغتبطين يجهزون بنادقهم. وفي إنجلترا

رأت الملكة وهي تهيئ الحجرات الآمنة حيث ستخبئ ثروات إسبانيا التي ستُنهب. وفي تركيا رأت «كبير الترك» يقدم شعار الهلال إلى عدد كبير من القادة، بينما تصطف في الميناء مئات السفن وفيها يشحذ الغزاة سيوفهم المعقوفة.

وكان «ميجيل»، الجندي المتنبئ يظهر في الأحلام أيضًا. وفي بعض الأحيان يكون «ميجيل» هو «الراعي الصالح» الذي يسترد قطيعًا يقوده الملك إلى الضياع. وفي أحلام أخرى ينادي به الرجال الثلاثة على أنه داود الجديد الذي سينتصر على «جلعاد» الترك واللوثريين. لكن «لوكريثيا» تراه بصورة خاصة في هيئة القائد على رأس جيش من المحاربين، تتلألأ على صدورهم السترات السوداء المزينة بصلبان بيضاء.

في واحدة من تلك المناسبات، توجه الصياد الذي يقتاد أسدًا مربوطًا إلى خاصرته إلى «لوكريثيا» ليكلمها بكثير من التفخيم:

ـ «لوكريثيا»، تذكري جيدًا أن هذا الصليب الأبيض مع اسم يسوع في المنتصف ومريم في جانب، هو الرمز المؤكد لحماة إسبانيا.

حمل خريف تلك السنة مستجدات كثيرة. فـ«دون جيِّن دي كاساوس» الذي ظل غائبًا طوال الصيف، إذ كان يفكر كما يبدو في ذلك الجيش من الصليبيين الذي راح يظهر بتواتر أكبر في رؤى الآنسة، وخطرت له فكرة تنظيم جمعية أو أخوية دينية تجمع كل من يؤمنون بتلك الرؤى:

ـ لقد صرنا كثيرين نحن الذين نرى أن نبوءات هذه الآنسة حقيقية، ولديَّ اعتقاد بأن جيش الصلبان البيضاء الذي يظهر في بعض الأحلام ليس إلا جمعية أخوية، تجمع شمل حماة إيماننا المقدس.

نهض «دون ألونسو» الذي كان حاضرًا، وأيد بحماس فكرة «دون جييَّن»:

- إنك على صواب! هذه الأحلام، وكلمات رجل الأسد، تشير لنا من دون شك إلى نموذج علينا أن نحتذي به!

أضاف «دون جييَّن»:

- علينا أن ننظم أخوية المحاربين المقدسة التي تراها آنستنا متحدة في الصراع ضد الغازي. لا بد لهذه الرؤى من أن تقود خطانا، وعلينا أن نؤسس أخوية دينية. أنا سأكتب فورًا الأهداف التي ستقوم عليها هذه الأخوية وواجبات أعضائها.

في أواسط شهر سبتمبر، كان «دون جييَّن» قد صاغ بنود نظام الجمعية التي ستعرف باسم أخوية الإصلاح الجديد، ويتوجب على أعضائها الالتزام، بين أمور أخرى، بالدفاع عن ممالك إسبانيا في مواجهة الهراطقة والكفار. وخدمة الملك ونجدته بالقلب والعمل. وبذل الجهد لاجتثاث أي طائفة أو هرطقة. والسفر إلى القبر المقدس إذا ما جرت الدعوة إلى حرب صليبية جديدة لتحرير أورشليم. وأن يكون الأعضاء محسنين وأتقياء وأصدقاء للفقراء. وأن يدافعوا عن الحقيقة والعدالة.

ومع أن الجمعية ترمي، أساسًا، إلى حشد محاربين سيتصدون بالسلاح لغزوات الهراطقة من الشمال والمسلمين من الجنوب، إلا أن الفصل الأخير من نظامها منح النساء إمكانية الانضمام لعضويتها، وسمح بتلقيهن شعارها المسمى صليب الإصلاح الجديد المقدس. وهناك في النظام المذكور إشارة إلى الآنسات والمتزوجات على السواء، ويوصيهن جميعًا

بأن يستعضن بالدعاء والصلاة عما لا يستطعنه بالذراع، من أجل تحرير ممالك إسبانيا من الديانات الزائفة، والطوائف والأعداء، وكذلك من الأوبئة والأخطار الأخرى.

ومن جهته، رسم «دون ألونسو» كيف يجب أن تكون الكتفية، فتبين أنها مؤلفة من قطعتين مستطيلتين من قماش التفتا الأسود، يُخاط عليها خطًّا الصليب، وعلى خط منهما اسم يسوع وعلى الآخر اسم مريم. يغطي صليبٌ الصدر، ويغطي الظهر صليبٌ آخر. وأعرب «دون جييَّن» عن نيته في حمل الكتفية إلى روما كي يباركها البابا، كشعار لفرقة دينية مستقبلية. وسرعان ما انضم إلى تلك النقابة المسيحية، وهي التسمية التي يطلقها «دون ألونسو» على الأخوية، كثير من الإخوة والأخوات، وتعاطف آخرون معها من دون أن ينضموا إلى عضويتها، بحيث صار كثير من أصدقاء «دون ألونسو» والراهب «لوقا» ومعظم المواظبين على حضور مجالس الدوقة الأرملة يرتدون بعد زمن قصير الكتفية تحت ملابسهم.

جرى اعتقال ذلك الصباغ المدعو «مارتين دي آيالا» بأمر من ديوان محاكم التفتيش. وقد عزا «دون ألونسو» والراهب «لوقا» الاعتقال إلى إحدى المذكرات التي أرسلها الصباغ إلى الملك، وفيها يتهمه مباشرة بالحكم من دون استقامة ولا عدالة، وإلحاق الأذى برعيته، ويطالبه بالتوبة والتكفير العلنيين لتهدئة غضب الفادي من شخصه.

وعلى الرغم من جلاء المذكرة، إلا أن «لوكريثيا» اعتقدت أن ذلك الاعتقال هو إنذار بأن أعداءها ما زالوا يترصدون. وفي تلك الليلة بالذات زارها الصياد ذو الأسد في الحلم، وأمرها بأن تتلف بعض الأوراق التي

تحتفظ بها، وفيها أحلام ورؤى عن الصباغ نفسه، كتأكيد على أن عليها التحسب والاستعداد لمواجهة تهديدات جديدة.

عندما علم «دون ألونسو» بأمر ذلك الحلم، لم يشأ تفسيره على أنه تحذير لها من خطر آت.

قال:

- إذا كانت محاكم التفتيش ستسجن كل من يقولون إنهم يرون رؤى، فلن يكون هناك متسع في سجونها السرية لحبسهم. فهناك المدعو الدكتور «بيسيًّا» الذي يدعي النبوة، وقد استقبله الملك. وهناك المجنون «خوان دي ديوس» الذي أهديتُ إليه جحشًا، والذي يطلب مني أن أُلبسه جلد ذئب. إشارات الأزمنة تأتي بكثير من الرؤى، رؤى أرواح خيِّرة وشريرة، وحتى من أفواه الأطفال تخرج نبوءات مشؤومة عن الحكم الذي نعاني منه، مثل تلك الطفلة التي يحفظها في بيته «دون هيرناندو دي توليدو»، رئيس طائفة «سان خوان دي أورشليم».

لم يحمل اعتقال «مارتين دي آيالا» أي قلق أو مخاوف إلى «دون ألونسو»، لا سيما أنه يزدري ذلك الرجل الوضيع، ويرى أنه أبله، يحاول، وهو غير المتعلم تقريبًا وذو المهنة والأصل الاجتماعي الوضيعين، أن يُظهر ما يجهله عن طريق خطابة رنانة ومضحكة. وكان تأسيس الأخوية، من جهة أخرى، قد أيقظ فيه اليقين بأن رؤى «لوكريثيا» سوف تتحقق عما قريب. أمر باستئناف العمل في مغارة «السوبينيا». ولقناعته بأنه قد اكتشف المعنى الغامض لرسالة نقلها رجل الجلود إلى الآنسة، فكر في تكليف رسام إيطالي من رسامي البلاط بالبدء في وضع رسوم توضيحية

للأحلام، وخصوصًا تلك التي تستحضر مشاهد من سفر رؤيا يوحنا وغيره من الأسفار المقدسة.

ـ نبوءاتك ستتحقق قريبًا جدًّا، ومن الضروري تهيئة زينة مسبقة لـ«سوبينيا». بتلك اللوحات سوف تزين المصلى، وكذلك حجرات قصر زعيم إسبانيا الذي سيخلف الملك «فيليبه».

## ١٤

وكان أن بدأت «لوكريثيا»، في تلك الأثناء، برؤية رجل شاب في أحلامها، يتأملها من دون أن يتكلم، منزويًا عن المركز الذي يحتله الشيء الرئيسي في رؤاها.

وعندما تكرر ظهور تلك الرؤيا البكماء، حاول الراهب «لوقا» تفسير مغزى الحلم، فطلب من «لوكريثيا» أن تصف له الرجل بأدق طريقة ممكنة.

ـ إنه متأنق، له بشرة بيضاء وشعر كستنائي. عيناه قاتمتان وشديدتا البريق. يرتدي جوربين طويلين أزرقين، وسروالًا ضيقًا يصل حتى الركبة لونه أزرق أيضًا، وجبة قاتمة. يعلق سيفًا على خصره، ويحمل كتابًا في إحدى يديه والقبعة في اليد الأخرى. وتتدلى على صدره سلسلة ميدالية فضية.

ـ ميدالية؟ أي ميدالية؟

ـ بدا لي أنها تحمل رسم القديس «بينيتو» مع صليبه.

ـ وهل له لحية؟

ـ لحية قصيرة، أكثر شقرة من شعره.

بعد سماعه وصفها، نظر الراهب إلى «لوكريثيا» بذهول:

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، تدهشني الصورة التي تصفينها، لأنني أرى فيها ملامح شاب مثقف وحسن الهيئة، هو سكرتير السيد النبيل «دون أنطونيو دي توليدو»، كبير صيادي جلالته، وحافظ مكتبته. ألم تريه ولو مرة في ديري؟

أكدت «لوكريثيا» أنها لم تره قطُّ.

وواصل الراهب الكلام:

ـ أنا تعرفت عليه في مطلع السنة، عندما قدم لي كتاب أشعار نظمه عمٌّ له، كي أجيزه. الشاب من مدينة «ثامورا»، وقد درس اللاتينية على يد مجاز هو صديق قديم لي.

ظهر الشاب مجددًا في أحلام «لوكريثيا». وكان صامتًا على الدوام، لكن في عينيه تعبيرًا بليغًا لم يخامر «لوكريثيا» أي شك في أنه يرغب في التحدث إليها، غير أن سببًا ما لا تستطيع تصوره، يمنعه من ذلك.

قرر أخيرًا الراهب:

ـ انظري يا «لوكريثيا»، هذا الحلم هو إشارة لا نستطيع فهمها. وأظن أنه لن يكون أمرًا سيئًا أن أجيء بهذا الشاب إلى بيتك، ومن يدري إذا ما تمكنا عندئذ من اكتشاف ما يخبئه الحلم.

وافقت «لوكريثيا» على الفكرة، وانتظرت مجيء الشاب بفضول. وذات صباح، جاء به الراهب «لوقا» معه.

قال الراهب «لوقا دي أييندي»:

ـ «لوكريثيا»، هذا هو «دييجو دي فيكتوريس دي تيخيدا». أخبريني إذا ما كان هو نفسه الرجل الذي يظهر في أحلامك.

تمكنت «لوكريثيا» من الحفاظ على رباطة الجأش اللائقة بوضعها كمتنبئة، ونظرت إلى الشاب بجدية. بينما كان الراهب يلح:

ـ يمكنك مقارنة ملامحه وهيئته بمظهر ذاك الذي بات يظهر في أحلامك الأخيرة.

لكن «لوكريثيا» أكدت أنها لا تستطيع معرفة إذا ما كان ذلك الشاب هو نفسه الذي رأته في أحلامها، لأن قوام الهيئة الواقعية تجعل مقارنتها مع صورة الحلم مستحيلة.

كان شابًّا لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد. له تقاطيع لطيفة، وشعر متموج، وعينان واسعتان، ويدان دقيقتان، وصوت له جرس جميل جدًّا. حيا «لوكريثيا» وأمها باحترام، وخلال الحديث الذي دار بعد ذلك، أبدى اهتمامًا وقورًا برؤى الآنسة، ولم يشر إلى ظهور شبحه في أحلام «لوكريثيا»، وقد أظهر بذلك رصانة قدَّرتها الفتاة.

ربما كان أول رجل في مثل تلك السن، ومن مكانة اجتماعية غير وضيعة أو خادم، يتبادل الحديث مع «لوكريثيا» في طمأنينة زيارة هادئة، وقد أحست الفتاة نحوه على الفور بتيار من التعاطف، رأت انعكاسًا له في أمها بعد أن غادر الراهب ورفيقه البيت.

لم تفعل «آنا أوردونيث» سوى الإطراء على فضائل مرافق الراهب

«لوقا»، والثياب الفاخرة التي يلبسها، ورهافة ملامحه، وذلك الصوت الناعم الذي يعرف كيف يقول به كلامًا بالغ العذوبة والجمال:

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، الشاب يبدو شهمًا ورصينًا، ولا ريب في أنه نظر إليك بعين الرضا.

شعرت «لوكريثيا» باضطراب شديد، وأمرت أمها بجفاء أن تصمت.

قالت:

ـ لا أريد سماع هذه الترهات. لديه أشياء أفضل ينظر إليها، وأنا أيضًا لديَّ أشياء أفضل أفكر فيها.

ـ أي تفكير وأية ترهات. كل شيء واضح، وأنا أقول لك إنها لن تكون المرة الوحيدة التي نرى فيها هذا الشاب في بيتنا.

والحقيقة أن تلك الزيارة لم تكن الوحيدة، فقد رجع الشاب مع الراهب «لوقا»، وكرر ذلك إلى أن تحولت زيارته إلى عادة.

وبينما «لوكريثيا» تروي أحلامها، يظل الشاب واقفًا في ركن من الصالة، يتأملها بصمت وبوضع ثابت، كما لو أنه يشهد طقسًا مقدسًا. ولكنه عند انتهاء تدوين الحلم، يجلس على كرسي ويتبادل الحديث وقتًا طويلًا مع «لوكريثيا» وأمها، أمام ابتسامة الراهب «لوقا» الراضية.

هكذا استقرت الصورة الحية في يقظة «لوكريثيا» محتلة منذ اللحظة الأولى مكانة محددة، وشكلًا وحجمًا لا يمكن استبدالهما بأي طيف.

لم يعد الراهب «لوقا» إلى سؤال «لوكريثيا» عن العلاقة بين «دييجو دي فيكتوريس» ورجل أحلامها. ولكنه لو فعل ذلك لما عرفت

«لوكريثيا» بماذا تجيب، إذ لم تستطع في نهاية المطاف أن تعرف إذا ما كان ذلك الرجل هو نفسه الذي تراه في الحلم، لأن رجل أحلامها، كما قالت، تلاشى ولم يعد يظهر لها.

وفي إحدى المناسبات، قال الراهب «لوقا» إن الشاب «دييجو» شاعر.

أصر الراهب:

ـ إنه شاعر، وليس سيئًا بأي حال. ويمكن لكما التأكد من ذلك بإعجاب يفوق الاستياء لو تخلى هذا الشاب عن خجله وقرأ لنا بعض أشعاره.

وأخيرًا، أخرج الشاب من بين ثيابه بعض الأوراق وقرأ «سونية» مهداة إلى سيدة مجهولة. وكان الشاعر يتهم تلك السيدة بأنها عدوة فينوس، لجمالها، ويطري على حمرة فمها المزين بأسنان كأنها الثلج، ويؤكد أن الطبيعة عندما جعلتها بذلك الحسن طلبت عونًا من الشمس والنجوم. وحيال ذلك الجمال الباهر، كان صدر الشاعر مجروحًا بنار الحب، وإن يكن ازدراء السيدة وصدها يملآن روحه وقلبه بالحزن.

الحب الذي تعلنه الأشعار كان يكتسب بصوت «دييجو» رنة وفاء أحست «لوكريثيا» معها بغم أنها ليست المعنية بتلك الكلمات، وراودها وعي جلي لوحدتها، وبأنها آخذة بالتحول إلى فتاة هرمة من دون أن يتودد إليها أي عاشق مغازل. ولم تستطع منع نفسها من سؤال الشاب عن السيدة التي أججت فيه تلك المشاعر الملتهبة:

ـ لا يمكنني أن أخبرك باسمها، لكنني أؤكد لك أنها الآن، كما في كل وقت، قريبة جدًّا من قلبي.

قال الرجل هذه الكلمات بعذوبة شديدة هدأت من الحزن الذي شعرت

به «لوكريثيا». وأحست الفتاة، مرة أخرى، في أعماقها باندفاع تيار المودة ذاك الذي يسري من داخلها إلى شخص الشاب، وفكرت في أن في كلمات الشاعر عذوبة تنطبق عليها أيضًا، وإن لم تكن هي المعنية بتلك الأشعار.

وعندما انصرف الراهب و«دييجو»، راحت «آنا أوردونيث» تتقافز سعيدة وتصرخ:

ـ آه، أيتها الدرة الثمينة! آه، يا ملاكًا من السماء.

خشيت «لوكريثيا» أن تكون أمها ضحية نوبة من الجنون، وحاولت تهدئتها، لكن «آنا أوردونيث» احتضنتها بقوة:

ـ «لوكريثيا»، يا جميلتي، مبروك، فهذا الشاب «دييجو» مجنون بحبك.

ـ يا لهذه الأشياء التي تقولها أمي.

ـ أوَلم تري كيف كان يقول لك تلك الأشعار بصوت مرتعش وعينين محتضرتين؟ أقسم لك بحياتي إن لديك الآن من يغازلك ويتودد إليك.

لم تشأ «لوكريثيا» في تلك المناسبة أيضًا أن تستمع لحجج أمها، قائلة إنها ترهات ومبدية ما يشير إلى أنها تعتبرها سخرية، غير أن السلوى التي أحست بها في كلمات «دييجو» وأشعاره أخذت في التحول إلى شعور جديد، حيث يهيمن حدس بهيج لم تتجرأ على الكشف عنه بالكامل.

ومع ذلك، فإن ذلك الأمل البهيج الذي أحست به «لوكريثيا» أول مرة، وبدأ يتحرك في أعماقها، لم يدم إلا قليلًا، إذ قرأ الشاب في يوم آخر قصيدة طويلة تبدأ بالحديث عن ثياب السيدة البديعة وشعرها

المجموع في جدائل شقراء، وتبين أن اسمها الذي يرد عدة مرات في القصيدة هو «لورا».

ولدى سماعه، فوجئت «لوكريثيا» بإحساسها بنار متأججة ومؤلمة تجتاح كل أعضائها بغتة، وبعد أن أودعت في حلقها جفافًا حامضًا، خلَّفت وهنًا في معنوياتها مبعثه إنهاك غريب.

كان ذلك الإحساس خاطفًا كالبرق، إذ تقبلت «لوكريثيا» على الفور، ومن دون ضغينة، وجود السيدة التي يبدي «دييجو» شغفه الشديد بها، وأدركت أن قدرها ليس في تلقي تكريم الحب ولا في تصدر مغازلات حبيب.

كانت القصيدة تتكلم عن كيف أن طيف المحبوبة يبدد غم الشاعر وضيقه، ويستبدل بهما البِشر والحبور، فعلى الرغم من معاناته في حبه الذي يبدو أنه لا يلقى تجاوبًا كاملًا من المحبوبة، إلا أن الشاعر يطلب من الرب ألا يحرره من ذلك الهوى:

عندما تبزغ الشمس، لا يجد الحب

زينة أثمن منكِ يا حبيبتي

هذا ما يقوله البيتان الأخيران، وتخيلت «لوكريثيا» أن تلك السيدة التي ترتدي ثيابًا فاخرة جدًّا، ويتغنى الشاعر بجمالها، لا بد أن تكون من سيدات العاصمة، مقربة من الناس المتنفذين الذين يتعامل معهم «دييجو»، لا سيما أنه مرهف الذوق، ويتقن فوق ذلك اللغتين اللاتينية والإيطالية.

وفي صباح أحد الأيام، حضر الشاب وحيدًا. وكان يحمل معه رسالة من الراهب «لوقا» إلى «لوكريثيا»، يخبرها الراهب فيها أن مشاغله

ستحول بعض الوقت من دون تمكنه من تدوين أحلامها. لكن الشاب «دييجو دي فيكتوريس» عرض عليه الحلول محله، وهكذا سيتولى أمر تلك التسجيلات التي سيتم تدوينها من دون شك على أحسن وجه.

وكالعادة، جلست «لوكريثيا» على إحدى الحشايا على المصطبة، وجلست أمها إلى جانبها وراحت تخيط بعض الملابس. وبعد أن جهز الشاب «دييجو» منضدة الكتابة وقلَّم الريشة، تأهب لاستنساخ كلمات المتنبئة.

وضع «دييجو» الجديد كان يهز مشاعر «لوكريثيا» بصورة لم تعرفها مع أي شخص ممن استنسخوا أحلامها حتى ذلك الحين. فقد صارت تشعر بأنها عاجزة عن الكلام، وضحية ضعف لا تفسير له.

سألها الشاب:

ـ ألا تشعرين بأنك على ما يرام؟

كان يبدي اهتمامًا كبيرًا بها، لكن «لوكريثيا» ظنت أن السبب في ذلك هو أساليب اللياقة المهذبة التي يحافظ عليها الشاب في كل وقت. وكانت على وشك أن ترد عليه مؤكدة ما قاله، وأن تطلب منه تأجيل تدوين الأحلام إلى يوم آخر. غير أن رغبة، غير متوقعة، في أن توقظ في الشاب اهتمامًا مماثلًا لذاك الذي يشعر به نحوها «دون ألونسو» والراهب «لوقا»، أعمق بكثير من الاهتمام الذي يتكون ويتلاشى في الممارسة المحضة للأساليب المهذبة، دفعتها للرد عليه بإيماءة نفي نشطة.

أغمضت عينيها وحاولت أن تُبعد عن مخيلتها صورة الشاب، وعندما وجدت، أخيرًا، أنها صارت أكثر هدوءًا، بدأت التكلم.

روت أن رجل الجلود الذي يكلمها عادة، ظهر لها في تلك الليلة، وحملها إلى أعلى مكان في قصر طليطلة، في واحدة من التنقلات الطائرة العجيبة التي كثيرًا ما يقوم بها. ومن ذلك المكان، كانت تظهر لعينيها حركة الجموع في شوارع المدينة، حشود بائسة ومترنحة. والجميع صامتون، فلا تُسمع إلا جرجرة الأقدام وضجة كثير من السعال والنحنحات. كانت ساعة ملء المصابيح بالزيت، وكانت الوجوه البيضاء والنحيلة تلمع في غبش الظلال.

وكان الرجل يقول: «ضرائب الملك تدمر الفقراء، لأن قسوة قلبه لا تأخذ في الاعتبار شح المحاصيل، وطموحه يدفعه إلى خوض حروبه غير المتناهية التي لا نفع فيها سوى إطعام جنود بطالين وملء الأرض بيتامى وأرامل، وبآنسات وأطفال مهانين».

كانت الجموع تقترب من الكاتدرائية، حيث ستقام طقوس دينية بالغة المهابة، ذلك أن روما لم تعد مسيحية نتيجة هجوم الأتراك عليها، والكرسي الرسولي قد انتقل إلى طليطلة. وأكد الرجل: «سيُنصب بابا إسباني. وسيخلف هذا الملك السيئ ملك آخر طيب، هو زعيم الصليب المستعاد».

# ١٥

منذ ذلك الحين، لم يعد «دييجو» يهتم بتدوين أحلام «لوكريثيا» وحسب، وإنما حلَّ كذلك محل «دون ألونسو» كمعلِّم، مسترجعًا معها تلك الدروس البعيدة في القراءة والكتابة.

بدأت الفتاة تنتظر بلهفة غامضة اللحظة التي تجلس فيها إلى منضدة الكتابة، ممسكة الريشة بيدها اليمنى لتخط الحروف، ويد «دييجو» تسند يدها وتساعدها على الحركة في حركات رقيقة تجبر الريشة على رسم أشكال الحروف المتطاولة.

كانت يد الرجل تغمر يدها بدفء يتغلغل عبر الجلد وينتشر في كل أعضائها، فتشعر «لوكريثيا» بهزة قوية في أعماقها، كما لو أن أجزاء جسدها الداخلية توشك أن تتفكك وتنهار تاركة إياها من دون ما تحتاج إليه من أجل الحركة، جامدة مثل تمثال.

ملمس اليد كان يبدو أشد زخمًا لأن أيًّا من أجزاء جسد «دييجو» الأخرى لم يكن يقترب كثيرًا، ولا بد أن الشاب كان يبذل جهدًا من أجل ذلك. ولكن بين ظهر «لوكريثيا» والخاصرة اليسرى لـ«دييجو» المنحني

لإمساك يد الفتاة اليمنى بيده اليمنى، كان ثمة فراغ تشعر فيه الفتاة ببرودة شديدة هي نقيض الحر الذي تستثيره فيها اليد.

هذا الغم نفسه، وتفكك الأحشاء الذي توشك على الشعور به عند إحساسها بملمس يد الرجل على يدها، يتكرر في «لوكريثيا» كلما قرأ «دييجو»، خلال تبادل الحديث الذي يلي عادة تسجيل رؤى كل ليلة، إحدى تلك القصائد المفعمة بتمجيد المحبوبة السرية والشكوى منها.

ويكاد الغم لا يهدأ بعد انصراف «دييجو»، وبدء رؤية أحلام الرؤى الليلية الرهيبة المنذرة بكثير من المحن العامة، مختلطة بأحلام أخرى يكون فيها الشاب «دييجو» و«لوكريثيا» في محادثات غرامية: عندئذ يكون هو المتودد إليها، وتكون هي تلك السيدة المدعوة «لورا» في القصائد، والتي ترتدي ملابس جميلة وفاخرة، ولها شعر أشقر مسرَّح في ضفائر. و«دييجو» يعانقها ويقبِّلها، بطريقة تبعث في «لوكريثيا» ذهولًا ممتعًا لم تفكر في البوح به قطُّ.

وخلال أسبوع، كان «دييجو دي فيكتوريس» قد تبنى كتفية صليب الإصلاح، على الرغم من العداء الذي يكنه له «دون جيِّن دي كاساوس»، وصار خادمًا غير مشروط لـ«لوكريثيا». وكانت «آنا أوردونيث» تعامل الشاب بمودة كبيرة، وكثيرًا ما كانت تستبقيه في البيت عند الظهيرة للغداء معهم.

وفي أحد الأيام، دعا الشاب «لوكريثيا» وأمها لحضور مسرحية. لم تكن «لوكريثيا» قد ذهبت من قبل إلى المسرح، وتشك أن تكون أمها قد ذهبت أيضًا، وإن كانت تلمح إليه بشيء من الزهو الغامض، ذلك أن كهنة الاعتراف الذين وجهوا حياتها الروحية كانوا معادين جدًّا للمسرحيات، ويعتبرونها ممتلئة بأمور غير مجدية وباطلة، إذا لم تكن خرقاء.

وكان «دون جيِّن دي كاساوس» نفسه ممن يذمون تلك التلهية، ويقول

إنها لا تتضمن سوى أكاذيب تحض الرجال والنساء على الخطيئة، حتى إنه أرسل إلى الملك مذكرة ينصح فيها بأنه لا بد من منع بعض الأمور، من أجل إنقاذ البلاد، ومنها حظر عرض المسرحيات، وما يتخللها من «إنترميس»[1] مليئة بالأكاذيب ومن رقصات غير أخلاقية.

غير أنه كان لدى الأم وابنتها فضول كبير لمعرفة تلك التسلية التي تستثير غضبًا شديدًا بين بعض رجال الدين، بقدر ما تستثير التصفيق بين الناس العاديين، وتشكل نشاطًا حيويًا ومتواصلًا في المدينة حيث للمشخصين فيها مقرهم، ورواده كُثر، بالقرب من بيت «لوكريثيا» ومن المستشفى الذي أسسه «أنطون مارتين».

كانت «لوكريثيا» قد عرفت فوق ذلك، من خلال مزيل البقع، أن «دون جيينّ دي كاساوس» هو ممن يترددون على المومسات، وأحد الزوار المواظبين على محلات البغاء، مما جعل مرافعات ذلك السيد ضد المسرح تبدو غير جديرة بالاعتبار. أما الراهب «لوقا» من جانبه، فلم يكن يجد مانعًا في ذهاب ربيباته اللواتي يعتبرهن مسيحيات تقيات وحسنات الخلق إلى تلك المتع المسلية.

ذهبت المرأتان في يوم خميس، متسترتين جيدًا كي لا يتم التعرف عليهما في الشارع.

وعلى الرغم من أن صخب المكان أفزع «لوكريثيا»، إلا أنها رأت على الفور أن هناك بين الحضور عددًا من الكهنة، وكذلك سيدات وسادة

---

(١) إنترميس: مشهد تمثيلي ساخر يعرض لتسلية الجمهور في الاستراحات بين فصول المسرحية الرئيسية. (المترجم).

متميزي المظهر، وإن كانت هناك نساء أخريات متبرجات بمبالغة، وكثير من أولئك الخدم الذين يعملون في بيوت طيبة، ويكسبون بعض النقود الإضافية من مهنة القوادة، مع بعض الجنود الصاخبين والرجال الذين يحمون ظهور السادة البارزين، وبدل الخناجر، يحملون غدارات معلقة على خصورهم. غير أن الجميع يرتدون ملابس جيدة. ووفرة القناديل التي تضيء المكان تجعل الجمع المزركش يتلألأ، باعثة في الحضور مزاجًا بهيجًا وترقبًا ممتعًا.

همست «آنا أوردونيث» في أذن ابنتها بأن تكلفة مقعد كل منهما هو ريال واحد، وكان «دييجو» قد استأجر كذلك بعض المدافئ كي لا تبرد أقدامهم.

بهر العرض «لوكريثيا» في كل أبعاده وفصوله، وكثيرًا ما فوجئت في سياقه بافتتان بأنها قد نسيت نفسها، وصارت تشعر أنها جزء من المسرحية التي تُقدم، كما لو أنها تحلم بالتحولات والتقلبات المفاجئة لتلك الحيوات التي تُعرض أمامها، إلى أن أدركت أخيرًا أن ذلك كله ليس إلا لعبة، وكان هذا اليقين المفاجئ أيضًا نوعًا من الاستيقاظ.

موضوع المسرحية الرئيسي يشخص قصة آنسة يتودد إليها عاشقان. وكانت العقبات التي يضعها كل من العاشقين للآخر، ويشارك فيها عدد من الخدم الظرفاء، وتَردد الفتاة، والمفارقات الناشئة عن مراقبة أب عجوز وأصم، وذهول أم ورعة وهيابة، تُقابل بتصفيق شديد من الجمهور. فضلًا عن أن أبرز المشخصين في الملهاة، كان الإيطالي المشهور «ناسيلي»، الذي يسمونه كذلك «جاناسا»، والقادر على انتزاع الضحك من الجميع، وهو من يتمكن في نهاية المطاف، على الرغم من ضخامة أنفه، من نيل الأفضلية ويد الآنسة مع موافقة الحضور الحماسية.

افتتنت «لوكريثيا» وأمها كذلك بموسيقى القيثارات والنايات الجميلة، ورقصات الصنوج التي قُدمت بعد الفصل الثاني، وكأن الغرض منها تركيز اهتمام المشاهدين. وقد قُدمت آنئذ رقصتا «سيجيديَّاس» و«تشاكونا» المرحتان، والرقصة المسماة «جايَّاردا»، حيث يخلع الراقصون قبعاتهم، وأخيرًا رقصة «السربندة» التي يُندد بها على منابر الكنائس باعتبارها رقصة فاجرة جدًّا ومفسدة، والحقيقة أنها تستثير الحماسة وتحولها إلى استعداد بهيج لتقبل متع العالم ومرحه.

أحد أشد الأشياء التي أمتعت «لوكريثيا» هو «الإنترميس» الذي قُدم بعد الفصل الأول من الملهاة الأساسية. وفيه يخرج المدعو «بارتولو»، وقد تشوش عقله لكثرة ما قرأ من القصص الغرامية، ليجوب العالم برفقة ظريف يدعى «باندوريو»، وفي نيته أن يبحث ويعيش مغامرات متخيلة من قراءاته. كثير من حوارات ذلك «الإنترميس» مأخوذة من قصص حب مشهورة تعرفها «لوكريثيا» سماعًا، وكان الجمهور يردد في كورال كلمات الممثلين:

يا مَن لا يحزنك سقمي

لجراحي الصغيرة

كنتِ تبدين الإشفاق

والآن، لجراحي المميتة

لا تبدين أي تأثر

بين كل تلك الأمور الممتعة، هناك أمر واحد أربك «لوكريثيا» بشدة، وهو أن «دييجو»، في إحدى لحظات ذلك المساء، أمسك بيدها.

و«لوكريثيا» المستغرقة في حبكة الملهاة، تأخرت لبعض الوقت في إدراك ذلك الملمس، وعندما تنبهت إليه فوجئت جدًّا لتركها يدها في يد «دييجو»، مستسلمة مثل طريدة فقدت الشعور بعد ضربة صائبة من صيادها.

لم يكن لتلك الطريقة في المداعبة النية الماجنة التي كانت ليد «دون جييَّن» الزاحفة، في ليلة الكسوف، وهي تبحث عن حديقتها السرية. ومع ذلك، كان هناك بين الحركتين المختلفتين، وحتى المتناقضتين، نوع من التشابه: فكلتاهما تبديان مظاهر لها علاقة بحميمية الجسد التي لا تتفق مع الصداقة، وإنما مع الانجذاب الغرامي. وكما كان في مداعبة «دون جييَّن» محاولة خاطئة وغير شرعية للمس بكارتها، كان هناك في مداعبة «دييجو» أيضًا نوع من الخيانة، فهو يخون بميله ذاك تلك المناشدات الغرامية المتأججة في أشعاره لسيدة أخرى غيرها.

استعدت لسحب يدها فورًا، لكنها لم تتوصل إلى ذلك، ولم يفلتها «دييجو»، بعد محاولات صاخبة، إلا مع انتهاء التشخيص.

ارتباك مشابه لذاك الذي شعرت به «لوكريثيا» في المسرح، تجدد في تلك الليلة. فعندما كانت على وشك النوم، ترددت في الشارع أنغام جيتار وصدح صوت بالغ الوضوح بالمقاطع التي تبدأ بها جوقة التودد الغرامي، طالبة من المحتفى بها أن تنهض لتسمع تلك الأغنيات التي ترى فيها زهرة الأزهار، وردة وقرنفلة، ويلتمس منها مداواة وله العاشق التعيس.

وتلا الصوت العذب بعض الأناشيد بصوت كورال، ثم دوى صوت «دييجو دي فيكتوريس» نفسه، مصرحًا بحبه للآنسة ذات العينين السوداوين التي يدعوها سيدة إرادته المتهربة.

وفي الظلمة، رأت «لوكريثيا» مجيء أمها التي ألقت بنفسها على الفراش بجوارها وراحت تقبِّل وجهها بقبلات مدوية:

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، يجب أن تكوني سعيدة جدًّا. لم يعد ثمة شك في حب هذا الشاب الوجيه لك.

كانت البهجة تختلط لدى «لوكريثيا» بإحساس بالقلق، إذ لم تكن تعرف كيف تواجه ذلك التصريح بالحب، وتخشى أن يكون في ذلك كله سوء تفاهم، وأن يكون احتفاء الشاب بها ناتجًا عن إحساس بالصداقة الأخوية وليس عن ميل غرامي، بل يمكن أن يكون تصرفه مجرد سخرية:

ـ أماه، لا أعرف إذا كان هذا هو الوقت المناسب ليعزفوا فيه لي الموسيقى أو يغني عاشقون عند نافذتي.

ـ وكيف لا يكون كذلك. وأن يكون لك زوج، وأبناء. هل أنت راهبة يا ترى، أو منذورة للعذرية؟

لم تجب «لوكريثيا» بأي شيء. لم يكن بمقدورها فهم نوايا «دييجو»، وقررت عدم الاهتمام باحتفائه بها. كانت تفكر في أنها لم تعد تلك الآنسة البسيطة التي كانتها فترة من حياتها، وإنما الشخصية المختارة لمهمة بالغة الأهمية. ومن دون الدخول في تصرف «دييجو» غير المفهوم، كانت تفكر في أنها إذا ما استجابت لرغباته الغرامية، أو لرغبات أي شخص آخر، فإن وضعها المعلن كمحبوبة، سيؤثر تأثيرًا بالغًا على دور الآنسة المتنبئة الذي تتولاه، وتخشى ما يمكن لـ«دون ألونسو» أن يفكر فيه حول ذلك.

انصرفت الموسيقى وعادت أمها إلى حجرتها، أما هي فظلت مستيقظة وقتًا طويلًا، مشوشة من تناقض إحساسها بالسعادة من الاحتفاء بها وميل

«دييجو» الغرامي، ومعرفتها بحزن أن تقبل ذلك الميل بصورة سافرة والتجاوب معه، إذا ما تبين أن «دييجو» قد تخلى عن التفكير في السيدة «لورا» التي يذكرها في الأشعار، يمكن أن يعني ابتعادًا غير واضح المدى من جانب من كان حتى ذلك الحين صديقها الأساسي وحاميها، بل بمقام أبيها الثاني، وأكثر دفئًا وقربًا من أبيها الطبيعي.

ولكي تهدئ نفسها، قررت أخيرًا استشارة «دون ألونسو» نفسه في الأمر، وفي تلك التأملات حل الفجر، ثم الصباح، وجاء «دييجو» إلى البيت لمواصلة تدوين الأحلام.

لم تشأ «لوكريثيا» رؤيته، متذرعة بألم يضطرها إلى البقاء في الفراش. وسمعت حديث «آنا أوردونيث» مع الشاب الذي بدا قلقًا لمرضها، واكتشفت في صوت أمها إفراطًا في المجاملة المتزلفة.

ولم تشأ رؤيته كذلك في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي تلاه، مما أغضب «آنا أوردونيث» كثيرًا.

# ١٦

أمضت «لوكريثيا» تلك الليالي من دون نوم تقريبًا. يملؤها القلق من مغازلة «دييجو»، لكنها لم تحسم أمرها في طلب نصيحة «دون ألونسو». فعلى الرغم من إحساسها بعدم اليقين حيال ما يمكن أن يعنيه تصرف الشاب حقيقة، كانت تخشى أن يجبرها رجل الدين على التخلي عن رفقة الشاب وصداقته بالتصميم نفسه الذي رفض به تعريفها على طالعها وما يمكن للكواكب أن تشير إليه حول قدرها.

في اليوم الثالث من أيام نومها المؤرق، رأت حلمًا آخر من تلك الأحلام التي لا تشبه في أي شيء الرؤى المعهودة. فقد رأت نفسها عارية تمامًا، مثل الأم حواء في جدارية القصر، مستلقية في فراشها، والأب آدم الجدارية عاريًا بالكامل أيضًا، وله ملامح «دييجو دي فيكتوريس»، يستلقي إلى جانبها ويداعب جسدها برقة ممتعة.

كانت لا تزال مشوشة بالإحساس الذي أيقظته فيها مداعباته الحلمية، عندما نهضت «لوكريثيا» أخيرًا في الصباح، وبعد أن رتبت نفسها، استعدت لاستقبال «دييجو».

كان شهر ديسمبر قد تقدم كثيرًا، وكان هناك مجمران يدفئان الصالة. وكما في الصباحات الأخرى، كان إخوة «لوكريثيا» في المدرسة. وهكذا غادرت «آنا أوردونيث» البيت وتركت الشابين وحدهما، بحجة مهمات وزيارات دينية عليها القيام بها. جلس «دييجو» إلى منضدة الكتابة، وظلت «لوكريثيا» تقف مترددة. كانت تشعر بالخجل من حضور الشاب، لكنها تجد سلوى كبيرة في الوقت نفسه لوجودها بالقرب منه، لأن تذكره في تلك الأيام في أحلامها استثار فيها الشوق لشخصه.

قال الشاب:

ـ ها قد تمكنتُ أخيرًا من رؤيتك. وأرى أنك معافاة تمامًا.

تنبهت «لوكريثيا» على الفور إلى أن عيني «دييجو» متهربتان وطبعه متكتم.

أجابته بخيبة أمل:

ـ إنني كذلك، ولكنني لا أستطيع أن أخبرك شيئًا عن أحلامي، لأني لم أرَ أية أحلام خلال هذه الليالي.

ظل «دييجو» صامتًا لحظات، من دون أن يفقد مظهره الخائف. وأخيرًا، كما لو أنه قد تجاوز آخر مصاعب جهد عظيم، نهض باندفاع مفاجئ، تاركًا ريشة الكتابة، ووصل حتى المصطبة.

قال وهو ينظر إلى «لوكريثيا» بثبات:

ـ أما أنا فلديَّ ما أخبركِ به. لقد رأيتُ أحلامًا كثيرة، وفي هذه الأحلام ظهرت لي رؤى بالغة العذوبة منك، سمحتِ لي خلالها بمعانقتك والبوح لك بحبي.

أحست «لوكريثيا» بالارتباك، لأن تلميح «دييجو» جدد ذكرى المعانقات التي حلمت هي نفسها بها. عندئذ اقترب الشاب أكثر، واستطاعت «لوكريثيا» أن تشم رائحة العنبر نفسها التي يضمخ بها «دون ألونسو» قفازيه.

ـ «لوكريثيا»، لا أستطيع منع نفسي من التفكير فيك، وهذا التفكير الذي يملأني سعادة، يحمل في ثناياه غمًّا عظيمًا، ومع أن هذا كله خير عظيم، إلا أنه ينطوي على شر هائل، لعدم معرفتي إذا ما كان يمكن لأفكاري أن تلقى منك القبول والرضا، بل خشيتي من رفضك وصدك.

قالت «لوكريثيا» وهي تجلس على الحشية المعهودة على المصطبة:

ـ اصمت يا «دييجو». اصمت ولا تسبب لي مزيدًا من الارتباك.

جلس «دييجو» إلى جانبها وحاولت «لوكريثيا» التكلم برصانة:

ـ أنا لم أمضِ قطُّ في دروب الغرام وربما لا أعرف جيدًا ما يتوجب عمله في هذه الحالات، ويفاجئني أن أكون قد أيقظتُ فيكَ، بصورة مباغتة، هذا الميل الغرامي الذي تقول إنك تشعر به نحوي.

اعترض «دييجو»، وأكد أنه تعلق بها منذ لحظة دخوله بيتها ورؤيتها أول مرة، في اليوم نفسه الذي اصطحبه فيه الراهب «لوقا دي أييندي» إليها:

ـ أقسم لكِ بحياتي يا «لوكريثيا»، يا سيدة روحي، أن قلبي قد اختارك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها.

سألت الفتاة بعد لحظة تردد، شاعرة في يديها بالارتعاش الذي يكشف القلق المستتر تحت مظهرها الهادئ:

ـ وماذا عن السيدة الأخرى؟

سألها «دييجو» متفاجئًا:

ـ سيدة أخرى؟ عن أي سيدة أخرى تتكلمين؟

ردَّت «لوكريثيا» خافضة صوتها وناظرة بتأنيب إلى عيني الشاب الذي بدا مرتبكًا جدًّا:

ـ أيمكن لك أن تكون قد نسيت؟ هناك بالطبع سيدة، ترتدي ملابس فاخرة، وشعرها مضفر في جدائل رفيعة. وأنت كرست لها أشعارًا جميلة جدًّا. اسمها «لورا».

وبعد قليل من الصمت، انفجر «دييجو» في الضحك بسعادة، وندمت «لوكريثيا» على صراحتها تلك، وإن أحست وسط خجلها براحة أنها مهيأة لإدراك أن طلب «دييجو» لم يكن إلا سخرية منها. مع ذلك، وبعد أن اعتذر الشاب عن ضحكه، أكد لـ«لوكريثيا» بكل حرارة بأن تلك السيدة لم تكن في أي يوم محط اهتماماته الغرامية:

ـ تلك السيدة يا «لوكريثيا» ماتت، كما يبدو، منذ أكثر من قرنين، والشاعر الذي احتفى بجمالها أبرع مني بما لا يقاس. لقد كنت أقرأ تلك القصائد تكريمًا لكِ، فإحدى أعظم فضائل الشعراء هي كشفهم أسرار المشاعر وتلونها، وصوغها في كلمات، بحيث يمكن لنا نحن البشر الفانين الآخرين فهمها أيضًا والارتقاء بأنفسنا من خلالها.

أحست «لوكريثيا» بسعادة مفاجئة تطفر من قلبها:

ـ ظننت أن تلك الأشعار من صنع يدك.

ـ كان بعضها كذلك. لكن معظمها من نظم شاعر إيطالي يدعى «فرنشيسكو بتراركا»، وأنا نقلتها إلى لغتنا عبر برتغالي عاش في بلاد الهند، وهو صديق لعمي.

أمسك «دييجو» إحدى يدي «لوكريثيا»:

ـ ليست لديَّ أي سيدة أخرى سواكِ. أنت «لوراي» يا «لوكريثيا»، أنت إلى الأبد، وما أجاد قوله عن تلك السيدة الشاعر «بتراركا» أريده أن يجد الصدى نفسه عندك.

أجبرته «لوكريثيا» على إفلات يدها وأجابته بأنه ليس لديها أي شيء لمعارضة مغازلاته، لكن أمور الحب في تلك الأزمنة غير مناسبة لهما، وغير وقورة:

ـ أنا لستُ سوى آنسة فقيرة جاهلة، لكن الرب إلهنا اختارني لتُعرف من خلالي أمور رهيبة، ولتتهيأ الأرواح للتوبة والتكفير، والابتهال، والنضال. أما أنت، فإنك هنا، في بيت أبويَّ، من أجل تسجيل ما أراه من رؤى. وأي شيء بيننا لا يرتبط مباشرة بأحلامي ورؤاي سيكون خيانة للثقة التي ندين بها كلانا للأخوية المقدسة.

نظرت «لوكريثيا» إلى «دييجو» بتصميم فيه أيضًا لمحة من التوسل:

ـ أضف إلى هذا أنني ما زلت أجد نفسي حائرة. لا بد لي من التفكير بهدوء فيما قلته لي.

الخبر بأنها هي من كانت، منذ اللحظة الأولى، المقصودة الحقيقية بالقصائد التي يقرؤها «دييجو»، والتي استثارت روحها حتى وهي تظنها موجهة إلى امرأة أخرى، ولَّد لدى «لوكريثيا» الرغبة في العودة لسماعها.

وهكذا، في الأيام التالية، بعد تسجيل أحلام الآنسة، صار «دييجو» يعيد قراءة تلك الأشعار التي يعلن فيها الشاعر أنه أعزل تمامًا في مواجهة الحب، ورقة نظرة المحبوبة، ويبارك المكان والزمان والساعة التي اكتشف فيها وجهها الجميل.

حين أدركت «لوكريثيا» الغرض الحقيقي من تلك المسوغات والصور التي سمعتها، راحت تعيد بناء طريق، عرفته فجأة بكل أبعاده، يملؤها بالسعادة. ولكنها واصلت، مع ذلك، كبح ميلها إلى الشاب، ولم تسمح لنفسها بإظهار مشاعر رضاها عن ذلك الاحتفاء بها، ولا المتعة التي توفرها لها صحبته، إذ كانت تحدس بأن تلك السعادة البكماء والسرية، ومتعة معرفتها أنها قريبة من «دييجو» ومحبوبة منه من دون أن يكون بينهما تقارب معلن ومفتوح، يضع في مخيلتها وفي حواسها كمالًا عظيمًا لا يمكن لأي شيء آخر أن يسمو عليه.

كانت تخشى فوق ذلك أن تُسهِّل لـ«دييجو» تقربًا أكبر، لا سيما أنها عادت للحلم بالشاب، متحولة مرة أخرى إلى حواء جدارية القصر وهو إلى آدم، ولم يعد مكان غرامياتها هو فراشها وإنما منتصف تلك الحديقة البديعة حيث «الخروف» المحاط بملائكة، يتلقى تقديس القضاة، والقديسين، والسادة، والنساك، والمتدينين، والعذراوات الشهيدات والحُجاج، مع أن تلك الشخصيات جميعها اختفت من الجدارية في الحلم، ولم يبقَ سوى الينبوع وخرير مائه غير النهائي فوق الحصى البديعة، وسط عبير الورود والزنابق.

كان «دييجو» يعانقها على العشب الندي ويقبلها، وترد «لوكريثيا» من دون خفر على تلك المداعبات. متعة التواجد مع الشاب والإحساس بحبه

يأخذ في التحول، من دون عنف، إلى نشوة زخمة تبلغ ذروتها أخيرًا برعشة لذة قوية تنتشر في كل أنحاء جسدها، تقدرها «لوكريثيا»، وهي تستيقظ بغتة، بقلق منذر بالخطر.

وذات صباح، بعد الانتهاء من قراءة إحدى قصائد الإيطالي المشهور، أزاح «دييجو» الورقة بجفاء، وظل صامتًا برهة وهو معكر المزاج. سألته «لوكريثيا»:

ـ ماذا أصابك؟

كرر «دييجو»:

ـ حتى لو رأيتني أموت ميتة قاسية، لا أظن أن دمعة ستنزل من هاتين العينين، إلا بدافع الغضب وحده.

ثم تأملها بنظرة مفعمة بالأسى، وقال:

ـ إلى متى ستظلين قاسية معي؟

عادت «لوكريثيا» تذكِّره بالمهمة التنبئية التي كرست نفسها لها، وبالعمل الموكل إليه كمدون لأحلامها. ولكن، بينما الفتاة تتكلم، كان المتودد إليها قد أمسك كلتا يديها وراح يقبِّلهما بتلهف.

واصلت «لوكريثيا» الكلام، لكنها لم تعد تعرف جيدًا ما الذي تقوله. ولكي تلح على الواجبات السامية المفروضة عليهما، بدأت ترتل واحدًا فواحدًا بنود نظام الأخوية التي صاغها «دون جييَّن دي كاساوس»، والتي استُنسخت في عدة أوراق بخط متقن، وتستخدمها «لوكريثيا» في تمريناتها العملية على القراءة. لكن «دييجو» احتضنها بقوة وهو يلتصق بها أكثر فأكثر:

ـ اسمعيني يا «لوكريثيا». لا يمكن لحبنا أن يضر برؤاكِ ونبوءاتك. ثم إنك آنسة ولست ملزمة بنذر أبدي. وأنا غير ملزم بالرهبنة كذلك، وأريدك أن تكوني زوجتي.

ـ زوجتك؟

ـ هذا ما أرغب فيه، الزواج منك، وأن أكون زوجك الحامي والوفي أمام الرب والعالم. وليس هناك أي مانع يحول من دون ذلك.

لم تدرِ «لوكريثيا» بماذا تجيب، وقبل أن تتمكن من الكلام، قبَّل «دييجو» فمها بقوة تلاشى معها الإحساس بقبلات الحلم في نسيان غائم. أحست الآنسة بلسان الشاب في فمها، وكرد غريب لم تستطع فهمه، شعرت بارتعاشة في أشد مواضع جسدها سرية، وهو الموضع نفسه الذي كان مركز اللذة في الأحلام أيضًا. وفي اندفاعة احتدام مفاجئة، لم تفكر معها فيما إذا كان عليها أن تقاوم، عانقت «دييجو»، ثم جعلته ينحني بعد ذلك نزولًا على المصطبة، إلى جانبها، كي ترى جسد الرجل ملتصقًا بجسدها.

كان «دييجو» هو من قطع القبلة في نهاية الأمر، وانفصل عن «لوكريثيا» برفق. وبنظرة عن قرب، وعينين سعيدتين، قال لها:

ـ أنت تقبلين بي إذن؟

ـ لا أدري ما أقول. أنا أيضًا حلمت بك. ولن أقول الحقيقة إذا ما أجبتك بأنني لا أحبك، ولكن عليَّ أن أواصل التفكير. فـ«دون ألونسو»، والراهب «لوقا»، وكل أولئك الأشخاص يرون فيَّ متنبئة إلهية، وأنا لم أسمع عن متنبئات يتورطن في شؤون الحب أو يتزوجن.

ـ فكري قدر ما تشائين، شريطة ألا ترفضيني يا حياتي.

ـ أيًا يكن القرار، لا أريد لأحد أن يعرف الآن أن هناك شيئًا بيني وبينك. عدني أن تكون متكتمًا.

ـ أعدك.

ـ ستكون متكتمًا ولن يعلم أحد بحبنا. وعندما أريد أن يُعلن الأمر سأخبرك أنا نفسي. أما بشأن الدوطة، فعليك أن تعلم أن جلالته يعرفني، لأني كنت في القصر، وقد وعدنا نحن الذين كنا في خدمة مربية الأمير بأن ينعم علينا عندما نتزوج.

ـ أعدك بإيماني المسيحي وبصليب هذه الكتفية المقدسة. والآن، أعطيني فمك الصغير هذا الذي سأستهلكه بالقبلات.

في ذلك الصباح تبادل «دييجو» و«لوكريثيا» القليل والكثير من القبلات، ولم يفكا عناقهما إلا عند الظهيرة، حين رجعت «آنا أوردونيث» إلى البيت بصخب كبير من الأقفال وأصوات التحية التي هي من عادتها.

وإذا كانت «آنا أوردونيث» قد خمنت شيئًا مما حدث بين «لوكريثيا» و«دييجو»، إلا أنها عرفت كيف تداري على أحسن وجه. وبحجة مشاغل والتزامات أخرى واصلت الغياب كل صباح تاركة الشابين وحدهما، مانحة إياهما فرصة مناسبة كي يجددا أحاديثهما الغرامية واستمتاعهما، في مداعباتهما، وثقة الجسدين المتبادلة.

احتاج «دييجو» إلى عدة أيام ليعرف كيفية حل سترة «لوكريثيا»، ولمس نهديها البديعين، وإلى أيام أخرى كي يصل بيديه إلى فخذي الآنسة الدافئتين. وعندما أحست هي بيد صديقها في تلك الأماكن الخفية، تعرفت فيها على حركة حيوان صغير كانت قد أحست بحركة قوائمه في

ليلة الكسوف القمري. ولم تضع في هذه المرة أي عقبة أمام تقدم ذلك الحيوان الصغير ذي الأطراف العصبية للوصول إلى كأس الزهرة الذي هو كنز دوطتها الأساسي، والذي تحول إلى مركز كل أحاسيسها، والذي لم يكن أحد سواها قد لمسه بحرية من قبل. ومن جهتها، عرفت أيضًا كيف تبحث بين طيات سروال الشاب عن طريق الوصول إلى المكان الذي يختبئ فيه ذلك العضو الذي كانت قد أحست بصلابته على جسدها في معانقاتهما الكثيرة، إلى أن عرفت أبعاده جيدًا والتأثير الذي أحدثته فيه مداعبات يدها.

وفي يوم شديد البرودة، أجبرت «لوكريثيا» «دييجو» على ترك المصطبة واقتادته من يده إلى حجرتها. ثم تعرت بالكامل، مثلما تفعل الموريسكيات لتقديم أنفسهن إلى محبيهن كما يقال، وطلبت من «دييجو» أن يجعلها امرأته. وعلى الرغم من امتلاء الشاب بالرغبة، إلا أنه كان لا يزال يشعر في الوقت نفسه باحترام كبير لبكارة «لوكريثيا»، والتي ربما تكون إحدى خصائص شرطها كمتنبئة.

قال «دييجو» أخيرًا:

ـ اسمعيني يا حياتي، لا أريد جعلك امرأتي قبل أن أعطيكِ عهد الزواج، وتعطيني إياه أنتِ أيضًا. فلنتزوج الآن.

ردَّت «لوكريثيا» متنهدة وهي تستلقي على الفراش:

ـ أنا سأفعل كل ما تريده أنت.

عندئذ أحضر «دييجو دي فيكتوريس» السيف والصليب اللذين كان «دون ألونسو» قد تركهما على منضدة الكتابة، ووضعهما على الفراش،

وبحركة رصينة لم تتوصل إلى كسر مظهره، إذ لم يكن يرتدي سوى القميص وكان شعره كله مشعثًا، تكلم بوقار:

ـ أقسم على هذا الصليب وهذا السيف، مثلما فعل الملك «بيريون دي جاولا» قبل ممارسته الحب مع زوجته «إليسينا»، أن أكون زوجكِ منذ الآن وإلى الأبد، وأن أحتفي بهذه الخطوبة أمام الملأ عندما يناسبكِ إشهار الأمر.

نهضت «لوكريثيا»، ومدت يدها أيضًا فوق السيف والصليب، وأقسمت بدورها أن تكون زوجة «دييجو» إلى الأبد. وبدآ بعد ذلك بتبادل القبلات والمداعبات باحتدام شديد. وقبل انتصاف نهار ذلك اليوم، كانت «لوكريثيا» قد فقدت بكارتها وصارت تعرف جيدًا ما الذي يعنيه الإحساس بصلابة عضو ذكري في داخلها، بهجماته، وبلوغه الأوج، وتراخيه.

# ١٧

استعادت «لوكريثيا» رؤاها منذ زواجها السري من «دييجو دي فيكتوريس»، وعادت إلى أحلامها مشاهد الأماكن والشخوص التي كانت تراها قبل مجيء الشاب.

ظلت غراميات «لوكريثيا» مرتبطة باليقظة، من دون أن يكون لها أي انعكاس في أماكن الأحلام الليلية التي تدور فيها نبوءاتها. وإذا كان حضور «ألونسو فرانكو» قد قطع، في بعض الأيام، لقاءات العاشقين الغرامية، إلا أن عودته إلى بلد الوليد مع بداية شهر يناير أعاد إلى «لوكريثيا» و«دييجو» طمأنينة الصباحات التي يكونان فيها، عمومًا، شاغلي البيت الوحيدين. ومع إخماد الشهوات الجامحة وفضول أزمنة غرامياتهما الأولى الجسدي، صار استسلام «لوكريثيا» و«دييجو» للمعانقات يتضاءل، يكرسان شطرًا أكبر من الوقت في الصباح لتدوين رؤى الحالمة، باعثين بذلك الطمأنينة في ضميريهما أكثر مما في غرامياتهما من خرقٍ للسلوك الذي عليهما الحفاظ عليه.

في السنة الجديدة، حدث أحد أول أحلام «لوكريثيا» في ليلة

عيد الملوك المجوس. فقد رأت الحالمة رجلًا يطفو أمام غيمة، وعلى جانبيه ملاكان، يردد بصوت وقور، ومرة بعد أخرى، الإعلان نفسه: «ميجيل بيدرولا بيامونتي» سيكون ملكًا بين ملوك الأرض. «ميجيل بيدرولا بيامونتي» سيتولى المُلك.

ورأت «لوكريثيا» حلمًا آخر بدا مطابقًا للحقيقة، امتد عدة أيام، وفيه تظهر جائحة جراد تضرب المدينة بمطرها الغريب. كانت «لوكريثيا» تشعر بوضوح بارتطام الحشرات بوجهها ويديها، وتسمع الصوت المفرقع لتلك الأجساد الصغيرة التي تراها تتجمع على وحل الشارع في كتلة متماوجة وكثيفة، تبدو حركتها أشبه بفوران لا تفسير له.

كانت البيوت كلها صامتة ومظلمة، كما لو أن المدينة قد هُجرت. و«لوكريثيا» التي كانت تتقدم طائرة فوق سجادة حية وغير مستوية، سألت الصياد العجوز إذا ما كانت تلك الجائحة المتواصلة، والتي ترتطم أجسادها في سقوطها بصوت كالبَرد، هي تجسيد لشر سيصيب الحقول، أو لشح يضاف إلى الأوبئة وسوء المحاصيل السابقة. لكن العجوز الصياد لم يشأ الإجابة، وقال لها إن على الراهب «لوقا» نفسه أن يعرف التفسير.

أجابها الراهب «لوقا» الذي كان قد ذهب إلى بيت «لوكريثيا» كي يأخذ مدونات الحلم:

ـ ولا يخامرنَّ الشك رجل أحلامك في أنني سأعرف تفسير ذلك. ومع أنه لا حاجة إلى كثير من التفكير، والأمر متعلق بجائحة، لأن الجائحة هي جائحة، ومؤذية في الواقع كنُذر خراب في الرمز والكلمة، إلا أن تلك الحشرات لن توقع في المحاصيل ضررًا يفوق نهم محصلي الضرائب.

وبتواتر أكبر في كل مرة، كان رجال الأحلام يتركون لرأي الراهب الفرنسيسكاني اكتشاف مغزى رؤى «لوكريثيا». ومع ذلك، بدا أن هناك أحلامًا لا تحتاج إلى أي تفسير، ونبوءات تقدم بذاتها مفتاح فهمها، كرؤيا حلمت بها «لوكريثيا» في شهر يناير نفسه.

فكما في الحلم الذي رأته قبل قليل من بدء غرامياتها مع «دييجو»، وجدت «لوكريثيا» نفسها في ذات المكان الذي تجسده الجدارية الضخمة في كنيسة القصر. وفي تلك المناسبة من حلمها، كان المكان خاليًا من الناس ومقفرًا من الأبنية.

عرفت «لوكريثيا» أن المكان يمثل «الفردوس الأرضي»، وفيه أبوا البشرية الأولان. ومرة أخرى، كما في تلك الأحلام التي سبقت غرامياتها، كان وجه الأم حواء يستنسخ ملامحها هي نفسها، غير أن وجه الأب آدم الذي يشبه في بداية الحلم، بصورة غائمة، ملامح وجه حبيبها «دييجو»، اتخذ على الفور ملامح الجندي المتنبئ «ميجيل دي بيدرولا»، ولم يعد يفقدها.

حواء/ لوكريثيا وآدم/ ميجيل، عاريان ووحيدان وسط تلك الحديقة المترعة بالألوان والروائح، تحت سماء هادئة وفوق عشب ندي وطري، يستسلمان لمعانقاتهما الغرامية.

أذهلتها دقة الرؤيا. ومن دون حاجة لأن يفسرها أحد، فكرت «لوكريثيَا» في أن ذلك الحلم، بعد أحلام كثيرة تتنبأ فيها بالغزو الدامي، يعلن كما يبدو عن أن فظائع الغزو ومجد الاسترداد سيتلوهما سلام الفردوس، وأبوان أولان جديدان.

لا شك في أن الحلم يتنبأ بتأسيس جديد للعالم، وأن الجندي المتنبئ وهي نفسها، «لوكريثيا» بالذات، سيتوليان مهمة بدء الإصلاح الضرورية أيضًا من خلال إنشاء سلالة جديدة. قالت «لوكريثيا»:

ـ لقد حلمتُ بـ«ميجيل دي بيدرولا» على أنه آدم جديد، سيد الفردوس ومالكه.

ولكنها حين أخبرت «دييجو» بأجزاء كبيرة من أحلامها، احتفظت بالصمت حول الأم حواء التي تبين لها أنها هي نفسها.

وقد حلمت كذلك بأن رجل الجلود والأسمال الذي يظهر لها عادة، يقطع بيديه عنق الملك. وكان الحلم بالغ الوضوح إلى حدٍّ أن الصورة لم تكن بحاجة إلى تفسير، كما لو أن مغزاها هو ببساطة إظهار ذلك الاحتضار الرهيب الذي يمكن أن يُسمع فيه صوت الدم وهو ينبجس من الجرح العظيم المنفتح مثل فم آخر في الحنجرة، تحت اللحية، بينما نظرة المذبوح، وهو ما يحدث كذلك للخنازير عند ذبحها، يشحب بريق الحياة فيها إلى أن تتحول إلى غبش كامد، كأنها من خزف أو معدن.

ومع السنة الجديدة أيضًا، عادت «لوكريثيا» لتكون مطلوبة في صالون دوقة «فيريا»، حيث ينضم في كل يوم أعضاء جدد إلى جمعية الصليب المقدس للإصلاح الجديد. فقد ترسخت قناعة «دون ألونسو» بأن رؤى الفتاة المتنبئة صارت على وشك أن تتحقق، وكان جميع المشاركين في اجتماعات الدوقة يخفون تحت ثيابهم كتفية التفتا السوداء المزينة بصليبين كبيرين أبيضين، ويُظهرون في سلوكهم الزهو الخفي لتواطئهم المقدس والسري.

وزاد من ثقة أعضاء الأخوية معرفتهم بأن أشخاصًا بارزين مثل «دون هيرناندو دي توليدو»، رئيس طائفة «سان خوان دي أورشليم»، وعددًا من الدوقات، مثل دوق «ميديناثيلي»، ودوقي «ناخيرا» و«ميديناسيدونا» يتبنون الكتفية نفسها.

غير أنه شاع في الأيام الأخيرة من شهر فبراير، الخبر عن تعرض أمين سر الملك القديم، «أنطونيو بيريث»، للتعذيب بعد اتهامه مباشرة بعملية قتل ـ جرت قبل سنوات طويلة ـ «خوان إسكوبيدو»، سكرتير «دون خوان النمساوي»، الأخ غير الشرعي للملك.

وعلى الرغم من إبداء رواد اجتماعات الدوقة سخطهم، لأنهم جميعهم تقريبًا يعتبرون «أنطونيو بيريث» رجلًا تقيًّا ومحسنًا، وبدا لهم سجنه وتعذيبه هو ثمرة سوء نية الملك ومتلقي اعترافاته، وشخصيات أخرى متنفذة، إلا أن حضورهم إلى البيت راح يتناقص، كما لو أن هزيمة الرجل الذي احتل ذلك المنصب الرفيع إلى جانب الملك تخيف من كانوا مقربين منه ومن أصدقائه.

كما أن تخيل تعذيب ذلك السيد المتأنق وجيد الملبس، والذي كان أحد أوسع رجال البلاط نفوذًا، ملأ «لوكريثيا» بالقلق، إذ كشف لها بصورة سافرة أنه ليس هناك حصانة لأحد من العقاب إذا ما قرر الملك تقييده بأغلال وسلاسل سجونه ومعاقبته بلف الحبال التي يُحسن جلادوه ضغطها.

وقد رأت آنذاك أحد أشد أحلامها الكارثية هولًا، وظهرت فيه بعض الشخصيات المعروفة لها من خلال سماعها، عدة مرات، لقراءة رؤيا القديس يوحنا الإلهي.

رأت، وسط سبع منائر من ذهب، صورة ابن الإنسان، وجهه يتلألأ كالشمس، وفي يده اليمنى سبعة كواكب، وسيف مرهف ذو حدين يخرج من فمه، ويتكلم بصوت مدوٍّ. ورأت السفر المختوم بسبعة ختوم والخروف الذي راح يفتحها، وكيف تتولى بعد فتح كل ختم الرؤى، رؤيا الخيول مختلفة الألوان وأرواح الموتى. وكيف تهتز الأرض وتتحول الشمس إلى سواد، والقمر ينزف دمًا، وتبدأ النجوم بالتهاوي. وكيف تُسمع بعد فتح الختم السابع الأصوات المدوية للأبواق السبعة المعلنة عن بَرد من نار، وبحر من دم، والأوبئة والنوائب للأرض.

ورأت أخيرًا المرأة الحبلى، متسربلة بالشمس، وعندما خرج التنين الأحمر ذو الرؤوس السبعة والقرون العشرة، وخاض الملائكة معركة ضده، كان للملاك ميخائيل وجه الجندي المتنبئ. ورأت الوحش الطالع من البحر، والصراع الرهيب، إلى أن سقطت بابل وجرى تقييد التنين لألف عام وظهرت سماء جديدة وأرض جديدة ونزلت أورشليم الجديدة من السماء.

وقد روت كل ذلك بدقة، لكنها لم تقل إن المرأة الحبلى المتسربلة بالشمس، في حلمها، كانت هي نفسها «لوكريثيا»، وأنها ستُنجب، حسب حلمها، ابنًا سيكون أمل العالم الجديد.

و«دون ألونسو» الذي كان قد سارع في المجيء إلى العاصمة بعد سماع خبر تعذيب الأمين السابق، دوَّن ذلك الحلم، وتداول مع الراهب «لوقا»، بحضور «لوكريثيا»، حول تفسيره المحتمل. وكلاهما كان يسعى لإيجاد علاقة معقولة بين الرؤى الرهيبة ونتائج عقاب أمين سر الملك القديم.

ولدى سماعها جدلهما المطول، تأكدت «لوكريثيا» من الشكوك التي كانت تخامرها أحيانًا. فهؤلاء الفقهاء اللاهوتيون لا يبحثون في أحلامها

عن إشارات نبوءات بدمار إسبانيا وحسب، وإنما كذلك عن إشارات دعم جزء من فئة النبلاء، والرعايا البارزين والمصرفيين المعارضين لقرارات الملك ومستشاريه ووزرائه، لا سيما فيما يتعلق بفرض أعباء ضريبية أخرى وسياسة الملك الحربية. وكانت تلك الفئة تؤيد الأمين القديم، مثلما هي حال الراهب «لوقا» المعروف بأنه كان صديقًا حميمًا له، و«دون ألونسو» الذي تربطه به صلة قربى، وتنتمي بوضوح إلى حزب من يواصلون دعمه ويؤمنون بأنه سيعاد إليه الاعتبار في نهاية المطاف.

وبالطريقة نفسها التي تقبلت بها «لوكريثيا» في أحد الأيام ألوهية مهمتها، وأسلمت ثقتها لـ«دون ألونسو دي ميندوثا»، تقبلت أيضًا أن توضع قراءة أحلامها في خدمة ذلك الرجل الذي كان شخصية مرموقة، وتحول إلى معاناة اضطهاد العاهل وغضبه، لكنه يستند إلى دعم حاميها وتأييده.

أضف إلى ذلك أن أمين سر الملك القديم كان بين ذكريات طفولتها، عندما كانت تذهب لسماع القداس في كنيسة «سان سيباستيان». وكان هو من رعاياها، مثل «لوكريثيا» وأسرتها، يأتي مرتديًا ملابس فاخرة، ومزينة بأشرطة لامعة ومجوهرات بديعة، وينشر، بنظرته المتوقدة والصائبة ومحياه البشوش، صورة لين جانب وثقة تُشيع بين الجيران التقدير المخلص والاحترام.

وكان في أيام ذلك الحلم «الأبوكاليبسي» أن حصلت «لوكريثيا» على أول إنذار لما يمكن أن يكون إشارة إلى أنها حبلى.

وحيال حرج الحالة، انتظرت الفتاة بقلق أن يخلصها انتهاء الشهر التالي من مخاوفها، لكن غيابًا ثانيًا، ثم ثالثًا، لما يحدد شرطها كامرأة، مع بعض الآلام التي لم تشعر بمثلها من قبل، أكدت لها أن ظنونها في محلها.

رأت «لوكريثيا» بوضوح أن انتشار خبر حملها سيقوض من دون ريب صورة الآنسة الرقيقة التي يمكن لها أن تكون مطلبًا لا بد منه لإضفاء المصداقية على الطبيعة المباركة لرؤاها، وأدركت أنه يمكن لفقدانها سُمعتها، مثلما حدث لراهبة لشبونة، أن يحمل نتائج وخيمة، ليس لها وحدها، وإنما لكل من يؤمنون بها.

وفكرت في أن الاضطراب سيصيب حياتها الأسرية أيضًا، لأن رد فعل أبيها «ألونسو فرانكو» سيكون عنيفًا حيال ما سيرى فيه، من دون شك، تلويثًا لشرفه.

الشهرة التي بلغتها «لوكريثيا» أفقدتها الخوف الذي كانت تشعر به من أبيها وهي طفلة ويافعة، بل صارت تشعر أن حملها غير اللائق يحمل معه جزاءً يستحقه ذلك الرجل المتسلط، شديد الزهو في الإعلان عن نقاء دمه، لكنه عاجز عن تأمين حاجات أسرته الضرورية، حتى إنه لم يستطع أن يوفر لابنته الدوطة الضرورية ليجعل منها شابة عادية مهيأة للزواج.

ومع ذلك، وفضلًا عن الاستياء الأسري، كانت «لوكريثيا» تقدر التأثيرات الكارثية التي يمكن أن يُحدثها خبر الحمل على «دون ألونسو» وأعضاء أخوية الإصلاح الجديد الآخرين. ولهذا قررت الاحتفاظ بالأمر كسر يجب ألا يعلم به حتى «دييجو دي فيكتوريس» نفسه، وأن تخفي قدر الإمكان وضعها الجديد، في انتظار التحقق القريب لنبوءاتها، مع ما ستحمله من انعكاسات كارثية شاملة، مما سيصرف الاهتمام العام عن حملها.

منذ ذلك الحين، لمس «دييجو» ابتعادًا من الفتاة عنه أثار حيرته، لأن «لوكريثيا»، على الرغم من عدم توقفها عن تأكيد حبها له، لم تعد تبدي

كثيرًا من الرضا عن المداعبات الحسية، وصار من عادتها الجلوس في فناء البيت الصغير على كرسي، والإكثار من الاستغراق في أفكار لا تخبره بها وترسم على محياها تكشيرة غامضة، تقف على الحدود بين البهجة والحزن، مثل تلك الملامح غير المؤكدة التي تجعل من وجوه بعض التماثيل الدينية أكثر إثارة للمشاعر.

ومثلما كانت تصرح الفتاة، لم يكن حبها لـ«دييجو» قد خفت. ما كان يحدث هو أنها لم تكن قد تخلصت بعد من القلق الذي أغرقها فيه وعيها لحملها، ولا من تقديرها المزهو للواقع الجسماني الذي تجسدت فيه رؤيا المرأة الحبلى المتسربلة بالشمس التي تواجه التنين القرمزي ذا الرؤوس السبعة والقرون العشرة.

أضف إلى ذلك أن تطور الحمل منح «لوكريثيا» بعد نظر أكبر في بعض الأمور، وصارت أحاسيسها الجديدة أكثر تطلبًا، كما لو أنها جزء من السيرورة التي تتطور في أحشائها.

كان الشتاء قد بدأ بالتراجع أمام أول تباشير الربيع، وكانت «لوكريثيا» تشم رائحة نبض الأرض المتجدد، وتلحظ في لعابها دنو تفتح الأزهار، وفي خديها النسمات الدافئة الخفيفة التي تحمل من الجبال الإعلان عن ذوبان الثلوج. وكان ذلك كله يستغرق اهتمامها من دون أن تشاء هي ذلك، كما لو أنها قد تحولت إلى جزء إضافي من تجدد ثمار العالم.

الوحول المتصلبة بالصقيع، والعابقة بأبخرة العفونة، ماعت مع هطول الأمطار، مالئة المدينة ببرك متفرقة، ومانحة الشوارع مظهر قنوات مسدودة. ثم راحت الشمس بعد ذلك تجفف الوحل، ورياح أبريل تحمل الغبار إلى كل أركان البيوت. ولكن الحياة كانت تتجدد بعد سباتها الشتوي، وبدأت

أزهار أسنان الأسد تتألق وسط القُرَّاص ونباتات أخرى استعادت خضرتها عند الحواف السفلى للأسوار والجدران.

كل شيء كان يشير إلى الانبعاث، وبشائر الولادة. ومرة أخرى حلمت «لوكريثيا» بسكينة «الفردوس الأرضي» الوادعة، حيث تتعايش الضواري المفترسة مع الحيوانات الأليفة، وتتفتح في مروجه المترامية آلاف الأزهار العطرة، بينما الطيور تغرد بين الأغصان المتشابكة، فوق مياه الجداول الرقراقة التي تصفع أجساد الأسماك المتفلتة.

في عذوبة تلك الأماكن العجيبة، يتنزه آدم/ ميجيل وحواء/ لوكريثيا، بينما يتشكل في أحشائها الوريث الأول للسلالة الجديدة.

# ١٨

إلى جانب تلك الأحلام الوادعة التي تشير إلى ما ستصير إليه إسبانيا والعالم بعد استردادهما بقوة السيف المقدس والدين الحقيقي، لم تتوقف «لوكريثيا» عن رؤية أحلام أخرى تُظهر الواقع المخيف الذي تكشفه أحلامها المعهودة.

حلمت بأن «إيزابيل كلارا أوخينيا»، ابنة الملك العازبة، تؤنب أباها لأنه لم يستمع إلى تحذيرات «لوكريثيا»، بعد مقارنة الذكرى المجيدة لأسلافه بممارسات من يضيع حاليًّا شؤون إسبانيا بسوء حكمه. كانا معًا في واحدة من قاعات البرج الذهبي، تتوالى على جدرانها فراغات النوافذ ولوحات الرسم الكبيرة والمرايا العميقة. وكانت «لوكريثيا» في إحدى المرايا، تراقب انعكاسًا لابنة الملك عن قرب. صرخ الملك غاضبًا:

ـ سآمر بحرقك ما لم تصمتي.

ترد عليه الأميرة باكية:

ـ فلتأمر بحرقي، لكنك تعرف جيدًا أنه لا يمكن حرق الحقيقة.

وفي يوم آخر، عادت «لوكريثيا» لتلتقي في أحلامها بالملك، وكانت عيناه معصوبتين، وعلى أذنيه أقفال، وعلى فمه ملقط، ويداه مكبلتان بالأصفاد، وقدماه مقيدتان بالحبال. وكان هناك أمامه ثلاثة ملائكة غاضبون، تلا أحدهم حكم الموت ضد الملك الصادر عن مجلس الثالوث المقدس.

وكما لو أنه يؤكد النهاية المشؤومة للملك، ضمن الحلم نفسه، ولكن في ليلة مختلفة، جاء الرجل ذو الأسمال، محاور «لوكريثيا» المعهود، ليقول لها، بإيماءة شديدة الصرامة، إنه لم يبقَ لـ«فيليبه» في الحكم سوى مائة وخمسين يومًا.

أبدى «دون ألونسو» قناعة راسخة بذلك وبالأحداث الكارثية التي تقترب، فأمر بتسريع أكبر لتصوير أحلام «لوكريثيا» في لوحات تزين بها كنيسة «السوبينيا» وتُستلهم منها رسوم وزينات السجاجيد التي ستُعلق في القصر عندما يشغله عاهل إسبانيا الجديد.

كان «دون ألونسو» يقول لـ«دييجو دي فيكتوريس» في إحدى رسائله:

ـ سيحكم «ميجيل» عما قريب، وفق ما تشير إليه أحلام متنبئتنا الإلهية. ولا بد من تهيئة أشياء كثيرة تتطلبها خدمته، ومنها زينات قاعات بيته الملكي وحجراته.

بدأ الرسام بالذهاب إلى بيت «لوكريثيا» وسأل كثيرًا عن شكل أسلحة الصليبيين الجدد وألوان ملابسهم، ومواصفات المكان الذي تدور فيه معاركهم البطولية ضد الغزاة الذين أراد أن يعرف كذلك مظهرهم والأسلحة التي يستخدمونها.

كانت زيارات الرسام، و«دييجو»، والراهب «لوقا»، و«دون جييِّن»،

وغيرهم من أعضاء الأخوية، والخروج لسماع المواعظ، وحضور القداديس والاجتماعات في بيت الليدي «جين دورمير»، تُبقي «لوكريثيا» مشغولة بحيث لا يكاد يتسع لها الوقت للتفكير في حملها، وعندما تفعل ذلك يكون من أجل اكتشاف أنه في وعي الحياة، كما في الأشياء، يمكن أن توجد كذلك حجرات وغرف، أماكن متنوعة، معزولة بعضها عن بعض، حيث تأخذ تلك العزلات بالاستقرار بوضوح في وعيها، فالأجواء التي هي فيها متنبئة عرافة، مختلفة عن أجواء أخرى كانت فيها فتاة عاشقة، وهذه مختلفة بدورها ومنفصلة عن أجواء كانت فيها ابنة أسرة مشغولة بتأمين أسباب الحياة لذويها. وأن هناك أخيرًا، حجرة تنتمي إليها وحدها، الحيز السري لحملها، تلك الاختلاجة الداخلية التي تشكل جزءًا من القوة نفسها التي تفتح براعم الشجر، وتُزهر أزهار الأقحوان الصغيرة، والزنابق الكبيرة، وتعشش اللقالق في أبراج الكنائس.

كان الوقت منتصف أبريل، عندما انتشر خبر تمكن «أنطونيو بيريث» من التحرر والهروب من سجنه. فمنذ أمر الملك بتعذيبه، كانت المدينة تتلقى باستنكار سافر أخبار احتدام الغيظ الملكي، وذلك التعذيب الشرس لمن كان المستشار المفضل لدى العاهل. وكان يقال إن الملك، بمعاقبته «بيريث»، يريد أن يلقي على كاهل هذا الأخير كامل مسؤولية موت سكرتير «خوان» النمساوي المدعو «إسكوبيدو»، وإن كان الرأي الشائع هو أن «بيريث» لم يفعل سوى تنفيذ أمر الملك نفسه الذي لم يكن يثق بأي شخص يتصرف من تلقاء نفسه، وخصوصًا مَن هو قادر، مثل أخيه غير الشرعي، على بلوغ تألق يمكن له أن يعرض سلطته للخطر.

وفي حالة «بيريث»، كان الحديث يدور كذلك عن الغيرة، وعن أنه

لا بد لكراهية الملك لأمينه القديم من أن تكون عظيمة جدًّا، إذ لم تستطع تهدئتها الرسائل المحزونة والمتوسلة التي أرسلتها إليه زوجة السجين، وهي ابنة أحد أشهر رسامي البلاط وأقربهم إلى العاهل نفسه.

وتبدى سلوك الملك أشد فظاظة مع الخبر القائل: إن «دونيا آنا دي ميندوثا»، أميرة «إيبول»، وكانت قد اعتُقلت في الوقت نفسه الذي جرى فيه اعتقال «أنطونيو بيريث»، قد احتجزت في حجرة عالية من برج قصرها في «باسترانا»، وأُغلقت نافذة سجنها الوحيدة بقضبان حديدية بالغة المتانة.

كان الراهب «لوقا دي أييندي» هو من يأتي بالأخبار الجديدة إلى بيت دوقة «فيريا»، وقد روى بمظاهر تقدير عظيمة حادثة الهروب:

ـ لا بد أن تعرفوا أن «أنطونيو بيريث» قد خرج من سجنه في ليلة الأربعاء المقدس، من دون أن يكسر قضيبًا حديديًّا، أو ينتزع قفلًا، أو يهدم جدارًا.

ـ ألم يره أحد؟ ألم يره حتى الحراس أنفسهم؟

ـ لم يره أحد. الحقيقة أن أربعة حراس كانوا يتولون حراسته.

ـ ليس معروفًا إذن كيف فعل ذلك.

ـ لا، ليس معروفًا. وكل ما هنالك أن الحراس اكتشفوا فجأة أن كتلة جسده الذي يبدو نائمًا في الفراش، لم يكن سوى جلد منفوخ.

قالت الليدي «جين دورمير» بذهول:

ـ يبدو أن في الأمر سحرًا.

ردَّ الراهب «لوقا»:

ـ وكيف يمكن تفسير ما حدث إلا بأنه سحر؟ وإن كانت قداسة يوم الهروب ومسيحية السجين البارز الورعة يشيران إلى أنه سحر أبيض، يجد الرضا في عيني الرب الذي أتاح لعملية الهروب النجاح.

ـ وماذا هناك عن الملك؟

ـ يقال إن الملك ووزراءه مغمومون وغاضبون. ويقال كذلك إن المأمورين القضائيين والحارسين المسؤولين عنه قد تواروا عن الأنظار خوفًا من العقاب.

جرى الاحتفال في بيت دوقة «فيريا» بعملية الهروب باعتبارها انتصارًا للبراءة على القسوة، ومثالًا على حماية العناية الإلهية للعادلين وإرباكها الأشرار. لكن الفرحة لم تكن صادقة بالكامل، وواصل بعض أعضاء الأخوية التغيب عن الحضور بذرائع واهية، إذ كان خوفهم يزداد من النتائج التي قد يجلبها لهم ارتباطهم بحزب السجين الهارب.

وفي أحلام «لوكريثيا»، ظهرت امرأة ضخمة تلتف أفاعٍ على ذراعيها، وترتدي ملابس المحاربين الرومان الذين يمثلون حراس آلام المسيح في بعض المواكب الدينية. وكانت المرأة الضخمة تمتطي ظهر ثور عظيم، وتجوب أشهر شوارع المدينة، وهي تهز سيفًا تقطع به رؤوس الأطفال. وتصرخ بصوت قوي ومرعب:

ـ يا لمصيرك يا إسبانيا! ويا لمصيركم أيها الإسبان الغافلون!

استيقظت «لوكريثيا» وظنت أنها ما زالت تسمع في صمت الليل أصداء ذلك الصوت الذي يتنبأ بنذر مشؤومة. داهمتها شكوك مفاجئة، فلم تعد تدري إذا ما كانت النبوءات المشؤومة موجهة إلى مستقبل البلاد التعيس،

كما تقول مباشرة، أم أنها رسالة موجهة إليها هي نفسها وإلى أعضاء الأخوية في تلك الجمعية التي آمنت بحتمية تحقق رؤاها.

في إحدى المناسبات، بدأت الأمكنة المنفصلة التي تتطور فيها مختلف تجارب حياتها بالتواصل فيما بينها: «لوكريثيا» تمضي ذات صباح في أرض خلاء تابعة لكنيسة عذراء «أتوتشا»، بالقرب من جبل ناسكة «سان بلاس»، فداهمتها فجأة آلام المخاض. ذُعرت أمها كثيرًا وطلبت منها «لوكريثيا» أن تذهب بحثًا عن قابلة تساعدها في اللحظة العصيبة. تأخرت القابلة في المجيء، ومع ذلك تولى أبوها «ألونسو فرانكو» مساعدتها، وحمل إليها إبريقًا من الحليب.

كان «ألونسو فرانكو» يقول:

ـ لستِ في المخاض يا ابنتي.

راح يكرر، مشيرًا إلى أجل زمني لم تستطع «لوكريثيا» فهمه:

ـ لا يمكن أن تكوني في المخاض.

ولم يبدُ في صوت «ألونسو فرانكو» وحركاته، على الرغم من معرفته بحال ابنته، أي أثر للغضب أو العداء تجاهها. تؤكد «لوكريثيا»:

ـ نعم يا أبتاه، إنني في المخاض.

دمدم الأب، بمزاج معكر هذه المرة:

ـ لم تكملي بعد الأشهر التسعة!

وأخيرًا حضرت «آنا أوردونيث» ومعها «دييجو» والقابلة، وهي امرأة تخفي رأسها ووجهها خلف عباءة كبيرة.

صرخ من بطن «لوكريثيا» صوتُ من سيولد:

ـ لا أريد الولادة على يدين مدمِّرتين!

أرعبت تلك الأعجوبة القابلة وأجبرتها على الابتعاد جانبًا، قبل أن تعترف، بندم شديد، بأنها كانت تنوي خنق الطفل بناء على أمر تلقته.

وأحضروا أخيرًا قابلة أخرى مكشوفة الوجه، وتحمل تاجًا لامعًا. وبعد أن تعاملت مع ولادة الطفل ولفته بملاءة، وضعت القابلة التاج فوق الجسد الصغير ورشته بماء مبارك، كي تساعده على العيش. ثم تناولت «لوكريثيا» الوليد بين ذراعيها، وكان ذكرًا، لترضعه، وقررت أن تطلق عليه اسم «كارلوس»، لأنه اسم إمبراطور، وفكرت في أن الحياة تعده بأمور عظيمة.

أحضر «ألونسو فرانكو» عربة جر ليحمل ابنته وحفيده إلى البيت، وجرى التعميد بعد أيام من ذلك.

كان الطفل ينام في مهد إلى جوار فراش «لوكريثيا»، وعندما استيقظت في اليوم التالي للتعميد، وجدت أن المهد قد اختفى. وقد احتاجت إلى وقت طويل كي تدرك أن ما ظنته حقيقة ومعيشًا، لم يحدث إلا في الأحلام.

وقد ظهر الطفل مرات أخرى في رؤاها، وعلمت «لوكريثيا» أنه ابن «ميجيل دي بيدرولا»، زوجها الوحيد والحقيقي، الزوج الذي خصها به الرب لكي يتمكنا معًا، بعد خلاص إسبانيا والمسيحية، من الحكم في عالم مستعاد، بديع كالحدائق المرسومة، وكفردوس الطهارة الأصلية الذي تتحدث عنه الكلمة المقدسة.

تواصل الحبل السري وأمكنة رؤاها، حمل إلى «لوكريثيا» كثيرًا من السلوى، للمصير السعيد الذي يقدمه لها ولابنها، إلا أنه أقلقها قلقًا عظيمًا،

وهي تدرك أن الزمن يمضي من دون أن يقع الغزو الرهيب الذي يتهدد إسبانيا، وأنه سيكون من الصعب، عما قريب، إخفاء علامات حملها. لا سيما أن بعض الجارات، من دون أي أثر للخبث، بدأن بإبداء تقديرهن لسمنة «لوكريثيا» وتحسن صحتها، وصارت أمها تحمد الرب، وتجد في ذلك دليلًا ملموسًا على انقضاء المرض والانحطاط اللذين أصابا ابنتها شهورًا طويلة.

وبمناسبة عيد القديس «سنتياجو الأخضر»، أصرت «آنا أوردونيث» على حضور الاحتفال مع أبنائها جميعًا. كانت تتلهف رغبة في أن تُرى برفقة المتنبئة المشهورة، وأن تُظهر من خلال ملابسها مدى الازدهار الذي عرفته الأسرة، بحيث لم تستطع «لوكريثيا» مقاومة رغبة أمها. ولكن الفتاة تعللت مع ذلك بأنها تشعر بشيء من الاعتلال، وظلت طوال الاحتفال جالسة في الظل الشحيح الذي توفره أوراق أشجار الحور حديثة الظهور والمائلة إلى الحمرة.

وسط تلك البهجة العامة، أحست «لوكريثيا» بأنها وحيدة ومعزولة. ذلك أن المكان يخلو من أي فجوة تسمح بتخيل العالم الآخر، عالم الرؤى والأحلام التنبئية، والذي يبدو أنه حقيقي، ولكن كوعد فقط.

كان الحر يعلن عن مجد مايو، وسلطة التجدد تضع لمستها على كل ما هو حي. وكان ذلك المكان حضورًا مؤكدًا، وحصريًّا.

عادت «لوكريثيا» عندئذ إلى الشك برؤاها، وبحكمة من يؤكدون على صوابها. ووجدت نفسها مفعمة بالقلق، إذ ليست سكينة الفردوس هي المنتشرة تحت الشمس المشرقة وقوة الربيع، وإنما مملكة يتمسك فيها الأقوياء المتنفذون بامتيازاتهم معارضين بعناد كل ما يمكن أن يهدد

سلطتهم، والرب بعيد، فيما وراء الشمس وتحت الأرض الربيعية، في مملكة الأموات.

وهكذا راح تألق النهار، ومرح الراقصين، وأصوات المزامير والطبول، تكتسب لدى «لوكريثيا» إيقاعًا حزينًا. كانت تشعر أن كل تلك السعادة، وكل تلك الموسيقى تتلاشى فور انتشارها، وتلقى المصير سريع الزوال نفسه الذي تلقاه الأزهار الصغيرة المشرئبة بجمالها البائس بين أعشاب المرج وأوراق الحور الغضة.

وكي تخمد حزنها، استعدت «لوكريثيا» للقراءة. فقد صارت قادرة على فهم معنى الكلمات المطبوعة أو المكتوبة يدويًّا، وكان «دييجو» قد أهدى إليها دفترًا فيه كثير من الأشعار التي استنسخها بخط بالغ الوضوح والجمال. بعضها من نظمه وبعضها من تخيلات شعراء آخرين يروقونه.

اختارت قصيدة لا على التعيين، ولكنها بدل أن تجد السلوى لهمومها وأفكارها المشؤومة، جاءت القراءة لتعزز كربها:

يهرب العيش، وهو غير واثق أبدًا

والموت يطوي وراءه المراحل

وأشياء الحاضر والماضي

تحاربني، ومعها المستقبل

الانتظار والتذكر قاسيان

أشعر بهما في كل مكان

وقد انتهت همومي وأحزاني

لكن كل شيء يتصلب رحمة بي

أمامي تتبدى العذوبة

إذا ما كنتُ قد نلتها يومًا

وأرى من جهة أخرى الرياح والكدر

أرى الربان متعبًا، والحظ أسود

في المرفأ، والصواري مكسرة

ونجومي المرشدة بلا ضوء، ميتة تمامًا

انتهت من قراءة «السونية» وأحست بغم شديد. كان وقت غروب الشمس، وكانت رقصات الاحتفال الشعبي في ذروة حماسها.

ظهور ظل على الشرشف الذي تناولوا عليه وجبة العصر جعلها ترفع رأسها، ووجدت «دييجو» واقفًا أمامها، يتأملها بقلق:

ـ «لوكريثيا»، يا حياتي، ما الذي أصابكِ؟

مسحت «لوكريثيا» دموعها بيديها:

ـ أأنت مؤمن حقًّا بأن رؤاي ستتحقق؟

# ١٩

في تلك الساعة نفسها، كان الملك في البرج الذهبي يتأمل الشمس الغاربة من نافذة في حجراته. وعند أسفل البرج، في الحديقة الصغيرة التي لا يرتادها أحد سوى الملك، يغرد عندليب بحماسة، وترد عليه عنادل أخرى بالاندفاع ذاته، وكل منها يحتل مكانًا محددًا بين أشجار الدغل، بعيدًا في الأسفل.

كانت ظلال المساء قد أظلمت الدروب المحيطة بالبيت الملكي الريفي، في الجانب الآخر من النهر، وبرك الماء، بين تشابك أشجار السنديان القاتمة، تعكس على سطحها زرقة السماء الضاربة إلى الوردي.

وبسبب نوبة داء النقطة، اضطر الملك إلى الاستناد على عكاز، يثبته بيديه المشدودتين. كان يبحث في الأفق عن المكان القريب من الجبال، حيث ينتصب بناؤه المفضل الذي خصه بكثير من الجهد والمال. وقبل يومين، في رسالة كتبها، على الرغم من مضايقات داء النقطة، إلى ابنته «كاتالينا»، قال لها الملك إن حالة الجو كانت سيئة خلال أسبوع الفصح، بحيث لم يتجرأ على الذهاب إلى هناك. ومع ذلك، قدَّر الملك بكآبة أن

تصريحه ذاك هو نصف الحقيقة، ففي سنوات أخرى كان الجو خلال الأسبوع المقدس ماطرًا جدًّا أيضًا، ولم يتخلف مع ذلك عن الخلوة في ذلك القصر الذي هو مركز حياته وملكه الحقيقي، ليحيط نفسه بالضيافة المزدوجة في الاحتفالات الدينية وبوادر تجدد الربيع.

لكنه لم يستطع في هذه السنة التفكير في خلوة الصلاة الإلهية وتأمل الحياة البرية. فقد راحت تؤخره، ثم منعته من الذهاب أخيرًا، أحداث فرنسا، وهروب «أنطونيو بيريث»، وعداء البابا المتزايد، وأوجاعه، وقبل ذلك كله الهجران الذي يطفو من وعي شيخوخته ومن إنهاك تشتد مضايقته أكثر فأكثر.

في سنوات أخرى، وفي مثل ساعة غروب الشمس هذه، كان الملك يخرج للنزهة بين أشجار السنديان والصخور الضخمة، متأملًا من بعيد آخر الانعكاسات الذهبية على الجدران الطويلة التي تتوالى فيها النوافذ بدقة، وتحدد الأبراج في أقصاها الزوايا الجانبية للبناء المكعب، وجملون السطح الهائل المرصع بجواهر الحجر المصقول الذي يشكل قبة الكنيسة والبرجين المجاورين لها.

وعلى جانبي تلك الدروب، لا بد أن تكون قد نبتت في هذا الوقت براعم القصب الصغيرة البيضاء المختلفة اختلافًا كبيرًا عن أخواتها الفلامنكية، وفطور الغوشنة الغريبة الضاربة إلى الصفرة والمشهورة بلذة مذاقها، لكنها لا تفقد سُميتها إلا بعد الطهو، وأزهار النسرين قليلة البروز، وحزم البَروق الإبرية التي تتفتح عناقيد أزهارها البيضاء مع اقتراب الصيف. وفي محيط المكان، في الجبل الصامت والكامد، تكون قد بدأت بالتفتح أول أزهار اللاذَن.

بعد صمت مفاجئ، عاد عندليب الحديقة مجددًا إلى تغريده القوي.

وفكر الملك، بإحساس من الإعجاب والحسد، في أن الرب موجود هناك، يغرد مختفيًا بين تشابك أغصان إحدى الأشجار، مثلما هو في مياه البحيرة البعيدة، في أسماك الشبوط الباحثة بقلق عن غذائها، وفي الغزلان التي تقضم العشب عند أسفل سياج جناح الصيد الذي هو في هذه الساعة مجرد شبح بين ضخامة أبنية البيت الريفي التي يزداد شحوبها مع العتمة الآخذة بتغطية الأرض الممتدة فيما وراء النهر. ولكن الرب موجود كذلك في الشمس التي تكاد تختفي، وفي الأشجار الآخذة بالتجمع في عتمة مطموسة المعالم، وفي الجبال التي تسدُّ الأفق بذراها.

حسد الملك هو نوع من الحسد الورع المفعم بالتقوى. فقد تجرأ أحيانًا، وهو وسط الغابة أو في أثناء تجواله في البستان أو الحديقة، على تخيل تلك الماهية الإلهية، ذلك الحضور السرمدي وغير القابل للتبدل، ذلك التأمل الهادئ الذي لا يمكن لأي حاسة توقع أن تعكره: في سماع خرير الينبوع المتواصل وخفق أجنحة العصافير البطيء، وفي مراقبة البركة حيث يتحرك من دون راحة تحت ظاهر مائها الراكد ما لا حصر له من الحيوات التي تسكنها، شاعرًا بأنه جزء من كل ذلك السكون الصاخب، وأنه زمن بلا سمات ولا تقاويم، زمن بلا حدود وبلا نهاية، يتجدد في اللحظة نفسها التي يُستهلك فيها.

منذ سنوات طويلة، يفكر الملك أنه في لحظات الغابة، لحظات الحديقة هذه، في انتشائه أمام نبض الطبيعة السري، تكون أكثر الساعات حقيقية في حياته. فلا معانقات عشيقاته الفاتنات وزوجاته الممتعات، ولا حتى هذه اللحظات التي ستجري فيها الاحتفالات الدينية أو لحظات التأمل الورع والتدقيق بمقتنياته المحببة من رفات القديسين وآثارهم، قادرة على أن

تبعث في روحه النشوة الكاملة. وفي حياته كلها، الموسومة بحروب غير نهائية، ومؤامرات ضخمة، وهموم مالية، حاول العثور على لحظة النأي بنفسه عن الكائنات والأشياء البشرية بحثًا عن حدس التلاشي ذاك الذي يوفره صمت الغابة.

لأن ميله الحقيقي كان دائمًا هو هذا التلاشي، هذا الشرود بتكاسل فضولي في إيقاع الغدران الخفية، قريبًا من البحيرات الحالمة، تحت أشجار الكستناء القادرة على تركيز أشد ظلال الصيف كثافة، بينما الحشرات تلمع تحت الشمس ببريق ألوان مفاجئة من أجسامها وأجنحتها.

لقد منحه الرب التيجان ومن هم في خدمتها، وكلهم عظماء: الجيوش، محاكم التفتيش، واجبات المنح والعقاب. وكان عليه أن يتعلم التلاعب بالرجال في العالم مثلما يلعب المقامرون بورقهم وأصابعهم على طاولات اللعب، محاولًا المراهنة ببراعة، وبخداع إذا اقتضى الأمر، ومعرفة الابتعاد في الوقت المناسب وعدم تجاوز الحدود. وكان عليه أن يلجأ من دون تردد إلى استخدام المكيدة والغموض، منصة التعذيب والمشنقة، السم والمحرقة. وقد فعل كل شيء، وهو وريث تاج عظيم، ويفعله تنفيذًا لواجبات فرضها عليه الرب، هذا العندليب الذي يغرد على الأغصان، ويجعله يشعر في بعض الأحيان بأنه مخادع يتظاهر بأنه الملك، مع أن قلبه غائب على الدوام عن هذا الجسد الجليل والمهيب.

في الوقت المحدد بدقة، بدأ الخدم في إشعال المصابيح. وعندما سمع الملك وقع خطواتهم، التفت نحوهم ونظر إلى ما يفعلونه. وكان الراهب «دييجو دي تشافيس» جالسًا قبالة المنضدة الملكية، ينتظر بصمت. ووراءه، على الجدار، رسم مهرج مجنون يبدو أكثر حيوية من كتلة الراهب.

جمود جسد الراهب الحي يغوي الملك، هكذا في الوضع الذي هو عليه: إنه جالس لأنه هو نفسه أمره بالجلوس. وجمود هيئته الكامل يعكس تنفيذه الدقيق للأمر الملكي، لكنه يحافظ في وضعية جسده تلك على مظهر انزواء النساك، إذ لا يسمحون لعضلاتهم بفقدان توترها في الزهد المتواصل. الراهب يوشك على بلوغ التسعين من عمره، لكن نحوله يمحو أثر السنين ويجعل ذلك الجسد يبدو بلا سن محددة، كما لو أنه لا يتكون من مادة الزمن وإنما من التطلعات الروحية إلى التقشف الدائم.

ومع ذلك، يقدر الملك أنه لا يمكن لمتلقي اعترافاته أن يتفهم أبدًا مشاعره العميقة كمخادع، وتعبه من اضطراره، ساعة إثر ساعة ويومًا بعد يوم، إلى القيام بدور الملك هذا الذي خص به الرب من كان بمقدوره أن يكون حارس صيد رائعًا، أو بستانيًّا بارعًا، أو جنائنيًّا عظيمًا.

سيمنحه الغفران من دون شك، مثلما يغفر له على الدوام كل ما يعترف به، ولسوف يقول له، حتى في وساوسه المحتملة، مثلما قال له في مناسبات كثيرة: «مهمتي ليست محاكمتك، وإنما نقل مغفرة الرب إلى جلالتك». لكنه لن يستطيع فهم الكائن المزدوج الغريب الذي تضمه شخصية الملك الوحيدة. ولن يفهمه لأن الراهب «دييجو دي تشافيس»، مثل الأمناء والوزراء، ابتداءً من «ماتيو باثكيث» وحتى اللعين «أنطونيو بيريث»، ينجزون أقصى طموحاتهم من خلاله ككائن وحيد، وإرادة لا تتجزأ.

الراهب «دييجو»، الدكتور من أشد جامعات المملكة غموضًا، صانع ومحطم المطارنة والكرادلة، وحتى البابوات أنفسهم، من منصبه الذي يحسده عليه كل رجال الدين في إسبانيا، استطاع أن يصل، من دون أن يتوقف عن إعلان مقته لحياة البلاط وازدرائه للسلطة، إلى ذروة أشد

تطلعاته سرية. و«ماتيو باثكيث»، ذلك اليتيم الذي تخلى عنه أبواه ويوقِّع الآن وثائق الحكم بخط أكبر وأشد ثقة من خط الملك نفسه، والذي يكتب للخَلَف، كما يقال، حكمًا وأفكارًا فلسفية، ما كان يمكن له أن يحلم بمصير أفضل، بالنظر إلى وضاعة أصوله.

ولدى التفكير في الخائن اللعين «أنطونيو بيريث»، محتكر العطايا والهبات الفاسد، ومراكم الثروات غير الأمين، يشعر الملك بضيق شديد، ويتوجه نحو منضدة مكتبه. الرب موجود في العندليب، في سمكة الشبوط، في شجرة السنديان، في الشمس الغاربة. إنه فيه هو نفسه، في هذا اللحم الفاني الذي سينجو إلى الحياة الأبدية بفضل دم الفداء الإلهي ليسوع. أما هو فليس ربًّا، بل ليس مجرد عندليب، وإنما هو ملك وحسب، وإن كان أوسع ملوك العالم سطوة.

عينا الراهب «دييجو» الحليبيتان بفعل التقدم في السن، ترصدان تقدمه البطيء. وأخيرًا يجلس الملك على كرسي مكتبه ويتنازل لمعالجة المسألة التي طرحها عليه متلقي اعترافاته.

يقول له:

ـ أكمل.

يرقبه الراهب «دييجو دي تشافيس» من دون أن يرمش، ثم يكرر ما كان قد قاله قبل أن ينهض الملك ويأمره بعدم التحرك، ليدنو من إحدى النوافذ ويتأمل غروب الشمس:

ـ أريد أن أحدثكم عن تلك الحالمة المشهورة وأتباعها.

ـ مرة أخرى؟! أما زلت مهتمًّا بأمر تلك المرأة التافهة؟ أوَلم تتضح

هذه القضية منذ سنتين، عندما استجوبتها أنت والراهب «خوان دي أوريبِّانا»، مع نائب المطران «نيروني»؟

الراهب «دييجو» يعرف الملك جيدًا، ولديه فائض من الأدلة على قوة ذاكرته، ويعتقد بأن سؤال الملك عن اتضاح القضية لا يُعزى إلى النسيان، بل إلى تلميح ساخر هو من طباع العاهل التي لا يسبر غورها. لكن الراهب «دييجو» لا يتعامل بالسخريات، وهي لا تروقه أيضًا. ويُفَضِّل أن يتقبل الأمر، كما في مناسبات أخرى، على أنه نسيان ملكي. ولسوف يسوي الحسابات، بصورة غير مباشرة، عند تلقي اعتراف الملك، حيث لن يكون بالإمكان تخيل أي نوع من السخرية:

- لقد اتضحت القضية، لكنها لم تُحل يا مولاي. فقد توصلتُ أنا والراهب «خوان دي أوريبِّانا» إلى أن أحلام تلك السوداء ليست وحيًا من الرب، وإنما هي ناتجة عن ضعف في العقل أو عن غرور روحها في أن تكون موضع تقدير، أو أنها وحي من الشيطان الذي يحاول إفساد إسبانيا من خلالها. وهي من جهة أخرى تناقض نفسها بنفسها، فتؤكد أنها لا تؤمن بأحلامها، ولكنها تشيعها لتؤلب العامة. ونحن لم نجد فيها روح النبوة، وإنما الاحتيال والإغواء، وأنه لا بد من معاقبتها.

- ولماذا لم تُعاقب هذه المتنبئة الزائفة؟

أجاب الراهب «دييجو دي تشافيس» من دون أن يفقد صوته هدوءه المعهود:

- مولاي، ما كان عليك أن تسأل عنه الراهب «جاسبار دي كيروجا»، حاكم تفتيشك الرسولي العام.

يوشك الملك أن يبتسم، لكنه لا يفعل. فالبستاني يعرف جيدًا كل أركان الحديقة، ويعرف أن النباتات الثمينة في الحديقة، مثلها مثل الأعشاب الضارة، تحاول الانتشار، وشغل مزيد من الأرض. ومهمة البستاني هي انتزاع الأعشاب الخبيثة، إنما عليه أيضًا أن يُقَلِّم النباتات الحميدة، ويجعلها تنمو بصورة متناسقة. ويا لهذا الراهب «دييجو دي تشافيس» من نبتة خشبية، قوية مثل إكليل الجبل أو الخزامى، لكنها تسعى باستمرار إلى شغل أماكن نباتات أخرى ضرورية، مثل الكردينال المطران. في بعض الأحيان يتكلم متلقي الاعتراف، وهو الطاعن في السن، عن سن الكردينال «كيروجا» بتلك الشفقة الظاهرية التي لا تستطيع مواراة الانتقاد. فالكردينال، في رأي «تشافيس»، صار عجوزًا جدًّا وغير قادر على التصرف بالسرعة والصرامة اللتين تتطلبهما بعض القضايا. ومع ذلك، فإن الراهب «دييجو» أكبر سنًّا من «كيروجا».

ـ المفتش العام لا يرى أن هذه القضايا شديدة الخطورة.

ـ لقد كان ممانعًا أيضًا في قضية «بيدرولا» كما تعلمون. لكن هذه الرؤى والتنبؤات تشكل جزءًا من شبكة تآمر أصدقاء «أنطونيو بيريث». وعندما أطلعتكم على القضية أول مرة، قلتم لي إنه لم يكن من ممارسات أبيكم الطيب الإمبراطور حمل أمور الأحلام والصبيانيات هذه على محمل الجد أو اتخاذ موقف منها، وإنك أنت لن تفعل ذلك أيضًا. لكن الصبيانيات في هذه المرة تجاوزت كثيرًا ما يمكن غفرانه. فهناك حول هذه الحالمة أناس لا يحبونكم. هناك القيم على دير «سان فرانثيسكو» الذي تلقى في يوم هروب «بيريث» بالذات بعض الثروات والمجوهرات من الخائن، ويبدو أنه خبأها لتكون بمنأى عن يد العدالة. وهناك «دون ألونسو دي ميندوثا»، رئيس دير «سان

بيثنتي دي لاسييرا»، وهو أيضًا من حزب «بيريث» و«دونيا آنا»، المتواطئة معه، وقد حمى «بيدرولا» من قبل، ودعم كل القضايا التي من شأنها معارضة سداد حكمكم، والذي تُعرف ميوله الجنونية نحو كهانة الأحلام والتنجيم. وهناك تلك الجمعية ذات الصلبان البيضاء، على الرغم من أنها تبدو غير معارضة للإيمان الكاثوليكي المسيحي، إلا أنها هدامة جدًّا في أهدافها النهائية، لأنها تتواءم مع تنبؤات الحالمة حول خراب إسبانيا واستردادها بعد ذلك انطلاقًا من مغارة «كوفادونجا» متجددة. والدليل على قوة الجماعة هو أن هناك، كما يبدو، نبلاء كثيرين يدعمونها، وكبير مهندسيكم وضابط إيوائكم نفسه يشرف على تخطيط التحصينات التي سيلتجئ إليها أعضاء الجمعية عندما تتحقق نبوءات الحالمة المشؤومة.

انتزاع الأعشاب، حرقها، استخدام مِشذَب التقليم، الذهاب والمجيء المتواصل لقلع الأشواك والأعشاب الضارة، والري، والوقاية من التلوث وانتقال العدوى والأوبئة. التلميحات إلى أسوأ عشبة بين الجميع تضاعف من قلق الملك الذي أحدثه تذكره الأول للخائن. فعلى الرغم من أن خصومة الراهب «دييجو» القديمة للمفتش العام ظاهرة وراء أحكامه، إلا أن الصحيح أن الأخير منهما كان رحيمًا على الدوام مع أصدقاء الأمين السابق الذي يدين له بمنصبه في نهاية المطاف.

وفجأة يجد الملك نفسه في حالة من الكسل، لأنه يتضايق من بذل الجهد لاتخاذ أي قرار، ليس في روحه فقط، وإنما كذلك في أعضائه الجسدية، في عضلاته، في أعصابه، مثلما يشعر البستانيون من دون ريب في أجسادهم بوطأة العمل. فيلتزم الصمت هنيهة. ثم يسأل أخيرًا:

ـ وماذا تقترح؟

ـ مولاي، أعتقد أنه يتوجب علينا أن نعرف جيدًا إلى أين تصل نشاطات هذه الجمعية، وكل ما يمكن أن يكون قد تورط فيه «دون ألونسو دي ميندوثا»، والقيم على دير «سان فرانثيسكو» وغيرهما من أتباع المتنبئة الزائفة في هذه القضية. وإذا ما كانت هناك مادة، سأطلب من مجلس التفتيش الأعلى التدخل.

يدرك الملك أنه ربما يتوجب على البستاني في هذه المرة أن يقلِّم بعض أغصان الكردينال مطران طليطلة، وأنه يتوجب على أيدٍ خبيرة أن تنتزع بعض الأعشاب وترمي بها خارج الحديقة، أو ربما تحرقها، إذا ما كانت الحزمة كبيرة.

عندئذ تتجسد صورة الفتاة في مخيلته. عندما حدثوه عنها أول مرة، تذكر أنه رآها في القصر، بين خادمات مربية الأمير. إنها صبية ذات بشرة فاتحة، وشعر كستنائي، وعينين شديدتي السواد، حيوية، في جسدها مزيج مقلق من المراهقة والنضوج: بقايا من الطفلة التي كانتها وسلفة مسبقة من المرأة التي ستصير إليها، مقدمة هيئة قادرة على شدِّ انتباه الرجال. فتاة بائسة، سعت إلى البروز والشهرة عبر طريق خطرة، من دون أن ترتضي محدودية أسرتها ووضعها.

وكما هي الحال على الدوام تقريبًا، فإن التطلع إلى التغيير هو ما سيقودها إلى الضياع، هذا التطلع إلى التغيير هو السمُّ الذي يسمم به الشيطان العصر، التطلع إلى التغيير الذي قاد إلى الهرطقة الدينية وإلى تمرد الرعية.

الكائن المتخفي وراء قناع الملك الذي ينتشي بفتنة هذا الفصل من

الطبيعة التي هي عود أبدي، وحيال الانبعاث الأصلي للأماكن، علَّم الملك مقت التغيير أكثر من كل الأشياء، والنضال بكل القوى الممكنة كي تتواصل الأفكار القديمة النقية التي منحت العالم شكله، وتوالي الأدوار التي تحدد لعبة العروض المعروفة والمكرورة في مسرح الحياة، والخط الذي يحدد مواقع السلطة والقيادة والطاعة والخضوع.

بمساعدة من «عدو الرب»، يكرس كثيرون من أعداء الملك كل جهودهم في هذا التطلع إلى التغيير، كي لا يظل شيء في مقياسه، وكي يتشوه كل شيء وتنقلب الأدوار في مسرحية العالم، وتفقد العقائد الصحيحة وحقوق السيادة التقليدية تفوقها الطبيعي.

يتمتم الملك: «لا بد من رعاية الحديقة وتشذيبها».

الراهب «دييجو» يعرف جيدًا خواطر الملك الغامضة تلك، ولا يرد، منتظرًا أن يوضح العاهل فكرته أو أن يصرفه بجفاء. وحفاظًا من الملك على عادة متأصلة، أخَّر الإعراب عن مشيئته. إنه بستاني عجوز، والليل يوشك أن يصبغ بظلامه آخر بريق في الغروب، ولهذا يشعر بميل إلى ترك القضية معلقة. عندئذ أخرج الراهب من بين ثنايا مسوحه بعض المخطوطات المطوية ووضعها على المنضدة:

ـ يجري تداول الأحلام من يد إلى يد في المدينة يا مولاي. وهذه الأوراق وصلتني يوم أمس.

يواصل الملك التمسك بالصمت برهة أخرى، ونظره مثبت على عيني الراهب الزرقاوين، وفي نظرة كل منهما مرآة لحزن نظرة الآخر.

يضيف الراهب «دييجو»:

ـ «الملك نفسه لديه خبر من الرب عن حكمه عليه»، هذا ما يقوله أحد الأحلام. إلى هذا الحد وصلت الرؤى الزائفة والكاذبة لتلك المرأة التافهة المتمادية.

يأمر الملك:

ـ يمكنك الانصراف أيها الراهب «دييجو».

ينهض الراهب «دييجو» واقفًا، يحيي الملك بانحناءة خفيفة من رأسه ويجتاز الحجرة بخطواته البطيئة. عباءته طويلة تكاد تخفي قدميه تحتها، وجسده النحيل يبدو كتلة بلا حياة تتحرك جرًّا على عجلات غير مرئية.

رزمة كبيرة من الوثائق المعلقة تنتظر أن يراجعها الملك المتفحص والمدقق اليومي لكل الأوراق التي عليه مهرها بتوقيعه من أجل حكم ممالكه. ومن دون أن يولي اهتمامًا للأوراق التي تركها الراهب «دييجو» على المنضدة، يبدأ الملك بقراءة الوثائق المعلقة الأخرى، فيُمهر بعضها بتوقيعه، ويدون ما يتوجب فعله على هوامش بعضها الآخر، ويستبعد بنفاد صبر بعض الالتماسات التي يراها غريبة أو غير معقولة، والتي تصل إلى منضدته، من دون شك، من أجل مصالح تكون الهبات فيها أكثر رجحانًا من المسوغات العادلة. ويفكر الكائن الذي عليه أن يتولى دور الملك المدقق في أن هذا النوع من الأمور يجعل من مهنته مهمة خسيسة.

ما زال هناك متسع من الوقت لبرودة الغروب. وبسبب غياب أبنائه الذين ظلوا في قصر «البرادو» منذ أسبوع الفصح، يمارسون ويعيشون حياة القرية التي يقدر الملك أنها جيدة للجسد والروح، فإن عليه أن

يتناول العشاء وحيدًا. يُقَدِّر أن فكرة عشاء منفرد، يتأخر موعده يومًا بعد يوم، وسط التعقيد الاحتفالي وحشد الخدم، ليست بالمشجعة. غير أن الوقت يصير غير ملائم، فيترك أخيرًا أوراق الحكومة، وقبل أن ينهي يوم عمله كملك، يتناول الأوراق التي سلمه إياها الراهب.

إنها نسخة مكتوبة باليد نفسها، والخط ليس سيئًا. كان الملك قد سمع كلامًا عن تلك الأحلام، لكنه لم يبدِ الفضول قطُّ لمعرفة مضمونها الحرفي. ويقرأ الآن حلمًا فيه وصف لموته هو نفسه. هناك من تقول، وهي الحالمة من دون ريب، إنها رأت جثته مرمية على بعض القش. و«دون جاسبار دي كيروجا» يحتضر بجواره، ويطلب ماءً بصوت نائح. يبدو أن هناك في المكان كثيرًا من الأجساد الميتة الأخرى، كما لو أن الحلم يستحضر معركة شرسة. «أريد ماء واعترافًا»، يطلب «دون جاسبار»، وتقول الحالمة إن ملاكًا يشير إلى المفتش العام: «هذا يتذكر التوبة والتكفير في ساعة الموت. لكن الحياة تمضي و«فيليبه» لا يهتدي. «فيليبه» يخلف ذكراه في الأحجار، وليس في أعمال الإحسان والفضيلة، ولا في أعمال تنجيه في ساعة الموت».

يترك الملك الورقة ويقرأ التالية. وفي هذا الحلم تعود الحالمة إلى رؤيته هو نفسه، ولكن في هيئة تمثال هذه المرة، بجسد من حديد، وسيف من رصاص في يده، وفي اليد الأخرى ترس من بلور، وقد كُتب حكم على صدره: «آه لحالي، أنا المكابر والعنيد! هذه أسلحة ذاك الذي كان في حياته كلها ظلًّا، وليس هناك من حياته إلا القليل من الأمثلة بعد موته».

يلقي الملك هذه الورقة أيضًا فوق المنضدة ولا يقرأ المزيد.

يتناول العشاء وينظر وهو ساهٍ إلى جلبة الخدمة، ذهاب ومجيء الخدم

والسادة. وهنا ثمة حركة دائمة أيضًا تحت مظهر السكون، ولكن لا شيء طبيعي، كل شيء مصطنع، نظام يوضع لينفذ كما لو أنه مسرحية.

الكائن السري الذي يعيش داخل الملك يفتنه نظام الطبيعة العفوي، النظام المرتب من الرب. لكنه عندما يجد نفسه مضطرًّا لممارسة دوره كملك، يجتذبه كذلك النظام الآخر، نظام الأفضليات والخضوع والتسلسل، نظام تراتبية الرجال والأعمال والأشياء. فهذا النظام المصطنع، عندما يكون صارمًا، هو انعكاس لذلك النظام الطبيعي الذي لا يقدر أحد سوى الرب وحده أن يرتبه. وهكذا، انطلاقًا من الحنين إلى النظام الطبيعي، يُدخل الملك في التواصل مع رعيته صورة زمن يقود دومًا إلى أصول الأشياء.

لكنه بعد العشاء، وبدلًا من الذهاب إلى حجراته من أجل لحظات تأمل الضمير، وتفحصه المعهود قبيل النوم، يقرر النزول إلى الحديقة. يشير إلى أنه لا يريد مشاعل، وإنما ضوءًا صغيرًا وحسب. بعد ذلك، وبينما الخدم ينتظرون، يمر عبر الدروب المائلة إلى البياض على ضوء المصباح الذي يحمله خادم.

العندليب ما زال يغرد وصدى تغريده يبدو كأنه يتردد في قبة أضيق من السماء غير المتناهية. في مثل هذه اللحظات يفتقد الملك غياب حاسة الشم، ذلك أن الحديقة التي تشكلت فيها أكمام الورود، وتفتحت أزهار إكليل الجبل الزرقاء، وأزهرت الزنابق البيضاء والزرقاء ونرجس الفلاند الأصفر، لا بد أنها تتضوع شذى متنوعًا وزخمًا.

يجلس الملك على أحد المقاعد الحجرية. وعلى الرغم من أنه يزدري أحلام الفتاة باعتبارها بلاهات عامية، إلا أن ذلك الحلم الذي يقول عنه إنه يخلِّف ذكراه في الأحجار وليس في أعمال الفضيلة أثار حفيظته، لدى

تفكيره في أن مسألة تلك الأحلام تجول من فم إلى فم، مضيفة نوايا خبيثة أخرى إلى ما يحوكه جواسيس أعدائه وعملائهم ضده من مؤامرات. فالملك فخور، من بين أعماله كلها، بتشييد ذلك الصرح الذي استطاع أن يجمع فيه، كأساس لملكه، قصرًا وكنيسة وديرًا ومكتبة ومدرسة ومنتدى، مع كل الخدمات الضرورية لبقائه إلى الأبد.

الوطيد هو الاسم الرمزي للملك، ووطيد هو هذا البناء الفريد في العالم، الذي شُيد في فترة قصيرة لم تتجاوز العقدين، وكله فضيلة ومهابة، سواء في هندسته، أو في ورعه، أو في زينته. وهذا البناء، في رأي الملك ومستشاريه الروحيين، الضمانة المؤكدة لخلاصه في ساعة القضاء، ليس خلاص روحه في الحياة الأخرى فقط، وإنما كذلك لحفظ ذكراه وذكرى سلالته على مر العصور.

لقد اتُّهم بأنه سفاح، وقاتل ابنه، وأنه غاصب، ومُسمم، وحارق، وحتى بأنه مدنس للمقدسات. وكلها اتهامات من لا يخدمون سوى الشيطان ومتعته الخبيثة في التغيير. لكن الملك يعرف أن هذا البناء هو ضمانة خلاصه السماوي والأرضي. سماوي، لأنه لا وجود لأحد شيد على الأرض مذبحًا أكثر جدارة بعظمة الرب الحقيقي. وأرضي، لأنه عندما يطوي الزمن الشتائم المكتوبة في المنشورات الهجائية، ولا يعود هناك وجه لاسمه، وربما تكون قد انمحت كل الأخبار عن حياته وأعماله، فإن البناء، بمجرد حضوره، سيقول ما كان عليه هو، وما كانت رؤاه: الأبعاد والمقاسات، تناسب الأجزاء، التنظيم الصارم، والديكور.

بعد ذلك، ابتسم وهو يتخيل صورة المفتش العام شاكيًا، مطالبًا بالماء والاعتراف. ولكن، أليس «دون جاسبار» هو حامي هذه الحالمة ورفاقها؟

وهنا يتبين كيف أن من يبحثون عن التغيير المجنون للأمور وقلب كل شيء، ينتهون إلى عض يد من يحمونهم، حتى لو كانت الصور النهائية لرؤى الحالمة تأتي من التدوين الذي يقوم به آخرون لأحلامها، فهي كما يبدو غير متعلمة، وغير قادرة على القراءة والكتابة. الصيغة الخطية لتلك السخافات الحلمية كُتبت بيد الراهب «لوقا دي أيبندي» الذي كان يدعم بعناد الخائن «بيريث»، وبيد المدعو «ميندوثا» الطامح على الدوام في أن يكون مطرانًا، ولا شك في أنه يكره الملك لأنه لم يتوصل إلى مبتغاه، وهو مشهور بأنه مجنون لدى البعض، مع أن الملك لا يرى في ميوله إلى التنجيم عيبًا آخر من عيوبه، لأنه يمكن لمعرفة قراءة الكواكب السرية، حين تمارس بمعرفة حقيقية، أن تتنبأ بأحداث الحياة بصورة صحيحة.

هناك بريق ضئيل جدًّا من القمر والكواكب يلمع من دون حجب. والملك يبحث عن الكواكب التي حكم اقترانها الموفق ولادته. نبوءات الدكتور «ماتياس هاكو» أشارت من دون خطأ إلى مظاهر كثيرة في حياته تحققت بصورة صائبة. ولا بد أن تكون مكتوبة أيضًا في حركة اقتران النجوم والكواكب إشارات دمار أعضاء الأخوية هؤلاء الذين يستغلون أحلام فتاة جاهلة من أجل إثارة الفتن والمكائد ضد الحكومة. كيف يمكن فهم العلاقة بين نبوءات النجوم وقرارات الملوك، بأي طريقة تُقرأ في وميض الكواكب النية التي توصل العاهل إلى صياغتها؟

يقول الملك:

ـ سأذهب إلى مكتبي.

يتهيأ أعوانه ويرفعونه إلى الكرسي ذي المسندين. كانت الأنوار قد أطفئت، غير أن الملك أمر بعدم إشعالها، وعلى الضوء المتذبذب للمصباح

الذي يحمله خادمه، كتب على ورقة رسالة للكاهن «دييجو دي تشافيس»:
«بشأن هذه الحالمة وشركائها، عليك أن تتصرف بالطريقة التي أخبرتني بها».
ووضع توقيعه.

قال الملك قبل أن ينسحب إلى حجرته:

ـ فلتوصلوا هذه الرسالة إلى متلقي اعترافاتي الآن بالذات.

# ٢٠

مع أول أيام شهر مايو وتحسن الطقس، أحس «دون ألونسو» في أعماقه بانتشار ونمو تلك البراعم التي تتجدد أيضًا في تفرعات النفس.

كان يكمل في ذلك الوقت السنة الثالثة والخمسين من عمره، وبدا له أن وضع الكواكب التي تتحكم بقدره مواتٍ جدًّا، كما أن رؤى «لوكريثيا» المتكررة، حيث ينبئ غزو إسبانيا ودمارها بانهيار بابوية روما وانبعاثها بعد ذلك في طليطلة، تحت تاج حبر إسباني، تبدو له أكثر فأكثر على أنها رسالة تعنيه مباشرة.

كان «دون ألونسو» يعتبر تلك النبوءة تعويضًا من العناية الإلهية لمن هو مثله، على الرغم من مزاياه الجامعية والكنسية الكثيرة، وشهرته كمتصدق كبير وواعظ عظيم، وتحدره من إحدى أشد الأسر نبالة، مع عديد من الأقارب والأسلاف الذين وصلوا إلى منصب مطران طليطلة، يُستبعد دومًا عند التعيينات الأسقفية ليتولاها رجال صغار تافهون من أمثال «جارسيا دي لوايسا» أو «بورتوكاريرو»، ممن يتقدمون في مكائد استخدام رجال آخرين لا يقلون عنهم قتامة، سواء في أصولهم

أو في تكوينهم، كما هو حال متلقي اعترافات الملك أو ذاك المدعو «ماتيو باثكيث» الذي يبدو أنه ابن سبية ومسلم، وتوصل مع ذلك لأن يكون الأمين الأكبر.

«جميعكم ستلقون ما تستحقون»، كان «دون ألونسو» يفكر وهو يتعرف في أحلام ربيبته الفتية على الإشارات المؤكدة لدمار يجرف أولئك الخصوم عند تحقق الأحلام، ويعرف أنه مختار من الرب، ليس للسهر على نبوءات المتنبئة وحسب، وإنما ليساهم كذلك في إعادة الاستقرار المستقبلي للعالم المسيحي من موقع بالغ السمو مثل الكرسي الرسولي.

في ذلك الوعي بالامتلاء، قام «دون ألونسو» بزيارة صديقته السيدة «خيرونيما دوريا»، وأمر بحمل العشاء المؤلف أساسًا من فخذ خنزير مطبوخة بالنبيذ، كبداية، وسمكة مجففة تطهى مع لوز مهروس ولباب خبز مضمخ بالخل، وفلفل وقرفة وعسل، ودجاجة مشوية، وللتحلية حلوى «السوبليكا»، وسكاكر، وحلويات أخرى، ويرافق ذلك كله نبيذ أبيض من «إسكيفياس» ونبيذ أحمر من «فالديموريُّو».

كانت السيدة «خيرونيما دوريا» شقراء وبيضاء، مثل «أفروديت» في كثير من الرسوم، وكان «دون ألونسو» يتولى منذ سنوات عديدة أمر وصايتها الروحية، وتوفير أسباب راحتها المادية كذلك.

وكانت «دونيا خيرونيما» شديدة التدين، لكن ذلك لا يحول من دون تمتعها بطبع مرح وطبيعة شبقة. وفي علاقتها مع «دون ألونسو»، كانت الأحاديث الدينية والتداول في موضوعات التنجيم والنبوءات التي تستثير

اهتمام رجل اللاهوت تتحول إلى أمور حميمة أخرى، تنحرف بصورة محتومة نحو خطيئة الجسد. بعد ذلك، يمنح «دون ألونسو» الغفران لربيبته الروحية، ويبحث هو نفسه عن المغفرة لدى متلقي اعترافاته، وهو كاهن فرنسيسكاني، زميل قديم من «سلمنكا» وصديق عظيم. خبير في خطايا الشبق، نظَّم في جدول، هو دليله لمنح سر التوبة، كل ما يتعلق بأوضاع الجماع مع مختلف الأوضاع الجسدية لكل شخص، وكان قد تعرض لبعض المشاكل مع ديوان محاكم التفتيش بسبب وشاية ضده، باعتباره مؤلفًا مزعومًا لأوضاع جماع، غير أنه لم ينتج عن القضية أي محاكمة أو عقوبة.

ومع ذلك، لم يكن لدى «دون ألونسو» شعور بأن علاقته بالسيدة «خيرونيما دوريا» خاطئة. ولهذا لم يتخلَّ قطُّ عن التعامل معها، فهو لم يزرها قطُّ، مثلما كان يؤكد على الدوام لمتلقي اعترافاته، بشهوة جسدية ولا بأفكار دنس مسبقة، وإنما عكس ذلك تمامًا.

رؤية الجمال الأشقر والوافر للمرأة كان بالنسبة إلى «دون ألونسو» محفزًا للأفكار التقية، ويرى فيه، مثلما يرى «كاليستو» في جمال «ميليبيا»، عظمة الرب، ولكن من دون انتهاكات العاشق التعيس في التراجيكوميديا المشهورة للمحرمات. وكان ذلك التقدير يضاعف من إيمانه، بحيث تشع صورة المرأة في عينيه هالة خير وإبهار، تدفعه في اللحظة الأولى إلى التفكير في ذلك الألق الذي ينبعث من الملائكة، انعكاسًا للطمأنينة الإلهية، وتبشيرًا بنور المجد الخالد.

لم يكن هناك أي نية خبيثة في استعداد «دون ألونسو» المسبق تجاه

تائبته، ولم يشعر بتأنيب الضمير قطُّ، لأنه لم يكن في أي يوم البادئ باتخاذ الأوضاع التي تقود الاثنين إلى إغماءات جسدية. فقد كانت الشقراء دومًا، وفي أثناء حديثهما الورع، هي المبادرة إلى الإمساك بيدي متلقي اعترافاتها، بادئة بذلك أول صلات رابطة العناق، أو تقريب جسدها أكثر فأكثر من جسده، إذا ما كان الوضع الذي هما فيه مناسبًا لذلك التقارب، محوِّلة بذلك المحادثة الدينية أو العلمية إلى حوار أبكم، تُستبدل الكلمات فيه بالمداعبات والقبلات والتنهدات.

وحتى في تلك اللحظات، بل فيما بعدها، عندما يكون متلقي الاعتراف والتائبة قد تجردا من معظم ملابسهما، يظل «دون ألونسو»، إلى جانب شهوة الحواس التي لا مفر منها، محافظًا على انشراح ينتمي إلى الروحانية الطاهرة أكثر من انتمائه إلى الفحش الشهواني. ففي رؤية استغراق «خيرونيما» العميق، وزيغان نظرتها العذب، وتوتر فمها الخفيف، ونضارة وبراءة مظهرها عارية، تتبدى كذلك إشارات قدسية لتهيج يدعو إلى مجد الرب في متعة مخلوقاته.

نصحه الراهب «برناردو»، صديقه وناصحه ـ نظرًا إلى أن سقطات اللاهوتي وتائبته في الخطيئة ليست ثمرة تخطيط مسبق، وإنما هي عرضية وغير متوقعة ـ بألا يتخلى عن وصايته الروحية على تلك المرأة، وإنما يحاول كلاهما استباق مجيء الشهوة، بتقصير فترة اتصالهما، وفصل جسد أحدهما عن الآخر قدر الإمكان خلال عملية سرِّ الاعتراف. ومن أجل الاحتياط من تكرر تربص الشيطان، قدر أن الأوضاع الجسدية المعهودة الأكثر ملاءمة لتلك اللحظات هو وضع الاستلقاء، وهو تنويع من الطريقة العادية المعهودة. ويتوجب على الطرفين الحفاظ على هذا

الوضع من دون أي خشونة، بحيث ينقضي وقت عناقهما بوداعة، من دون الوصول إلى الذروة.

وكان الراهب «برناردو» يقول إن هذه هي العادة المفضلة لدى تتريي القرم للحيلولة من دون الحبل، وإن لم يكن هذا السبب ينطبق على حالتهما، لأن عقم «دونيا خيرونيما» خارج أي شك كما يبدو، وتجنب الجماع الكامل يقلل، في عينيهما، من أهمية الخطيئة وخطورتها.

غير أن الثنائي لم يتوصل قطُّ إلى ذلك الكبح البطيء والمتدرج للجماع، والذي يبدو أنه شائع عند التتر. فبعد وقت طويل من عدم الحركة، عندما يستشعر «دون ألونسو» بأنه يمكن للشهوة أن تبدأ بالتراجع، تقوم السيدة «خيرونيما» بضغط شفتيها، والاستنشاق بعمق من أنفها، وتنقلب وتهتز بقوة، وتنتهي حركاتها تلك على الدوام إلى إحباط نوايا الاثنين الطيبة.

وفي تلك الليلة أيضًا لم تسر الأمور بالطريقة التي أوصى بها الراهب «برناردو»، لكن «دون ألونسو» لم يشعر بأي نوع من تأنيب الضمير.

كانت نافذة حجرة تائبته مشرعة على مصراعيها على الرغم من بقايا البرودة الشتائية، تسمح بسماع واضح لموسيقى جيتارات نائية، إشارة إلى وجود جوقة غرامية ليلية ما، يتوافق إيقاعهما من ارتعاش النجوم المتلألئة بصفاء. وهكذا كانت أصداء الموسيقى وبريق الكواكب الخفيف تمنح توددهما متعة مزدوجة.

هتف «دون ألونسو»:

ـ سيدتي، مكتوب في هذه النجوم أنني سأصل إلى منصب الحبر

الأعظم للمسيحية، وهو ما سيضيف شرفًا عظيمًا لسلالتي وشخصي، لكني الحق أقول لك إنني لن أنسى أبدًا متعة قُبلاتك وهذا الجسد باهر الجمال واللين، ولا عينيك الفيروزيتين الضاحكتين. والآن، حيث لا تسمعني آذان يمكن لها أن تستفظع كلماتي وتفهمها بصورة ملتوية، أقول لك إنني أنا أيضًا ألمح في نشوتنا هذه ما يجب أن تكون عليه متع الفردوس.

ومع ذلك، سواء أكان السبب هو وفرة العشاء الذي تناول منه «دون ألونسو» من دون اعتدال، أم برودة الهواء الذي لم تدفئه شمس تلك الأيام بعد، أو لأن الأمرين كليهما توافقا مع جهودهما الغرامية، بدأ رجل الدين يشعر باعتلال صحته وهو عائد إلى بيته، واضطر أن يأوي فورًا إلى فراشه. وفي اليوم التالي أحس بإعياء شديد في جسده كله، ورافق ذلك تقيؤ ونوبات ألم قوي في الرأس.

وأدى التوعك إلى ارتفاع شديد في حرارته، مما دفع الأطباء بعد ثلاثة أو أربعة أيام، فضلًا عن وصفة دهن رأسه بعصارة أوراق اللبلاب مع الزيت والخل، إلى أن يجروا له عملية فصد دم خلَّفته في وهن بالغ.

ومع الحمى، بدأ «دون ألونسو» يرى تخيلات غريبة. يتصور أن غزو المسلمين واللوثريين الذي تتنبأ به أحلام «لوكريثيا» قد وقع، ويسمع في حجرات وردهات بيته صرخات أناس يقاتلون، مع صهيل خيول وطلقات بنادق.

في إحدى المرات، عند استيقاظه من قيلولة محمومة، رأى عند حافة سريره القصوى هيئة تنظر إليه باسمه: لا بد أنه كبير الملائكة «سان ميجيل»، لأنه يحمل سيفًا من نار في إحدى يديه وصليبًا في اليد الأخرى. ويرتدي

جوربين طويلين يثبتان أذيال سرواله القصير على الطريقة التوسكانية، لكن سرواله مفتوح. تلك الصورة الدنسة للملاك التي ظهرت له مع ازدياد الحمى، ظلت هناك تبتسم من دون كلام، وكانت غير مرئية للجميع باستثنائه هو.

وفي إحدى تلك الليالي وصلت رسالة من الراهب «لوقا دي أييندي» يخبره فيها بأن أحد مفوضي ديوان التفتيش في العاصمة قد حضر للقائه واستجوابه بصورة مستعجلة حول أحلام «لوكريثيا»، ومضمونها، والأحوال التي يظهر فيها الملك ووزراؤه في تلك الأحلام، وتواتر حدوثها، ومسألة تدوينها، وانتشار المدونات بين الناس، وإذا ما كانت تلك الأحلام تنتمي إلى ميدان الكوابيس أكثر من كونها رؤى تنبؤ، أو أنها مجرد اختلاق وتلفيق من الحالمة المزعومة.

ويضيف الراهب «لوقا»: «قلتُ له إن «لوكريثيا دي ليون»، في رأيي، هي فتاة جاهلة وغير متعلمة بحيث لا يمكنها اختلاق مثل تلك الرؤى، لكنني علمت أن المفوض قد زار بيت الدوقة الأرملة وتحدث مطولًا مع سيدة البيت، وقد أخبرني «فيكتوريس» اليوم أن المفوض ذهب كذلك لرؤية «لوكريثيا» ووجه إليها أسئلة كثيرة حول الأمر نفسه».

ومع أن «دون ألونسو»، منذ إطلاق سراح «لوكريثيا» من يدي معاون المطران، بفضل تدخله لدى قاضي التفتيش الرسولي العام «دون جاسبار دي كيروجا»، قد استبعد الخوف من تدخل محكمة التفتيش في تلك القضية، إلا أن رسالة الراهب «لوقا»، إضافة إلى رؤى ذلك الملاك الفاحش، أشعرته بالقلق.

عندئذ راوده، أول مرة، شك مشؤوم، وداهمه خوف من تعاظم الحمى. وكان الملاك غير المحتشم ومدنس المقدسات قد جمع جناحيه وراء ظهره، وجلس على أحد الكراسي ولم يختفِ على الرغم من أن «دون ألونسو» أشهر الصليب وصرخ باللاتينية: «تراجع أيها الزنيم، فليس بي مس من الشيطان!».

عندئذ طلب حضور كاهن بيته، وهو رجل يتمتع بثقته الكاملة، وطلب منه أن يجمع كل دفاتر رؤى «لوكريثيا» ودفاتر أخرى يحفظها في مكتبه وعلى المنضدة الموجودة في حجرته، وأن يجعل منها كلها رزمة واحدة. ولم يطمئن إلا بعد أن جُمعت كل أوراق الأحلام، وكانت تشغل أكثر من ثلاثين دفترًا، وكثيرًا من الوثائق الأخرى المرتبطة بها وبنبوءات «خوان دي ديوس»، ومزيل البقع، و«بيدرولا»، وجرى لفها في كيس من الكتان خاطته إحدى الخادمات.

أمر «دون ألونسو» بترك الحزمة إلى جانب المنضدة، في مكان يراه من سريره، بنية التفكير في مكان آمن يخبئها فيه، بعيدًا عن بيته. غير أن مرضه تفاقم وأنسته الحمى والتقيؤ ذلك الأمر.

بعض الأقارب، والسيدة «خيرونيما دوريا» نفسها التي ذهبت لزيارته، أصابهم الذعر حين رأوا حاله. وفي اليوم السابع لمرضه فصد الأطباء دمه مرة أخرى، وتردت حالة «دون ألونسو» إلى حد الاعتراف للراهب «برناردو» وإملاء وصيته.

ومع ذلك، وبعد أربع وعشرين ساعة من إملاء وصيته، بدأت الحرارة بالانخفاض، وإن يكن ببطء شديد، وظهرت إمارات تحسن طفيف. لم يعد

«دون ألونسو» يسمع صخب الجيوش والمعارك التي كانت تزعجه كثيرًا، واختفى أيضًا ذلك الملاك السفيه الذي كان يقبع إلى جوار فراشه. وعادت إليه الشهية، وهي إشارة واضحة إلى تحسن الصحة، وبدأ في تناول الحساء، ولحم الدجاج وسمك الترويت وغيرها من الأغذية الخفيفة.

وفي يوم أحد، بعد ساعة من الغداء، وكان قد انقضى أحد عشر يومًا على مرضه، وبينما المدينة مستغرقة في إغفاءة القيلولة، دخل كاهن بيته إلى حجرته من دون إشعار مسبق. استعاد «دون ألونسو» وعيه بعد أن كان قد بدأ يغفو، والتفت بمفاجأة وذهول كبيرين.

هتف الكاهن بصوت خافت، إنما جزع:

- «دون ألونسو»! «دون ألونسو»! لقد دخل إلى البيت محقق التفتيش «دون لوبي دي ميندوثا» مع رجاله، ويطلب رؤيتك فورًا ومن دون تأخير.

كانت زيارات قضاة التفتيش المفاجئة تلك تعتبر إشارة شؤم عظيم. قفز «دون ألونسو» من السرير وبحث عن ثيابه بتعثر.

أشار بيده:

- عليك بحزمة الأحلام يا «مارتينث»، خذ تلك الحزمة وأخرجها من هنا، اخفها.

حمل الكاهن الحزمة الكبيرة ودخل إلى المرحاض الذي له باب آخر يؤدي إلى الردهة. وفي أثناء ذلك، واصل «دون ألونسو» ارتداء ملابسه. رجع الكاهن من دون الحزمة، غير أن وجهه كان يحمل تعبيرًا متناقضًا

لم يستطع «دون ألونسو» تفسيره آنذاك، لأن باب الحجرة طُرق قبل أن يتمكن من سؤاله عن أي شيء. ومن دون انتظار، فُتح الباب ليظهر منه الخادم «خوان دي تابيس» وفي نظرته ارتباك لعدم قدرته حتى على الإعلان عن الزيارة المفاجئة للدكتور «ميندوثا» ومرافقيه.

كان «دون ألونسو» قد تعرف منذ سنوات طويلة على «دون لوبي دي ميندوثا»، وكانت علاقته به طيبة على الدوام، وتربطه به صلة قربى، وإن تكن عبر رابطة نسب بعيدة.

قال محقق التفتيش بنبرة هادئة وإيماءة ودود وهو ينزع قبعته:

ـ يجب أن تعذرني على هذه الزيارة المفاجئة يا «دون ألونسو» الطيب.

ثم أضاف:

ـ لكنني أنفذ أوامر محكمة التفتيش العليا، وهي تطلب مني أن أقابلك بصورة مستعجلة، ولكن بتكتم، وبتجنب أي شكل من العلنية لأسباب تتعلق بما تستحقه من احترام وتقدير.

جرى الدخول بسرعة أصابت «دون ألونسو» بالبكم. ولم يكن قد أتيح له الوقت إلا لارتداء سرواله. وكان لا يزال بلا قميص، وحافيًا، وطاقية النوم على رأسه.

أضاف «دون لوبي»:

ـ انتعل حذاءك والبس ثيابك يا «دون ألونسو».

جلس «دون ألونسو» على كرسي، وألبسه الخادم حذاءه ووضع عباءة

على كتفيه. أحس، بعد سلوك الدكتور الودود، بكبرياء من يمارس سلطة غير قابلة للزيغ.

أمره الزائر بلطف:

ـ أشر إلى كاهنك وخادمك بالانسحاب يا «دون ألونسو».

عندئذ نزع «دون ألونسو» طاقية النوم بغضب عن رأسه، وألقى بها إلى الأرض:

ـ أهذه هي المعاملة التي تليق بشخصي؟ أن تجري مداهمتي فجأة مثل أي هرطوقي أو متهود؟ وأنا دكتور اللاهوت الذي أمضى خمسًا وأربعين سنة في دراسة الفلسفة الطبيعية واللاهوت والعلوم المقدسة، والمحاضر في «الكتابات المقدسة» في جامعة «ألكالا» المرموقة والمقوم لقضاة محاكم التفتيش؟ رئيس دير «سان بيثنتي دي لاسييرا»، والأستاذ المبجل والقانوني في كاتدرائية طليطلة المقدسة، ومن كنت عميد مستشفى الصليب المقدس؟ ابن بيت كونتات «لاكورونيا» الذي هو أحد فروع بيت وأسرة «ميندوثا» العريقة والنبيلة، ورأسها هو دوق الإمارة؟ شقيق سفير جلالته في بلاطي إنجلترا وفرنسا؟ وأنا على فراش المرض، وحالتي حرجة، وكنت قد أمليت وصيتي منذ ثلاثة أيام فقط؟

تكلم المحقق وهو لا يزال يحتفظ في كلماته وأسلوبه بنبرة الهدوء والتودد:

ـ اهدأ يا «دون ألونسو» الطيب. أريد التحدث إليك على انفراد، وأرجو منك أن تأمر رجليك بالخروج. وسيفعل ذلك من جاؤوا معي أيضًا.

رد «دون ألونسو» بجفاء وهو يتدثر بالعباءة، وعاد للجلوس:

ـ فلتأمر أنت بما تشاء.

أمر المحقق الجميع بالخروج وقال لأهل بيت «دون ألونسو» إن سيدهم لن يستقبل زيارة أي شخص آخر ما دام هو برفقته. وعندما صارا وحيدين، تكلم إلى «دون ألونسو» برفق شديد:

ـ «دون ألونسو»، إنني أحمل توصية بالاطلاع على بعض الأوراق التي بحوزتكم، سواء أكانت في بيتكم أم خارجه.

أجاب «دون ألونسو»:

ـ كل أوراقي موجودة هنا... يوجد كثير منها في مختلف الموضوعات والأنواع، منها ما هو بلغة الرومانس، وباللاتينية، وبلغات أخرى. قل لي أي نوع هو الذي تبحث عنه وسأخبرك بما أعرفه عنها.

ـ أنت تعرف جيدًا يا «دون ألونسو» عن أية أوراق أبحث. إذا لم تشأ إخباري بالمزيد، فسيكون عليَّ أن أتفحص أوراق وكتب مكتبكم. أنت تعرف هذه الأمور، وأؤكد لك باسم صداقتنا وعلاقتنا القديمة أنني أنوي الحفاظ على السرية التي يتطلبها شرفكم.

أجاب «دون ألونسو» بنفور:

ـ ها هي ذي أشيائي، وليس لديَّ ما أخفيه عن ديوان التفتيش. تفحص ما تريد تفحصه بكل حرية.

ـ هل كل أوراقك وكتبك في هذه الحجرة؟

ـ هذا ما قلته.

ـ لستُ أنوي التسبب لكم في أضرار أكبر مما هو ضروري يا «دون ألونسو». لهذا، أرجو منك أن تقسم على هذا بصورة رسمية، باسم الرب مولانا وبرسم إشارة الصليب.

بدا «دون ألونسو» قانطًا جدًّا:

ـ أرى أنك لن توفر عليَّ شيئًا من صرامة التحقيق.

ـ لم أجبرك على تقديم قسم خطي.

وعندئذ أقسم «دون ألونسو» على أنه لا يملك أوراقًا سوى التي يمكن العثور عليها في حجرته، وليس لديه أية أوراق أو كتب غيرها، وأن الأوراق التي بحوزته موجودة في كذا وكذا من الخزائن والرفوف والصناديق والعلب.

استدعى «دون لوبي دي ميندوثا» سكرتيره ومندوب ديوان التفتيش الآخر الذي جاء بصحبته، وأمرهما أن يبدآ بتفحص الكتب، بينما انكب هو على قراءة أوراق كانت على المكتب.

بعد ساعتين من ذلك، كان «دون ألونسو» لا يزال جالسًا على كرسيه بملامح كئيبة، بينما بدت على «دون لوبي» ملامح نفاد الصبر، كما لو أن ما يجده لا يتفق مع ما كان ينتظره. وأخيرًا، بعد أن قرأ بعض الرسائل، اقترب من «دون ألونسو»:

ـ أيمكنك أن تخبرني عن أية أحلام تتحدث هذه الرسائل؟

ارتبك «دون ألونسو» وطلب رؤية الأوراق. فكانت بعض الرسائل التي اعتاد أن يرفقها الراهب «لوقا دي أييندي» و«دييجو دي فيكتوريس»

بتدوينهما لرؤى «لوكريثيا»، عند إرسالها إليه كل يوم. لا بد أنها ظلت بين وثائق أخرى عندما جمع الكاهن تلك التي طلب منه جمعها وإبعادها. كانت بها إشارات متعددة إلى «لوكريثيا» وأحلامها، مع ذكر الساعة التي يبدو أنها حدثت فيها.

قال «دون ألونسو»:

ـ هذه الرسائل تشير إلى بعض أحلام آنسة من مدريد.

ردَّ «دون لوبي»، وقد تحول ضيقه إلى ارتياب مُرضٍ:

ـ ولكنها تقول أيضًا إنها مرفقة بمدونات تلك الأحلام.

قال «دون ألونسو» فزعًا:

ـ هذا ما كان، لكنني أعدتها بعد أن رأيتها، فأنا لا أحتفظ بها عندي.

راح رضا «دون لوبي دي ميندوثا» ينطفئ، وفي حوالي الساعة السادسة كان لا يزال يقرأ ويُقلِّب بين الرسائل والأوراق، وقد كانت كثيرة، بشفتين مزمومتين وبإطلاق كثير من الزفرات.

قال «دون لوبي» في لحظة تالية وهو يعرض ورقة بمزاج اتهامي:

ـ هنا توجد بعض الحروف القوطية المكتوبة مع أرقام ونقاط لا يمكن فهمها.

ـ هذه رموز وضعتها أنا بنفسي لأتذكر أمورًا طُرحت عليَّ في الاعترافات، أعرف أن بعضها بدأت تتحقق، وأخرى غيرها لم تبدأ ولم تنتهِ.

كان «دون ألونسو» قد أحس بالطمأنينة، واستلقى في الفراش. ومن

السرير راح يراقب بحث الرجال الثلاثة الذين انتهوا من مراجعة الوثائق كلها وبدؤوا، من دون تحفظ، بفتح الصناديق والعلب التي تضم مدونات قديمة وأوراقًا أخرى لها علاقة بدراسات «دون ألونسو» أو مناصبه الإدارية، وفيضًا من الرسائل المتبادلة، وراحوا يتفحصونها باهتمام.

كان جسد «دون ألونسو» يطالبه ببعض الراحة، ويكبح هو ذلك الضيق منتظرًا، بثقة متزايدة، انتهاء البحث، فقد كان متأكدًا من أن المحققين لن يجدوا في حجرته أي شيء عن أحلام «لوكريثيا» باستثناء رسائل الراهب «لوقا» و«فيكتوريس» تلك.

كان الليل قد بدأ بالتقدم منذ بعض الوقت، وكان لا بد من إحضار بعض الأنوار إلى الحجرة لتضيء عمل الدكتور ورجليه، وتُظهر تكشيرات استيائهم. ومن أجل أن يكشف عن صرامة سلطته التي لا شك فيها، قال محقق التفتيش لـ«دون ألونسو» إنه سيحمل معه كثيرًا من تلك الوثائق، لأن هناك رسائل من إنجلترا وبولونيا وأوراقًا أخرى يبدو أنها مكتوبة برموز خاصة، وأنه يتوجب دراستها بدقة، لكن «دون ألونسو» لم يعترض، بل لم يطلب قائمة بها. ولم يكن يعكر سعادته المستجدة سوى ضيقه من الضرورة الملحة والمتعاظمة لقضاء حاجته الجسدية التي تضغط عليه، وانفتاح شهيته من جهة أخرى، لا سيما أن موعد عشائه قد حان.

لم يبقَ من الهدوء الأولي الذي دخل به المحقق إلى الحجرة سوى بطء الكلام وخفوت الصوت، أما نظرته فلم يعد فيها أي أثر للتودد أو التفهم:

ـ عليك أن تغادر الفراش يا «دون ألونسو»، لأنني أريد تفحص إذا ما كانت هناك ورقة ما مخبأة فيه.

كانت ثقة «دون ألونسو» من عدم وجود شيء كبيرة، فغادر السرير من دون اعتراض، بينما راح مندوب ديوان التفتيش والمرافق الآخر يسحبان الملاءات ويقلبان الفراش.

عندئذ فكر «دون ألونسو» بأنها فرصة مناسبة للذهاب إلى المرحاض، وفعل ذلك حاملًا معه شمعة. ولكنه عندما دخل هناك واجهته مفاجأة سيئة حين رأى أمام الباب المؤدي إلى الممر، حزمة أوراق الأحلام التي لم يكن بإمكان الكاهن إخراجها خارجًا، إذ كانت تُسمع في الجانب الآخر من ذلك الباب أصوات رجال آخرين من أعوان المفتش، ولا شك في أنهم يحرسون الفناء وبقية أنحاء البيت.

حشر «دون ألونسو» الحزمة، قدر ما استطاع، في أبعد ركن من حجرة المرحاض، ولكنه حين خرج كان الاضطراب باديًا عليه بوضوح، مما جعل المجاز يشعر بأنه سيجد أثرًا مؤكدًا. أمر رجاله بأن يعيدوا ترتيب السرير وأن يصعدوا بعد ذلك إلى سطح المنزل، ليروا إذا ما كانت هناك أوراق مخبأة، وعندما ظل وحيدًا مرة أخرى مع «دون ألونسو»، وبعد أن طلب منه العودة إلى فراشه، سأله إذا ما كان معتل الصحة، لأن الرائحة التي خرجت من حجرة المرحاض شديدة النتانة.

أجاب «دون ألونسو»، ولكنه لم يعد يبدي أي تأثر:

ـ لقد قلت لك إنني محموم، في اليوم الحادي عشر من مرضي، وما زلت متوعكًا جدًّا. وتصرفكم هذا ليس لائقًا معي، فأنا أتحمل تدخلكم منذ أكثر من ست ساعات.

ومن دون أن يقول المفتش شيئًا، حمل شمعة ودخل بتصميم إلى

المرحاض، وما لبث أن خرج منه بعد قليل وهو يغطي أنفه بإحدى يديه، ويحمل باليد الأخرى الحزمة المشؤومة:

ـ أتدري ما يمكن أن تكون هذه الحزمة يا «دون ألونسو»؟

دمدم «دون ألونسو» متلعثمًا أنه لا يعرف ما هي، ولا بد أنه شيء يخص أحد خدمه، لكن المحقق بدأ بقص الخياطة بمقص. وعندما فُتحت الحزمة، وأخرج منها المجاز دفترًا وتصفحه، تطلع إليه بنظرة يلمع فيها ذلك البريق الانتصاري الأول غير المشفق، فرفع «دون ألونسو»، الجالس على السرير، ذراعيه إلى السماء وبدأ يصلي، بورع لا يقل عن قنوطه:

ـ إذا كان يناسب خلاصي أن تحرقوني، فافعلوا ذلك في ساعة طيبة، لكن ما هو موجود في هذه الأوراق له طبيعة التنبؤات الإلهية، إنها وحي من السماء وليست نبوءات شيطانية، وإن كان الخبث البشري قادر على تحريف أي شيء في هذا العالم.

استعاد المحقق اللباقة المدروسة التي أبداها عند وصوله، وواسى «دون ألونسو» مؤكدًا له أنه لا شك يخامره في حسن إيمانه، وطلب منه أن يحلف مرة أخرى إذا ما كانت لديه نسخة أخرى من تلك الأوراق، فأقسم «دون ألونسو» أن لا، لكنه قال إنه قد تكون هناك نسخة منها لدى الراهب «لوقا دي أييندي». عندئذ أمر «دون لوبي» بوضع تلك الأوراق في الصناديق، مع الأوراق الأخرى التي فُحصت من قبل، وأن تُنقل كلها إلى بيته بأقصى تكتم وأقل جلبة ممكنة.

أخيرًا بقي «دون ألونسو» وحيدًا ومغمومًا إلى حدٍّ لم يستطع معه أن يأكل شيئًا سوى ذلك الطبيخ الذي يسمونه «مورتيرويلو»، والمكون من

خبز محمص، وجبن، ولحم خروف، وشحم مذاب، وحليب ماعز، وسكر، وقرفة مع قليل من الكزبرة والبقدونس المفروم. وبعد أن تخلص بعض الشيء من اكتئابه بفضل العشاء، ظل مؤرقًا لخطورة الأحداث، وقرر كتابة رسالة إلى الملك، وقد كانت طويلة جدًّا لم ينتهِ من كتابتها إلا في ساعة صلاة الفجر من اليوم التالي.

# ٢١

بعد عيد «سنتياجو الأخضر»، سيطر على «لوكريثيا» إحساس دائم بالكآبة.

كانت قد وصلت رسالة من «دون ألونسو دي ميندوثا» يطلب فيها من الفتاة أن تذهب إلى «السوبينيا» مع أمها، برفقة الراهب «لوقا» و«دييجو»، للاحتماء من حر الصيف الذي بدأت تباشيره. لكن صورة تلك المغارة المحفورة في صخرة شديدة الانحدار، معلقة فوق المياه العكرة لنهر راكد، في مكان لا بشر فيه، حيث تبدو ظلال الأشجار أشبه بتجويفات فارغة هجرها حضور متسلط كان قد سكنها يومًا، ولم يبقَ منه سوى الحياة التافهة والخفية لبعض الحشرات والعصافير، فاقم ذلك الطلب من حزنها.

عندئذ أملت على أخيها رسالة موجهة إلى «دون ألونسو». محاولة أن تنقل إليه ذلك الغم الغريب الذي استولى عليها، والذي يشبه ذاك الذي أوهنها كثيرًا بعد اعتقالها على يد معاون المطران.

ذلك الغم الذي تجدد منذ اليوم الأول من شهر مايو، ازداد حدة بصورة خاصة بعد رحلة قامت بها إلى عذراء «فالفيردي» التي تبعد فرسخين،

وعادت منها مع الغروب. وبين ضوء النهار الآخذ بالتضاؤل، ومصابيح وقناديل العربات العائدة إلى العاصمة ببطء شديد بسبب كثرتها، والتي تضيء جوابي الآفاق كما لو أنهم ظلال شبحية، ورأت «لوكريثيا» نفسها حبيسة بين تلك الصور، الواقعية من دون شك، كما لو أنه محكوم عليها أن تهيم على وجهها إلى الأبد في غسق غير نهائي، عبر طريق معفر ومظلم لا بد أنه يخص عزلة الأشباح.

ومع ذلك، لم تجد «لوكريثيا» القدرة على العثور على الكلمات التي تصف بدقة مشاعرها تلك بالغة الغم والاحتضارية.

وقد شكت، مرة أخرى، في رسالتها من الخفة التي يعرض بها الراهب «لوقا»، على كل من يزورونه، مدونات أحلامها التي صارت موضوع أحاديث كل الأسواق ومجالس النميمة والثرثرة. وأبدت اهتمامًا كبيرًا بأن ينقل أخوها «ألونسويتو» رغباتها بصورة واضحة، فأضافت مملية: «لا أريد أن يفسر أحلامي شخص آخر سواك».

وكتعويض مرئي عن المسوغات التي لا تتجرأ على عرضها بوضوح، أشادت كثيرًا بـ«دييجو دي فيكتوريس» أمام «دون ألونسو»، مؤكدة له أن الشاب لا يرغب في أي شيء سوى أن يكون في خدمتها. وأخيرًا، طلبت منه أن يرسل إليها قطعة قماش حريرية لتصنع منها تنورة، ملمحة إلى أنها شبه عارية، وأن الأقمشة رخيصة جدًّا في طليطلة.

بدأت في تلك الأيام برؤية حلم مهيب وضبابي. كان واحدًا من تلك الأحلام التي تبدأ صورها في حجرتها بالذات، مما يمنحها وعيًا فريدًا بالواقعية واليقظة، حتى إنها تتأخر طويلًا، عندما تستيقظ، في إدراك أنها خارجة من حلم فحسب وليس من تجربة من الحياة المعيشة.

فتحت عينيها متفاجئة. كانت مضطجعة في مخدعها، وسط الليل الأبكم. وكان يقف إلى جانب فراشها أكثر زوارها الليليين مواظبة، رجل الجلود والأسمال، وهو من أيقظها.

قال لها الرجل:

ـ اتبعيني. اتبعيني.

كرر ذلك عدة مرات، بصوت خافت ولكن بنبرة آمرة.

مضت «لوكريثيا» وراءه، وخرج كلاهما إلى الشارع المقفر، تحت سماء فجر ضوئها بالغ الحمرة.

رافقت «لوكريثيا» زائرها حتى شارع «أتوتشا»، وأراها من هناك عربة عملاقة تصعد السفح متمايلة، تجرها جواميس ضخمة ذات لون شاحب. والعربة تنقل تمثالًا هائلًا ومتوعدًا، يحمل رمحًا في إحدى يديه، وكرة العالم في اليد الأخرى.

لم تستطع «لوكريثيا» رفع عينيها عن عيني التمثال اللتين يتطاير منهما الشرر، بينما تتطاير على كتفيه بصخب هائل عباءةٌ من قطعة قماش كبيرة تعصف بها الريح.

سألت «لوكريثيا»:

ـ مَن يكون؟

أعادت السؤال مرة بعد أخرى:

ـ مَن يكون؟

لم يجبها أحد، وأحست «لوكريثيا» بأسى ثقيل في أعماقها، كما لو أن ذلك التمثال الآخذ في الدخول ببطء إلى العاصمة، وسط أنين العجلات الكبيرة ولهاث الجواميس المنهوكة التي تحني رؤوسها بمذلة إنسانية محزنة، يعلن، من دون حاجة إلى تفسير ذلك، عن آلام وعقوبات للجميع.

تكهنت «لوكريثيا» بأن ذلك التمثال هو الأول من تماثيل كثيرة ستواصل دخول المدينة تحت النور الضارب إلى الحمرة لفجر صباحات أخرى، بالملامح المتوعدة نفسها لبلاء وشيك لا يمكن لأحد تجنبه.

تكرر الحلم، وكانت نهاية شهر مايو تقترب. عندئذ حضر من بلد الوليد أبوها «ألونسو فرانكو». ولم تُوحِ له الزينات المعلقة والأثاث والسجاجيد والأشياء الأخرى التي حسَّنت من وضع بيته سوى ببعض العبارات الساخرة من «دون ألونسو» وجنونه المؤكد. لاحظ سمنة الجميع، لا سيما «لوكريثيا»، وكان ذلك هدفًا لسخرياته أيضًا. ومع ذلك، لم يبدِ قرفه مما تحتفظ به «آنا أوردونيث» في حجرة مؤونتها، ولا من وسائل الراحة الجديدة في حجرتهما. وقد كان في البيت، في مساء يوم الأربعاء، الرابع والعشرين من الشهر، وشعر بخوف أفقده عجرفته الفظة وجعله ينحني ويرتعش مثل عجوز مريض، عندما جاء رجال ديوان التفتيش لاعتقال «لوكريثيا».

قال أحد الأعوان:

ـ جئنا في طلب «لوكريثيا دي ليون»!

خرجت «لوكريثيا» شاحبة جدًّا، وقدمت نفسها لمعتقليها:

ـ أنا «لوكريثيا دي ليون».

أوضح لها أحد الكتبة وهو يعرض عليها ورقة:

ـ أنتِ معتقلة باسم ديوان التفتيش، هذا ما فرضه المفتش الرسولي العام.

اقتادوا «لوكريثيا» إلى بيت المحقق، حيث استقبلها رجل دين من دير المجدلية نفسه، هو حارس الباب الخلفي ومفوض محكمة التفتيش في المدينة، وكانت «لوكريثيا» تراه بكثرة بحكم الجوار.

غير أن رجل الدين لم يبدِ ما يشير إلى أنه يعرف «لوكريثيا». وطلب منها بصرامة شديدة أن تقسم بالرب سيدنا وبإشارة الصليب، وطالبها بعد ذلك بأن تقول الحقيقة بشأن بعض الأوراق التي تركها «دييجو دي فيكتوريس» في بيتها في حقيبة صغيرة.

تجاوزت «لوكريثيا» بإحساس بالغم صرامة رجل الدين وتجاهله معرفتها، وأجابت بأنها خمس أو ست أوراق فقط، بعضها مكتوب، والأخريات بيضاء.

سأل رجل الدين:

ـ وما المكتوب فيها؟

أجابت «لوكريثيا» بمذلة:

ـ ليس سوى حلم رأيته ليلة الجمعة الماضية.

نامت «لوكريثيا» تلك الليلة والليلة التالية في بيت المحقق، معزولة في زنزانة ضيقة. ويوم الجمعة ليلًا جرى نقلها إلى طليطلة في عربة مغطاة، يجرها صفان من البغال.

وفي العربة، وجدت «لوكريثيا» نفسها مع الراهب «لوقا» و«دييجو»،

وكانا قد اعتُقلا أيضًا. وكان الراهب «لوقا»، غير العابئ بوجود رفيقيه، يردد صلاة المسبحة بحمية. وبدا أنه نادم جدًّا، يقطع صلواته متحسرًا لهذه الحال التي هو فيها.

كان يهتف بين حين وآخر:

ـ بسبب ذلك اللعين «دون ألونسو دي ميندوثا» أجد نفسي الآن في هذه الورطة! بسببه، وبسبب طيب نيتي!

أما «دييجو» المتشبث بحزمة ثياب، فكان يقبع في أحد أركان العربة وعلى وجهه ملامح الجبن والوجوم.

وكان هناك في العربة كذلك مأمور من محكمة التفتيش، حذرهم بصرامة بالغة من أنه يُحظر عليهم تبادل كلمة واحدة فيما بينهم، ونبه الراهب «لوقا» عدة مرات ليتوقف عن إطلاق لعناته ويظل صامتًا. وكان يبدو معكر المزاج، إذ خرج في ذلك اليوم بالذات من طليطلة، وها هو ذا يرجع إليها من دون أي استراحة سوى ما تطلبه استبدال البغال في محطة البريد، حتى إنه لم يستطع تناول العشاء.

وعلى الرغم من تعكر مزاجه وجلافة مظهره، إلا أن المأمور القضائي أخبر «لوكريثيا»، بما يشبه البوح، بأنهم قد اعتقلوا في طليطلة «دون ألونسو دي ميندوثا»، وكذلك «دون جيين دي كاساوس» الذي يبدو أنه كان في المدينة في تلك الأيام. وأخبرها بما يقال عن أن السبب في ذلك كله هو الأحلام التي تراها.

قالت «لوكريثيا»:

ـ بسبب أحلامي؟

أجابها المأمور:

ـ وأي سبب آخر تظنين أيتها الصغيرة؟

وصلوا إلى طليطلة عند الفجر. وكانت الظلمة تزيد من ضبابية المكان الذي اقتيدوا إليه، وهو بناء قديم ومهمل.

اقتيدوا أولًا إلى قاعة فسيحة ورطبة، تضيئها شمعة واحدة، حيث كان عليهم أن ينتظروا بضع ساعات. وقد كان الثلاثة خائري القوى وقانطين إلى حد لم ينطقوا معه بكلمة واحدة، حتى إن الراهب «لوقا» نفسه توقف عن الصلاة. وعندما بدأ ضوء النهار ينفذ جيدًا إلى القاعة، حضر رجل مربوع قال إنه رئيس ذلك السجن، وبعد أن سألهم عن أسمائهم، أصدر الأوامر لبعض مساعديه بإيوائهم.

كان البناء الضخم يتصل، من خلال الفناء، بأبنية أخرى أصغر، تبدو حديثة البناء. اقتادوا «لوكريثيا» إلى حجرة في أعلى جدارها كوة. وكانت هناك امرأة شابة تكنس الأرض. إنها رفيقتها في الزنزانة، وقد تلقت بسعادة وصول السجينة الجديدة. وقالت لها:

ـ أنا أعرف جيدًا مَن تكونين. قبل اعتقالي سمعتُ كلامًا كثيرًا عن أحلامك ورؤاكِ.

تلك المرأة التي تبين أنها محبة للثرثرة، كانت في مثل سن «لوكريثيا» تقريبًا. وتدعى «ماريا دي لابيجا»، وتنتمي إلى جماعة كبيرة من أهالي منطقة «المنتشا»، مؤلفة من ثلاث أُسر، وقد سُجنت بتهمة اتباع شريعة موسى وممارسة طقوس يهودية.

كانت الزنزانة بائسة إلى أقصى الحدود، لا شيء فيها سوى سريرين

ضيقين، ومبولتين، وإبريق فخاري، وطست. وكان فيها كذلك قنديل وصحنان وقصعتان وملعقتان من أجل تناول وجبات يخنة خضار مع شحم خنزير، وقليل من الخبز والنبيذ، هو الطعام المشترك للسجناء. وعند تقديم الوجبات كان البوابون يجولون حاملين دفترًا لتسجيل الوجبة التي سيوصي عليها السجين، لأن كل ما يُقدم هناك، بما في ذلك الوجبة العادية، يكون على نفقة السجين، يتوجب عليه دفعه في النهاية من ثروته أو بعمله.

تعرفت «لوكريثيا» بسرعة على عادات السجن: موعد الاستيقاظ، وورديـات النظافة الشخصية وتنظيف الزنازين، ومواعيد الطعام والصلوات. وكان بإمكان السجناء الخروج مرتين في اليوم من الزنزانة، من أجل إفراغ المبولة وملء إبريق الماء. والذهاب إلى القداس في أيام الآحاد والأعياد الدينية.

كانت شهرة أحلامها عظيمة جدًّا، وكان كل مَن هم هناك تقريبًا قد سمعوا بها. أضف إلى ذلك أن أحلام «لوكريثيا» لم تتوقف خلال أيام سجنها الأولى. واصلت الحلم بتلك العربة الصاخبة التي تحمل التمثال الرخامي الضخم، مع نجوم بدل العيون، وروت الحلم لـ«ماريا دي لابيجا» التي استمعت مذهولة إلى الحلم والتفسيرات التي تقدمها «لوكريثيا»، فثبوت شهرتها منح المتنبئة ثقة متناقضة، والغياب المفاجئ لمن يقوم بتدوين أحلامها، دفعها إلى أن تكون هي نفسها صاحبة تلك التفسيرات التي لم يغامر أحد بتقديمها من قبل سوى «دون ألونسو» والراهب «لوقا».

قالت موضحة:

ـ الثيران أو الجواميس التي تجر العربة هي إشارة إلى أعمال كبيرة تقترب.

ـ والملائكة؟

ـ الملاكان اللذان يرافقانها، أحدهما يرتدي الأبيض والآخر الرمادي، هما إشارة إلى فضيلتين.

ـ وما هاتان الفضيلتان؟

ـ إحداهما هي الشفقة على الفقراء، والثانية هي تجنب التبذير. إنهما فضيلتان يتوجب دخولهما إلى العاصمة بمساعدة ذلك التمثال الضخم، لأن الملك لا يمارسهما. والتمثال بحد ذاته، وبكل مزاياه، هو إشارة مؤكدة لعدالة الرب.

كانت زميلتها في الزنزانة تنظر إلى «لوكريثيا» بذهول.

أضافت «لوكريثيا» بنبرة جازمة، ومتشجعة بالتقدير الذي تبعثه في رفيقتها:

ـ وهذه السماء الحمراء التي تغطي كل شيء هي نبوءة بدماء مسفوكة.

في تلك الأيام بالذات، في موعد إحضار الماء، وبينما هي تنتظر بجانب بئر الفناء ملء إبريقها، تعرفت على سجناء آخرين يشغلون الزنازين المجاورة لزنزانتها.

كان أحدهم نقيبًا من الفلاند، اسمه «بيدرو إيبانيث»، يبدو أنه محبوس هناك بسبب زواجه من امرأتين في الوقت نفسه. وزميله في الزنزانة، المسجون للسبب نفسه، يدعى «خوان أوثيو»، وكان قد عاش في البرتغال. وكان بجوار زنزانتها أيضًا المدعو «أنطون أثينيا»، وهو بدين في حوالي التسعين من عمره، وقد سُجن لأنه لا يؤمن بالجحيم.

وقد روت لهم «لوكريثيا» حلمها أيضًا، مؤكدة لهم أن أيام الملك صارت معدودة.

أضافت «لوكريثيا»:

ـ ومن حُسن طالعنا أننا موجودون في طليطلة، حتى ولو كنا في السجن، لأن هذه المدينة هي الوحيدة التي ستنجو من غزو اللوثريين والمسلمين الذي سيدمر إسبانيا عما قريب، ويذروها مع الرياح الأربع.

ولدى عودتها إلى الزنزانة، أخبرتها زميلتها بأن عليها أن تستعد لجلسات الاستماع التي سيتم استجوابها فيها:

ـ في هذه الجلسات سيكون عليك التكلم عن كل ما فعلتِه وأدى إلى إحضاركِ إلى هنا.

ـ وهل سيستدعونني قريبًا؟

أكدت «ماريا دي لابيجا»:

ـ قبل انقضاء ثلاثة أو أربعة أيام.

ولكن تلك الأيام انقضت، وتلتها ثلاثة أيام أخرى، من دون أن يستدعي أحد «لوكريثيا». ولأن الوقت كان ينقضي من دون أن تُدعى للمثول أمام المحققين، طلبت «لوكريثيا» مقابلة رئيس السجن.

قالت «لوكريثيا»:

ـ أريد أن أعرف متى سأُستدعى إلى جلسة استماع، فأنا منذ أسبوعين تقريبًا بعيدة عن بيتي، ومن دون أخبار عن العالم، وأظن أنني مسجونة من دون مبرر، وأنني بريئة من أي ذنب.

كان قائد السجن رجلًا ذا شارب كبير وشفتين لزجتي المظهر، يطلق اللعاب طوال الوقت. وقد أجابها من دون تكبر، ولكن «لوكريثيا» لاحظت أن نظرته تتجه بإلحاح كبير إلى بعض أجزاء جسدها المخبأة:

ـ على الآنسة ألا تقلق، فعما قريب ستقول ما عليها قوله أمام مَن يتوجب عليه معرفة أقوالها. استريحي الآن من دون قلق، فليس هناك ما هو أسوأ من الغم على جمال الجسد أو سلام الروح.

# ٢٢

أخيرًا، في مساء يوم الرابع من يونيو، جاؤوا في طلب «لوكريثيا» من أجل جلسة الاستماع الأولى. همس أحد الحراس في أذنها بأن عليها أن تظل واقفة، وأن تنتظر إلى أن يسألوها، وأن تعامل مستجوبيها بلقب أصحاب السيادة.

وكان قد قيل لـ«لوكريثيا» إنها ستجد في انتظارها ستة سادة على الأقل، ما بين قضاة، ومدعٍ عام، وكتبة. غير أنها لم تجد في القاعة التي اقتديت إليها سوى ثلاثة رجال فوق دكة مرتفعة، هي المكان البارز، وكانت حركات اثنين منهم وطريقتهم في الكلام تدل على سلطتهم، أما الثالث الذي بجانبهم فكان كاتبًا، يركز اهتمامه على ترتيب رياش الكتابة ودواة الحبر والأوراق.

أمرها أحد الرجلين، وقد عرفت «لوكريثيا» أنهم يسمونه المحقق، بأن تخبره باسمها، وعمرها، ومكان ميلادها، واسمي أبويها، وأين تسكن. وأجابت «لوكريثيا» عن أسئلته كلها بصوت واضح وطيب نية.

قال المحقق بعد ذلك بصوت وقور:

ـ رئيس هذا السجن أخبرنا بأن «لوكريثيا دي ليون» تطلب جلسة استماع. ولهذا أنتِ هنا.

ثم أضاف:

ـ أخبريني إذن لماذا تريدين الجلسة؟

أجابت «لوكريثيا» بتواضع شديد، ولكن بحزم:

ـ يا صاحب السعادة، لقد مضى أسبوعان مذ خرجت من بيت أبويَّ، وأشعر بالأسى في هذا السجن، لأني لا أظن أن هناك مسوغًا لحبسي.

ـ أخبريني يا «لوكريثيا دي ليون» إذا ما كنتِ تعرفين، أو تخمنين سبب وجودك سجينة لدى محكمة التفتيش.

ـ مَن جاء بي إلى طليطلة قال إن السبب يجب أن يكون أحلامي التي دُونت.

كان المحقق رجلًا نحيلًا، له شارب ولحية أسودان، إنما هناك في جبهته تجعيدات طويلة، وتتدلى تحت عينيه أكياس عميقة تشي بخداع تلك المظاهر الشبابية التي هي من دون شك ثمرة الصبغة والزينة. لا بد أنه خمسيني، أصابع يديه مرهفة وطويلة. كان ينظر إلى المتهمة من دون عدائية وبشيء من المفاجأة، كما لو أنه لم يكن يتوقع أن يكون للحالمة المشهورة مثل ذلك المظهر:

ـ وهل ترين أن تلك الأحلام يجب ألا تكون السبب في سجنك؟

ـ أنا أقول لسيادتكم إنني لم أفعل شيئًا أستحق أن تجلبوني هنا بسببه، لأني أحلم على الرغم من إرادتي، ولست أنوي بذلك إغضاب الرب أو أيٍّ كان.

سألها المحقق بعد ذلك، متى بدأت تحلم، فتحدثت «لوكريثيا» عن أحلامها الطفلية، وعقوبات أبيها لها، والعون الذي طلبته من متلقي اعترافاتها للتخلص من تلك الأحلام. وفي ردها على أسئلة المحقق غير النهائية، واصلت الحديث عن كيف هي هيئة الرجال الثلاثة الذين يظهرون في أحلامها، وكيف تحول «دون ألونسو دي ميندوثا» والراهب «لوقا دي أبيندي»، وهما من رجال الكنيسة والمتأدبين، إلى مدوني أحلامها التي ترويها لهما في جلسات الاعتراف. وقالت كذلك إنها لا تؤمن بتفسيرات رجلي الدين لأحلامها، ولكنها لا ترى أن لديها السلطة لمعارضتهما.

استمر الاستجواب وقتًا طويلًا، وظلت «لوكريثيا» واقفة طوال الوقت. لقد كانت منهوكة جدًّا، لكن توتر الاستجواب نفسه أفقدها الإحساس بالتعب، وركز اهتمامها على اكتشاف الأسباب الخفية لكل تلك الأسئلة، ذلك أن اهتمام المحقق المسهب بأحلامها وأمور أخرى متعلقة بمأكولاتها، وأسلوب حياتها، وتدينها، والناس الذين تتعامل معهم، ومعرفتها بـ«الكتابات المقدسة»، وحتى ذوقها في الموسيقى والرقص، توحي بشبكة كتيمة تُنسج بهدف وحيد هو اصطيادها بها.

راح إنهاكها يتعاظم، إذ كانت تجبر نفسها، إلى جانب الجهد البدني، على تركيز كل حواسها. وجاءت لحظة فقدت فيها الوعي، من دون أن تشعر بذلك، وتهاوت على الأرض.

عندما استعادت وعيها كانت تجلس على كرسي. هناك من حلَّ أحزمة ملابسها، غير أن المحققين كانا لا يزالان في الجانب الآخر من المنضدة العالية، وإلى جانبهما الكاتب غير المتأثر يحرك ريشته على الأوراق.

الرجل الآخر، وهو المدعي العام، حك رأسه قبل أن يسألها عما إذا

كان ممكنًا أن تكون حُبلى. وأدركت «لوكريثيا» أنه لم يعد بمقدورها مواصلة إخفاء حملها:

ـ إنني كذلك يا صاحب السيادة.

كان الرجال الثلاثة ينظرون إلى «لوكريثيا» بشراهة أخجلتها.

سألها المدعي العام:

ـ أخبريني كم شهرًا مضى على حملك؟

ـ إنها أربعة أو خمسة أشهر.

ـ اعترفي يا «لوكريثيا دي ليون» مع مَن أقمتِ علاقات جسدية، وإذا كنتِ تعرفين مَن يمكن أن يكون والد الوليد.

نظرت «لوكريثيا» إلى الرجال الثلاثة بغضب، لكنها حاولت التكلم بهدوء:

ـ لم أعرف رجلًا آخر سوى «دييجو دي فيكتوريس». وقد تعاهدنا كزوجين.

عندئذ استغرق المحقق في التفكير بعض الوقت، ثم أمرها بالانصراف. وستعرف «لوكريثيا» فيما بعد، من المأمور القضائي، أن ذلك المحقق هو الدكتور «دون لوبي دي ميندوثا»، وأنه هو نفسه الذي عثر على دفاتر أحلامها في بيت «دون ألونسو».

عندما وصلت إلى زنزانتها، اكتشفت «لوكريثيا» أن هناك أمورًا قليلة، في تلك السجون المسماة سرية، لا يعرفها الجميع فورًا، إذ كان خبر حملها قد وصل إلى هناك. وراحت «ماريا دي لابيجا» تتلمس بطنها فور وصولها.

سألتها:

ـ منذ متى أنتِ حبلى؟

وأخبرتها «لوكريثيا» بما تظنه.

ـ يذهلني يا «لوكريثيا» أنكِ استطعت إخفاء هذا البطن المنتفخ طوال هذه المدة.

بعد يومين من ذلك، استدعى «دون لوبي دي ميندوثا» «لوكريثيا» مرة أخرى. ومع أنه أشار إليها منذ اللحظة الأولى بأنها تستطيع الجلوس، إذا كانت تريد ذلك، إلا أنه كرر مرات عديدة الأسئلة التي وجهها إليها في المرة السابقة، وإن كان بصيغ مختلفة، كما لو أنه قد استجوب السجناء الآخرين منذ جلسة الاستماع السابقة.

أبدى «دون لوبي» من جديد اهتمامه بالرجال الذين تراهم في أحلامها، وطلب أن توضح له بالتفصيل ما يميز كل واحد منهم: كيف هي ملامحه، شعره وطريقته في الكلام، وطريقته في اللباس، وسماته وخصائصه المميزة.

تكلمت «لوكريثيا»، راضية، عن كل واحد منهم، وحاولت أن توضح بصورة دقيقة سماتهم الجسدية، وحتى نبرة صوت كل واحد منهم، وعددت كثيرًا من الأشياء التي تذكرها بهم: شِباك صيد، مصابيح، مشاعل، سعف.

سألها «دون لوبي» إذا ما كانت تعتقد حقًّا أن الرجل الذي يتكلم إليها عادة هو يوحنا المعمدان. وأن الصياد العجوز هو القديس بطرس. وأن القديس «لوقا» هو الصياد الشاب الذي يمضي عادة برفقة الأسد المربوط

إلى خصره. لكنها أنكرت ذلك، متذكرة أن من قدم تلك المطابقات مرات عديدة هو «دون ألونسو»، وقالت من دون رغبة في تقليص مكانة من كان حاميها الطيب، إنها مجرد امرأة جاهلة:

ـ أنا لم أكن أعرف هذه الأمور، لكن الصحيح أن الرجال الذين يزورونني في الأحلام قالوا لي إنه من المناسب لخدمة الرب أن أروي الأشياء التي ينقلونها إليَّ، كي تُعرف، لأنها مهمة للبلاد وللمسيحية.

ـ أهذا ما كان يقوله الرجال الثلاثة للمتهمة؟

ـ هذا بالضبط ما كانوا يقولونه. وأنا لم أكن أتدخل أكثر من ذلك، لأني أعرف أنني لستُ سوى صدى، وأنه عليَّ الرد بالصوت الذي يمنحونني إياه، كي يعلم بذلك كله سيدنا الملك، لأن ما كانت تقوله هيئات الرجال الثلاثة الذين يزورونني في الأحلام يجب أن يصل إلى جلالة الملك.

سألها المحقق الآخر بكثير من الوقار:

ـ وهل صحيح أن الرجال قالوا للمتهمة إن الملك وابنه سيموتان بسبب الخطايا التي ارتكبها جلالته، بقتل ابنه وزوجته، وقلة العدالة التي يدير بها ممالكه، ولأنه عدو الفقراء ولا يتصدق عليهم إلا بالقليل؟

لاحظت «لوكريثيا» أن صرامة صوت المحقق تنعكس في عيني الكاتب الذي رفع بصره عن الأوراق، وتوقفت ريشته، ونظر إليها بعينين ذاهلتين، وفم مفتوح قليلًا، في حركة تكرر اهتمامها في ملامح المحقق الآخر الحاضر إلى المنضدة.

ـ لقد تولى عدة أشخاص تدوين الأحلام، وأنا لستُ سوى واحدة.

وحتى لو كانت الأشياء التي يقولونها في تلك المدونات غير صحيحة، فإنني لم أعد أتذكر ما قلته لهم، ولا يمكنني أن أعرف ما هو كذب وما هو حقيقة في تلك الأحلام. وحتى لو تذكرت الأحلام كلها، فإنني لم أكن أؤمن بها ولم أعتبرها حقيقية، ولم يخطر لي قطُّ أنها يمكن أن تتضمن أمورًا خبيثة.

ـ أخبريني إذا ما كنتِ قد حلمت بأن خراب إسبانيا سيأتي نتيجة أعمال الملك الخبيثة.

ـ ما كان يطلبه رجال أحلامي الثلاثة هو إيصال كل ما أحلم به إلى جلالة الملك.

سألها «دون لوبي دي ميندوثا» عن البداية التي تعرفت بها «لوكريثيا» على «دييجو دي فيكتوريس»، ووثوقها به إلى حدٍّ جعله أمينًا على أحلامها، مع أنه ليس رجل دين ولا كاهن تلقي اعترافاتها. وأدركت «لوكريثيا» أنه لا بد أن يكون المحقق قد استجوب «دييجو» حول ذلك كله، فروت الأمور مثلما جرت. منذ الأحلام التي بدأ الشاب يظهر فيها حتى تحديد الراهب «لوقا دي أييندي» لهويته. وكيف عرَّفها الراهب عليه، وكيف أحب كل منهما الآخر، ومتى جرى زواجهما السري.

جلسة الاستماع الثالثة جرت في الثالث عشر من يونيو، بناء على طلب «لوكريثيا». وكان يرافق «دون لوبي دي ميندوثا» في تلك المناسبة المدعي العام ومحقق آخر لم تره من قبل لأنه كان مريضًا حتى ذلك الحين.

وبعد أن فكرت «لوكريثيا» طويلًا حول أفضل طريقة للتصرف، قررت مواصلة التصرف على أنها الفتاة التي كانتها حتى ذلك الحين، داهمتها

أحلام لم تردها ولم تسعَ إليها، وأعلنت للمحكمة أنها رأت في السجن حلمًا تطلبُ من المحكمة أن تستمع إليه.

وعندما أُذن لها بروايته، قالت إنها رأت التنين ذا الرؤوس السبعة يهدد مدينة طليطلة بأنفاسه النارية ومخالبه المنتصبة، ولكنه لا يتجرأ على مواصلة التقدم، إذ أوقفه على ما يبدو تمثال الملاك ميخائيل الذي يهز سيفه المشع.

كان هناك بريق ارتباك في نظرات المحققين والكاتب، وأدركت «لوكريثيا» أن رواية رؤياها لم توقظ فيهم أي انبهار كالذي كانت تُحدثه في أصدقائها السابقين والمعجبين بها.

ومن دون أن يشير المحققون إلى ذلك الحلم، كما لو أنه من غير المناسب مجرد معرفة وجوده، حاولوا التعمق في الرؤى التي دوَّنها «دون ألونسو» في دفاتره، ليعرفوا إذا ما كانت أحلامًا حقيقية أم أنها أحلام يقظة جالت في ذهنها من دون أن تكون نائمة بالكامل، وليتبينوا إذا ما كانت مدركة خطورة ما تتضمنه تلك الأحلام فيما يتعلق بجلالة الملك ووزرائه، والمدى الذي يمكن أن تصل إليه على ألسنة العامة السفهاء.

تذكرت «لوكريثيا» أنه بحضورها في أحد الأيام، وبحضور كاهن كنيسة «سان سيباستيان»، قال راهب من معارف «دون ألونسو دي ميندوثا» إنه يمكن استنساخ تلك الأحلام كما لو أنها كتب فروسية، وهو أمر يشير إلى قلة اهتمام أولئك الكهنة. لكن المحققين كانوا يبحثون عن تفسيرٍ لتلك النواحي التي تذكر بها الأحلام الملك أو تقدمه في أوضاع غريبة، مجردًا من أي مهابة، عندما لا تصل إلى السخرية من جلالته، مما أفقد «لوكريثيا»، للمرة الأولى، الهدوء الذي أبدته طول ساعات، وأوشكت على البكاء،

ولكنها كبحت دموعها، وكررت من جديد ما كانت قد أعربت عنه في مرات أخرى:

ـ المرء لا يتحكم في الأحلام، ولا يرتكب خطيئة حين يراها، لأنها لا تعبر عن مشيئتنا. لاحظوا حضراتكم أن أولئك الكهنة هم من كانوا يستنسخون أحلامي، وأنا لستُ سوى امرأة شابة جاهلة، كان على أولئك الدكاترة أن ينبهوني إذا كانت أحلامي تستدعي عدم البوح بها. أنا لا أتحمل أي ذنب تحضرونني بسببه إلى هنا، وأطلب أن تُخرجوني من السجن، لأني لا أستطيع تحمله.

في تلك الليلة بالذات، رأت «لوكريثيا» واحدًا من الأحلام التي لا تعرف إلا في النهاية حقيقة طبيعتها كأحلام. كان نور الفجر الغبش ينفذ من الكوة العالية، ترافقه زقزقة عصافير صاخبة وهمهمة غامضة من الصلوات في الدير المجاور. عندئذ رأت «ماريا دي لابيجا» تستوي في سريرها، ثم تفتح عينيها وهي جالسة، وبدأت تتكلم بصوت الرجل مرتدي الجلود الذي يظهر في أحلامها عادة:

ـ أيتها الفتاة «لوكريثيا»، توقفي عن البوح بأحلامك، لأنها لن تأتيك بشيء طيب من هؤلاء السادة محققي التفتيش. فكل ما هو مدوَّن من أحلامك سيجري تفحصه وتقليبه ألف مرة للعثور فيه على أثر من هراء، وحتى من الخطيئة والهرطقة. استعدي بالصلوات للمحنة التي ستواجهينها واحتفظي بأحلامك لنفسك وحسب.

لم تطلب مزيدًا من جلسات الاستماع، ولم يعودوا هم إلى استدعائها. جاءت أشهر الحر، وكانت زنازين ذلك القسم من السجن توفر بعض الراحة

بظلها وبرودتها، بينما كانت الشمس تسطع بقوة على الردهات والأفنية، حيث تلتقي أصداء النواقيس مع هديل الحمائم.

وكان تقدم حَمل «لوكريثيا» يتواصل، ويزداد بطنها وثدييها تكورًا، وتصبح حركاتها أشد خراقة، ولكنها تشعر بأنها على ما يرام، بذهن صاف، وبإحساس واضح بالحياة في كل أعضائها، كما لو أن الحَمل هو الحالة الطبيعية لجسدها المنهك دومًا بالأمراض والحمى.

## ٢٣

في أواخر الصيف أنجبت «لوكريثيا» طفلة أنثى بمساعدة «ماريا دي لابيجا» وامرأة أخرى اسمها «أولاَيّا»، مسجونة بدعوى أنها ساحرة.

كانت الولادة خبرًا سعيدًا في حياة السجن الكئيبة، وقد احتفى بها الجميع. فوكيل التموين وزع في ذلك اليوم حصة مضاعفة من النبيذ على نفقة محكمة التفتيش، وذهب المحقق «دون لوبي دي ميندوثا» لرؤية الأم الجديدة وابنتها ومعه طبيب من المحكمة.

قال «دون لوبي»:

ـ أرى أن الأم وابنتها على ما يرام. ولأن الرب شاء أن تكون ولادة الطفلة في هذا السجن وفي هذا الوقت، فإنني أعدك بأن أكون عرابها.

عُمدت الطفلة بعد بضعة أيام باسم «مرجريتا»، ولم يكن «دون لوبي» وحده هو عرابها، وإنما محققا المحكمة الآخران كذلك.

ذلك التقدير الفريد من جانب السادة المحققين جعل «لوكريثيا»، على الرغم من الوهن الشديد الذي أصابها بعد المخاض، تشعر بسعادة كبيرة،

وزاد من أهميتها في نظر السجناء الآخرين ومأموري القضاء، والحراس والبوابين.

وخلال تلك الشهور الأولى، بدأت «لوكريثيا» تفكر في أن المخاوف العظيمة التي تثيرها محاكم التفتيش بين الناس ليست صحيحة بالكامل، فهي لم تكتشف في سجون محاكم التفتيش السرية، بمرور الوقت، الظروف المرعبة التي تبدو في عمليات الإعدام بالحرق، وفي كلمات الأحكام وملابس المحكومين الصفراء والسوداء.

وبعيدًا عن أن يكون مكان عقاب رهيب، وجدت «لوكريثيا» هناك طائفة صغيرة من الناس المضطرين إلى التأقلم، من دون أي وسيلة راحة، مع بعض المضايقات والاحتجاز، يزيد من الإزعاج فيها القمل والبق، والفئران والطعام السيئ، ولكنه موسوم بالنسبة إلى معظم السجناء بالأمل في يوم تنتهي فيه مدة حبسهم، فتمنح الحريةُ المستعادة ذلك الحبس بعدًا عابرًا وزائلًا.

ومع ذلك، لم تتوقف «لوكريثيا» عن الاعتقاد بأن محاكم التفتيش اعتادت أن تكون سببًا في عقوبات وعمليات موت ودمار رهيبة، ولهذا عندما كانت تُتلى في الكنائس، كل سنة، مراسيم الإيمان، طالبة ممن لديهم ما يستحق التأنيب أن يتقدموا بأنفسهم طوعًا، كان يسود المدينة طوال عدة أيام ذهول شلل، إذ كان يُعرف أن عمليات التفتيش ستشتد، بمساعدة ما لا حصر له من الوشايات المغفلة، وتقصٍّ دؤوب من جانب المتعاونين الكثيرين مع محاكم التفتيش بحثًا عمن ارتكبوا خطيئة ما ضد الإيمان، أو أظهروا في سلوكهم ما يثير الشبهة.

وفجأة، يمكن لأسرة بكاملها أن تختفي ذات ليلة، لتظهر بعد وقت طويل

في محرقة من تلك التي كانت شائعة، أو مثل تلك الوقائع التي يجري الحديث عنها في أراضي «المنتشا» و«إستريمادورا»، أو في بلد الوليد، وبصورة خاصة في طليطلة التي تتبع لها العاصمة قضائيًّا. حيث يظهر في أحد الأيام أفراد الأسرة المختفية بملابس المحكومين المهينة، وأجسادٍ أنهكها التعذيب، ربما ليشهدوا موت واحد منهم في المحرقة، بعد أن فقدوا كل أملاكهم واضطر من بقي منهم حيًّا إلى التسول أو الدعارة لإقامة أوده.

لم يكن يُعرف شيء عن السجون السرية التي ظل فيها أولئك الناس طيلة فترة اختفائهم، لأن من عانوا منها لم يتكلموا عنها قطُّ. ويقال إن صمتهم ذاك هو استجابة لتوصيات بالغة الصرامة، يحمل إليهم تجاوزها عقوبات كبرى. لكن الآراء التي يجري تداولها في الأسواق وعلى أدراج الكنائس تحمل خبرًا عن فترات عزل انفرادي طويلة وشاقة، وعن أغلال، وأصفاد، وسلاسل، وما لا حصر له من جلسات التحقيق والتعذيب الجسدي المؤلم جدًّا.

ولا بد أن ثمة شيئًا صحيحًا من ذلك كله، ذلك أن المتهمين يحتفظون بصمت حذر حول بعض الأمور. فقد أرادت «لوكريثيا» أن تعرف تجربة «ماريا دي لابيجا» في السجن، حيث هي معتقلة منذ أكثر من سنة، لكن المرأة لم تشأ الحديث عن ذلك. وحيال إلحاح «لوكريثيا»، اعترفت لها زميلتها في أحد الأيام ببعض الأمور:

ـ «لوكريثيا»، أطلب ألا تلحي في سؤالي. فعلى الرغم من أنني أبدو متماسكة، إلا أنني في الحقيقة ممتلئة بالمخاوف. ففي السنة الماضية، تعرضت شابة مثلنا، وتدعى أيضًا «ماريا دي لابيجا» للتعذيب والحرق، لأن القضاة وجدوا أنها ترفض التنكر لشريعة موسى.

بدأت «لوكريثيا» تدرك أنه ربما كانت انطباعاتها الأولى مخادعة. أضف إلى ذلك أنه في لحظات النزول إلى البئر لملء الأواني والأباريق، كانت نظرات السجناء القلقة تتجه إلى البوابة التي بجانب المبنى المقابل لزنازين السجن، والمؤدية إلى الأقبية، حيث تجري عمليات التعذيب، منتظرين سماع أنين أحد السجناء. كانت «لوكريثيا» ترى تلك البوابة مقفلة في معظم الأحيان، لكنها سمعت في مناسبات عديدة تأوهات ألم آتية من ذلك المكان.

ومع ذلك، منذ جلسات التحقيق الطويلة التي تعرضت لها بعد قليل من اعتقالها، لم تكن هناك أية مفاجآت تُقلق «لوكريثيا». وباستثناء افتقادها الحرية، واضطرارها إلى البقاء محتجزة في الزنزانة طوال معظم اليوم، لم تكن حياة السجن تبدو لها شديدة القسوة.

لقد منحها ميلاد ابنتها وسيلة للتسلية، فـ«لوكريثيا» التي لم تلعب بدمية قطُّ، لأن تأملاتها وهي طفلة لم تكن بحاجة إلى أشياء تمثل الهيئة الواقعية لتخيلاتها، تعاملت مع ابنتها كما لو أنها دمية حية حطت فجأة بين ذراعيها، فكانت تقضي الساعات في إطعامها والعناية بها من دون أن تشعر بضيق سجنها.

بعد قليل من ولادة الطفلة، بدأت «لوكريثيا» بتلقي رسائل من «دييجو». وكانت في تلك الأثناء، على الرغم من محاولتها إخفاء الأمر وعدم التصريح به أمام القضاة، قد صارت قادرة على قراءة الحروف الواضحة، وحتى كتابة كثير من الكلمات بخط مائل.

كانت رسائل «دييجو» مكتوبة بحروف صغيرة ودقيقة، على قصاصات ورق مستطيلة لا يزيد حجمها على حجم راحة اليد. ومن أجل التمكن من

إخفائها بين الأصابع، كانت تُطوى في ثنايا عديدة، ثنيتان طوليتان أولًا، وخمس ثنايا عرضية بعد ذلك.

كان «دييجو» يتقاسم زنزانته مع ابن خال لـ«ماريا دي لابيجا»، وهو متهود أيضًا، يدعى «خوان لوبيث». وكانا قد توصلا، مثل بقية السجناء، إلى التواصل وتبادل أشياء صغيرة وبعض الأطعمة مع امتداد فترة سجنهما. وكانا يستغلان، من أجل ذلك، موعد إفراغ المباول في المراحيض. فبينما الحراس ينتظرون في الخارج، يترك السجين، في مكان متفق عليه في الجدار، الرسالة الموجهة إلى من يود الاتصال به، بعد أن يكون قد نبهه إلى ذلك مسبقًا بالطرق على جدران الزنزانة أو على بابها، ووفقًا لعدد الطرقات تعرف هوية المرسل إليه.

تضمنت رسالة «دييجو» الأولى مشاعر حب عظيم، ومنحت «لوكريثيا» وزميلتها سعادة كبيرة، إذ لم تتوقف «لوكريثيا» عن قراءتها، لترد الجميل إلى زميلتها وابن خالها على المساعدة التي قدماها إليها في تلك المراسلة.

بدا «دييجو» في رسالته كأب مبتهج. وقال إن خبر تلك الولادة السعيدة قد منحه الراحة التي افتقر إليها حتى ذلك الحين، ويطلب معرفة اسم ابنته. وكانت الرسالة مكتوبة على ورقة مستعملة مسبقًا، ويمكن أن تُقرأ على أحد أطرافها أبيات شعر هي جزء من قصيدة أطول كانت تشغل من دون شك الورقة الأصلية، ومع أن «لوكريثيا» لم تستطع فهم مغزى تلك الأبيات، إلا أنها اعتبرتها تكريمًا غراميًّا:

أدخلتها

عيناي الجائرتان

والبستان في يديها

لدى الخروج رأتاها

وهن «لوكريثيا» لم يُتح لها أن ترسل إليه ما يشير إلى تلقيها تلك الرسالة. وبعد قليل من ذلك، تلقت وريقة أخرى مغطاة تمامًا بكتابات يلح فيها حبيبها، بعد التحسر على توعك صحتها التي شاع خبرها في السجن كله، على تقديم ألف مباركة لها على الولادة والسؤال عن اسم الطفلة مبديًا سعادته لاهتمام السادة محققي التفتيش بها ورعايتهم لها: «وكي أعرف أنكِ قد تلقيتِ هذه الورقة، اطرقي في الساعة السادسة تمامًا على جدار حجرتك الذي باتجاه هذه الحجرة أربع طرقات قوية، كمن يدق مسمارًا. وفي أول فرصة تتاح لكِ، ألقي من فوق جداري الفاصل شريطةً أو خصلة شعر أو أي شيء منك ملفوفًا في قطعة ورق».

هذا ما قالته الرسالة أيضًا. وينبه «دييجو» فيها إلى أنه حصل هو و«خوان لوبيث» على مساعدة شخص يقف بجانب الدرج الدائري من أجل تسهيل نقل الرسائل والأشياء الأخرى. وذلك المسار الذي مكَّن في البدء من إيصال اسم الوليدة إلى «دييجو»، كان مفيدًا جدًّا فيما بعد من أجل تواصلهما.

حين عرف اسم ابنته، أبدى «دييجو» سعادة كبيرة. وفي رسالة طويلة، ضغط فيها الحروف إلى أن صارت دقيقة جدًّا، ولكن من دون أن يجرد ذلك الكلمات من الانتظام والوضوح، أعلن أن سعادته بمعرفة الاسم لا يمكن أن تدانيها سعادة أخرى سوى معرفته يومًا بإطلاق سراح «لوكريثيا»، لا سيما أن الطفلة في مخيلته كانت تحمل اسم «مرجريتا».

تلك اللفافة الصغيرة التي وقَّعها «دييجو»، كعادته، بحرف «د» يليه حرف «س»، أرفقها ببعض القطن وبمسحوق يُصنع منه حبر، وريشة كتابة وقصاصات صغيرة من الورق، موضحًا لها أنه يجب صنع الحبر بمزج القطن وذلك المسحوق بقليل من النبيذ أو الخل، وأنه لا بد من الاقتصاد في الورق إلى أقصى الحدود، لأن هناك شحًا كبيرًا، ويجب استخدامه في قطع صغيرة، والكتابة في أي هامش أبيض يمكن العثور عليه.

كانت «لوكريثيا» قد بدأت تستعيد عافيتها شيئًا فشيئًا. وأضاف وضعها كأم شابة مزيدًا من الشهرة إلى أحلامها. وقد تلقت رسائل من سجناء آخرين، وطلبات بالنصح، وحتى بعض الهدايا الصغيرة التي تتبدى فيها، بافتقاد الثراء، براعة صانعيها ومحبتهم الحانية.

ومع مرور الوقت، راح تسامح الحراس نحوها يتعاظم. فقد صاروا يسمحون لها بالبقاء مع الطفلة في الهواء الطلق في الفناء أكثر مما هو مسموح في الأنظمة اليومية. وعندما يذهب السجناء والسجينات لملء أباريقهم الفخارية بالماء، أو لإحضار وجبات طعامهم، كانت تستطيع التكلم مع المتهمين الذين في زنازين قريبة من زنزانتها.

وهكذا، على الرغم من عدم تمكن «لوكريثيا» من رؤية أيٍّ من أفراد جمعيتها الأخوية القديمة، لأنهم يخرجون في ورديات مختلفة عن موعد ورديتها، إلا أنها كانت تتبادل الحديث في أحيان كثيرة مع العجوز «أولايًا» ومع جيران زنزانتها الآخرين، والكابتن الباسكي «بيدرو إيبانيث دي أوتشانديانو»، الرجل الوسيم، ومع «خوان أوثيو دي سالازار» ذي العينين المعبرتين. كما أنها كانت تتحدث إلى موريسكي من البرتغال ومع متهودين آخرين من «كينتانار»، هم أقرباء «ماريا دي لابيجا».

كان الجميع يسألونها عن رؤاها، لكنها قررت توخي الحذر، عملًا برأي ناصح أحلامها الليلي، ولم تعد تتحدث عنها تقريبًا، وإذا ما فعلت ذلك اقتصرت على رواية الرؤيا التي رأتها وهي في السجن عن الصراع بين التنين ذي الرؤوس السبعة والملاك ميخائيل المجيد، وكيف أن التنين كان يهمهم بين أنفاسه اللاهبة: «يا لتعاستك يا إسبانيا، لسوف تُدمرين ويستولي عليك «باندوما» ملك نافارا!».

وكانت تحدثهم كذلك عن أشياء عجيبة أخرى، مثل ظهور القديس «لورينثو» في الإسكوريال، وكيف بعث الرهبة والخوف في نفوس الرعاة الذين في الجبل، أو ظهوره في مدريد، في منتصف الليل. والصورتان كلتاهما تؤشران إلى الدم الإسباني. ورؤيا ذلك الجبل الذي يغور في باطن الأرض قبيل إبحار أسطول «الأرمادا» المشهور باتجاه إنجلترا، ونهايته المشؤومة.

وتروي لهم أحيانًا ما سمعته من «دون ألونسو» عن متنبئين وأصحاب رؤى مشهورين آخرين، مثل تلك القديسة «بريجيدا»[1] التي انكشفت لها في أحد بلاد الشمال النائية دعوات العالم المسيحي لشن حروب صليبية جديدة، أو ذلك القديس «إيسدورو» الذي تنبأ بغزو المسلمين لإسبانيا قبل زمن طويل من ميلاد «دون أوباس» و«لذريق» و«كافا» الجميلة، أو الرسائل التي عُثر عليها في صناديق من الرصاص مخبأة في أساسات برج غرناطة، تحذر من المخاطر التي يتعرض لها العالم المسيحي، وتتنبأ بخراب إسبانيا.

وفي السجن، راحت «لوكريثيا» تتعرف على سجناء بتهم مختلفة من محاكم التفتيش. وبين المتهودين والموريسكيين، ومتعددي الزوجات،

كان هناك معاقبون متهمون بالفحش لأنهم يدافعون عن أن المضاجعة بين رجل وامرأة بالغين وحرين ليست خطيئة. وكان هناك سجناء آخرون متهمون بإخفاء معلومات عن المحكمة، وعرقلة بحثها وعملها. وغيرهم ممن ادعوا أنهم من أعوان محاكم التفتيش، وزوروا تصاريح وبراءات بابوية. وآخرون محتجزون لأنهم مجدفون. وآخرون متهمون بأنهم دخلاء على سر الاعتراف وطقوس القداس. كما كان هناك كثيرون تجرؤوا على امتطاء الخيول، أو حمل السيوف على خصورهم، أو ارتداء ملابس حريرية، على الرغم من أنهم غير مؤهلين لذلك بسبب تلوث دمائهم.

كان المتهمون يستمعون إلى قصص «لوكريثيا» بانبهار. ومع أن كثيرين منهم يخفون حقيقة مشاعرهم، إلا أنها رأت أن ما في قلبها من كراهية للملك هو شعور مشترك بين الجميع.

فضول رفاقها في السجن تجاه تنبؤاتها الخاصة كان ملحًّا إلى حد تشعر معه «لوكريثيا» بالفخر والاعتزاز بموهبتها. أضف إلى ذلك أنها كانت تجد في «ماريا دي لابيجا»، وفي ذلك الكابتن «بيدرو إيبانيث» ورفيقه في الزنزانة «خوان أوثيو»، ذكرى التقدير والصداقة التي أبداها لها في السابق أعضاء جمعية الإصلاح الجديد. وكانت تلك المودة الأخوية تقويها وتمنحها الثقة للتحدث بمزيد من الحرية وعدم الحذر.

وفي إحدى المناسبات، وبعد أن كانت تتكتم على سر تخفيه كما لو أنه ميراث محصن في مواجهة مطالب مفتشي التحقيق، قالت بإيحاء غامض وكلمات غير مباشرة إن علماء لاهوت وسادة كبار من أمثال «دون ألونسو» والراهب «لوقا» و«دون جيِّن» يعتمدون على صمت فتاة فقيرة مثلها من

أجل نجاتهم من عقاب محكمة التفتيش، لكنها تعبت كثيرًا من الحفاظ على كل ذلك الحذر:

ـ أنا لستُ بحاجة إلى البقاء سجينة بسبب جنون آخرين. وبما أن الأمور لن تصلح قريبًا كما يجب، فلا بد لي من أن أكون مثل «أتان بالام»، وأن أقول الحقيقة حتى لو كانت مؤلمة.

# ٢٤

ذات مساء، في أواخر شهر نوفمبر، وفي الوقت الذي تُشعَل فيه بعض المجامر في الممرات لبعث قليل من الدفء في محابس غير القادرين على الدفع، جاء رئيس السجن إلى زنزانة «لوكريثيا» ليطلب منها أن ترافقه.

أحست «لوكريثيا» بخوف شديد، لكن الرئيس طمأنها، بكلمات طيبة وابتسامات كثيرة، بشأن الهدف من طلبه. ثم اقتادها عبر الردهات العلوية إلى قسم آخر من المبنى الرئيسي حتى وصلا باب إحدى الزنازين. وكان هناك إلى جانب ذلك الباب قفص خشبي كبير، أشبه بقن غريب الشكل ممتلئ بالدجاج. فتح الرئيس الباب، ووجدت «لوكريثيا» نفسها في محبس «دون ألونسو دي ميندوثا».

كانت قد انقضت أكثر من ستة أشهر مذ رأت «دون ألونسو» آخر مرة. وبدا لها رجل الدين أكثر نحولًا مما كان عليه من قبل، وأن الشيب قد كثر في شعره.

عانقها «دون ألونسو» بمحبة كبيرة، وبدأ التكلم بتلعثم:

ـ «لوكريثيا»، بُنيتي، لقد اشتقت إليكِ كثيرًا. هل أنت على ما يرام؟

هزت «لوكريثيا» كتفيها بعد أن قبَّلت يديه. كانت عينا «دون ألونسو» معمصتين ولحيته على خديه سيئة التشذيب، مكملة بذلك صورة من الإهمال. أحست الفتاة بأسى شديد وأوشكت أن تُظهر ذلك، لكنها لم تشأ أن تزيد من حزن رجل الدين:

ـ لا ينقصني أي شيء باستثناء الحرية يا أبتاه!

ـ لا تقلقي بهذا الشأن، فعما قريب سيعيدون إلينا حريتنا.

سألته «لوكريثيا» وهي تشعر أمام الخبر بفيض مفاجئ من البشر:

ـ أأنت متأكد؟

ـ ألا تعرفينني جيدًا؟ ليس لمحكمة التفتيش أي سلطة علينا.

ـ وسيطلقون سراحنا؟ سنعود إلى البيت؟

ـ هذا ما أعمل من أجله. فقد أرسلت، من خلال «دونيا خيرونيما دوريا»، مذكرة إلى البابا أخبره فيها بكل شيء، وأطلب منه العدالة ودفع أذى هؤلاء القضاة الذين أطعن في صلاحيتهم. فمقررات مجمع «ليتران المسكوني» الذي عقده البابا «ليو العاشر»، الجلسة العاشرة، تخولنا نحن اللاهوتيين دراسة أحلام مثل أحلامك ونشرها إذا كانت حميدة، مثلما هو الأمر في هذه الحالة.

أدركت «لوكريثيا» أن تأكيدات «دون ألونسو» تلك حول حريتها الفورية تستند إلى مسوغات غامضة وخطط حقوقية، فتلاشى استبشارها.

لاحظت تبدلًا كبيرًا في طريقة «دون ألونسو» في الكلام، إذ فقد رجل

اللاهوت الكثير من عزيمته وثقته بنفسه، وكان يتكلم بعصبية ويضفي على صوته شيئًا من التكتم لم يكن لديه قطُّ. أضف إلى ذلك أن رائحة العنبر التي كانت تفوح منه استُبدلت برائحة حموضة السجن، رائحة عرق وشحوم طبخ شعبي تضاف إلى المظهر المهمل لمن كان يبدي على الدوام اهتمامًا بالغًا بمظهره الشخصي لاستكمال صورة المتنكر المهيب.

لم تشأ «لوكريثيا» إطلاعه على خبر أمومتها، وواصلت الاستماع إليه وهو يتحدث عن تلك الفكرة المتسلطة التي يبدو أنها تستحوذ على تفكيره.

ـ عما قريب سنكون جميعًا أحرارًا، وسأغادر هذا السجن الذي أدخلوني إليه بدافع الحسد، حيث الضوء شحيح ولا وجود لأي شمس أو هواء.

ومع ذلك، لم تكن زنزانة «دون ألونسو» تبدو على ذلك القدر من الكآبة. فهي واسعة، عالية السقف، لها نوافذ كبيرة لا بد أن الضوء والشمس يدخلان منها. والعنصر البارز في الحجرة هو منضدة طويلة إلى جانبيها مقعدان يمكن أن يجلس عليهما اثنا عشر شخصًا. وكانت هناك سجادة تزين أحد الجدران ومجمر كبير يدفئ الحجرة المتصلة بأخرى أصغر منها، حيث يقف رجل شاب أمام موقد، ويحرك محتويات قدر بمغرفة خشبية كبيرة.

سألته «لوكريثيا»:

ـ وأنت أيضًا لستَ وحدك؟

ـ لقد قلت لكِ إنه عليك ألا تنسي مكانتي يا بنتي «لوكريثيا». فبإذن خاص من مجلس محاكم التفتيش الأعلى، لديَّ طاهٍ وخادم

لمساعدتي. وعما قريب ستعرفين أنني، وإن أكن سجينًا، لم أفقد نفوذي أو أهليتي باستقبال ضيوف مرموقين.

بعد قليل حضر «دون لوبي دي ميندوثا»، محقق التفتيش، واستعاد «دون ألونسو» مزاجه المتزن والمتكبر الذي عرفته به «لوكريثيا» على الدوام، وقام بكل تهذب بدور المضيف على العشاء الذي ذكَّرها، بما فيه من تعدد الأطباق والأنبذة، بالمآدب التي اعتاد أستاذ اللاهوت تقديمها.

أطرى «دون لوبي» على مذاق الديوك المخصية، وعلمت «لوكريثيا» أن تلك الديوك أُخذت من قفص الدجاج الذي في الردهة. ما كان لأحد أن يفكر أنهم في سجون محاكم التفتيش المملة، فقد كان الجميع سعداء جدًّا، وقد قرأ «دون ألونسو» بعض الأشعار الغامضة التي نظمها في السجن، ومما تقوله تلك الأشعار:

ميزة القلوب النبيلة

أنها لا ترغب في عمل أي شيء

لمجرد الرغبة ومن دون مسوغات

لمن لا يقدم عنها مبرر مقبول

تعلموا مني إذن أيها الرجال

في النهار والليل تضيء الشمس والقمر

وهنا في القسوة لا يمكنني

إطباق فمي، كنهر رخيٍّ أصابه البكم

وأبدى «دون لوبي» من جانبه اهتمامًا كبيرًا بـ«لوكريثيا»، وأطرى على جمالها. وكانت قد بدأت تستعيد عافيتها بعد ما عانته من آلام المخاض، وبرزت مفاتن جسدها أكثر من السابق.

تكررت تلك المآدب عدة مرات، لكن المحقق «دون لوبي دي ميندوثا» لم يكن يحضرها كلها. وفي بعض المرات كانت تحضر صديقة رئيس السجن، وهي سمراء ضاحكة وبارعة في فنون الرقص الموريسكي. وقد اعتادت أن ترقص، من دون موسيقى، بعد تناول التحلية لإمتاع المدعوين.

تلك الامتيازات التي تمكن «دون ألونسو» من التمتع بها أعادت إليه طبعه المتحرر، وجددت اهتمامه بـ«لوكريثيا» مثلما كان قبل السجن، وصار يرسل إليها كثيرًا من الأطباق اللذيذة التي يحضِّرها ذلك الطاهي الخاص. وهكذا كانت «لوكريثيا» تتمون بلحم الخراف والدجاج والخنزير، وتتقاسمه مع «ماريا دي لابيجا»، وصارت تدعو كذلك البوابين والمتهمين في المحابس المجاورة، بل تمكنت من إرسال بعض الطعام إلى «دييجو» الذي صارت تدعوه زوجها، مع أنها تلقت في أحد الأيام رسالة منه يبدي فيها غيرته الشديدة، ويقول إنه يعلم أنها أمضت إحدى الليالي مع «دون ألونسو» على انفراد.

وكالعادة، كانت «لوكريثيا» توقظ اهتمام الرجال. وفي عشاء آخر في محبس «دون ألونسو»، حضره أيضًا محقق التفتيش «دون لوبي دي ميندوثا»، ولا بد أنه أكثر من تناول الشراب، فحوَّل إطراءه على الفتاة إلى مغازلات، وكان في بعضها لجوجًا. ووصل إلى القول لها:

ـ أنت جميلة إلى حدٍّ لن يتورع ميت عن تحبيلك.

وكان يأتي في بعض الأحيان لرؤيتها في محبسها أحد أعوان رئيس السجن، ويعلن بحيوية عن استمتاعه بالتحدث إليها، واستغل في أحد الأيام وجود «ماريا دي لابيجا» خارج الزنزانة، حيث خرجت لتغسل الطسوت، فاحتضنها وراح يقبِّلها من دون أن تتمكن «لوكريثيا» من الإفلات منه.

- أقسم بالرب المبارك إنك تسببين لي الجنون يا «لوكريثيا»، وأود أن أُثبت لك ذلك الآن بالذات لولا هؤلاء البوابين القريبين الذين يقفون حيث يجب ألا يكونوا. لكنك ستعرفين يومًا ما هي شهوة رجل عاشق.

مما لا شك فيه أن ذلك الحبس، حيث العمل المتعب الوحيد فيه هو تنظيف الزنزانة، وحيث تطول الساعات من دون بصيص تبدل، وتصبح موضوعات الأحاديث المتقطعة غير نهائية، وحيث لا أحد ينسى المحاكمة الصارمة التي يخضع لها، ولا تلك الأقبية التي تنتظر فيها أدوات التعذيب قرار المحققين لتنهش لحوم المتهمين وتثني إرادتهم، كان مكانًا مناسبًا لتهييج المشاعر الحسية.

وكانت «لوكريثيا» تشعر باندفاعات تلك الغريزة كما لو أنها خاصية أخرى من سمات الزنازين المظلمة والممرات الطويلة، إلى جانب رائحة الرطوبة، ودخان الحطب المحترق، وروائح شحم الخنزير المطبوخ والخضار ونتانة المراحيض التي تنفذ إلى كل الأركان.

كانت الحسية تتبدى في النظرات، في التفكير، في المعاني المزدوجة لأسماء الأشياء، في الأخبار الصغيرة التي يجري تداولها كل يوم في الأروقة والزنازين. ففي أحد الأيام يقولون إن الحراس فاجأوا «دون جييَّن دي كاساوس» الذي يبدو أنه مريض ومحموم منذ شهور،

في ممارسة فعل خطيئة الاستمتاع بنفسه. وفي يوم آخر يقولون إنه لدى الذهاب لإفراغ المباول في المراحيض، وجدوا رجلًا يدعك نهدي امرأة تكشف له عن صدرها.

ويتوالى ترديد هذه الحكايات مرة بعد أخرى، مثيرة ضحكًا لا مفاجأة فيه ولا سعادة، ينتهي متحولًا إلى شبح للضحك الحقيقي، وحتى العجوز «أنطون أثينيا» لم يكن يتوقف عن التلفظ بكلمات مخجلة ومشينة.

وكانت «لوكريثيا» أيضًا تجد نفسها تحت تأثير تهيجات الجميع، وتفكر في أحيان كثيرة بـ«دييجو دي فيكتوريس» وتستذكر بشهوة لحظات من معانقاتهما الغرامية وتفاصيل من مداعباته لها.

وكان بين سجناء الزنازين المجاورة موريسكي من غرناطة يدعى «لويس جوثمان»، طويل القامة، له لحية كثيفة مثل الجندي المتنبئ، يستثير في «لوكريثيا» ارتباك الشهوة الجلي. كانت تتبادل معه الحديث بكثرة، لأن ذلك الرجل الذي يعتني بدجاجات «دون ألونسو»، يرى مثلها أحلامًا ونبوءات. ولكنها حين ترجع إلى زنزانتها، بعد اللقاءات القصيرة معه، تشعر بأنها تتأجج بالرغبة الجسدية، حتى إنها انهمكت، من أجل تهدئة ذكراه، بحياكة شال أهدته إليه. وحيال مزاح «ماريا دي لابيجا» التي اتهمتها بأنها تفضل عشيقًا على زوجها، كانت «لوكريثيا» تداري بالسخريات ميلها إلى الموريسكي وترد بالقول إنه يمكن لذلك المدعو «جوثمان» أن يكون عشيقًا لو أنه ثري، وهو أمر مستحيل.

في أمور الغراميات والحسيات تلك، كانت «ماريا دي لابيجا» محدثة لا تمل، تتذكر بكل تفصيل كل قصص المغامرات المبكرة التي عرفتها في حياتها. وكانت تهوى رواية تجاربها الجسدية مذ كانت طفلة. وفي الليل،

بعد الموعد الإجباري لإطفاء القنديل، وبينما هما مستلقيتان للنوم، تكرر رواية تلك القصص ببطء وبصوت محايد، كما لو أن روايتها لذكرياتها تساعدها في أن تعيش مجددًا تلك المتع المستحضرة.

كان الجميع يشاركون في الأحاديث حول هذا الموضوع، وقد روى الكابتن «بيدرو إيبانيث دي أوتشانديانو» أنهم سجنوا في إحدى المرات في مدريد نساء متزوجات يعاشر بعضهن بعضًا، ويتواصلن جسديًّا باستخدام عضو مصنوع من جلد الغنم.

و«لوكريثيا» التي فقدت مشاعر الخجل في حرارة تلك الأحاديث، اعترفت بأنها عندما عملت في القصر، في خدمة مربية الأمير، رأت واحدًا من تلك الأعضاء، وكان مصنوعًا من خشب ذي رائحة، وموضوعًا في قراب من الساتان، وآخر من المخمل، وله بروزات ومقبض من أجل تحريكه وأداء وظيفته بأفضل طريقة ممكنة. فقالت «ماريا دي لابيجا» وهي تضحك إنه بافتقاد الخبز تصير أقراص الذرة طيبة. ووضعت الساحرة «أولايًّا» ثقل حكمتها:

ـ كل شيء ممكن الحدوث عند تذكر متعة الذكر، لكنني أعرف وصفة بعض الأشربة التي إذا ما جرى تناولها قبل استخدام الأداة، تجعل إحدانا تشعر بأنها بين ذراعي أشد العشاق وسامة وتوثبًا في العالم.

وإلى جانب تلك الحسية الكثيفة، كانت «لوكريثيا» تشعر بترسخ صداقة زملائها الجدد، لا سيما «ماريا دي لابيجا» وجيرانها، وكانت تثق أكثر فأكثر بهم، إلى حد إطلاع «خوان أوثيو» على البطاقات التي يرسلها إليها «دييجو دي فيكتوريس»، والتي تتضمن في أحيان كثيرة أخبارًا من الخارج.

وهكذا كانت أحاديث البذاءة تتراجع مفسحة المجال أحيانًا للتعليق على تلك الأخبار. ففي إحدى المناسبات، أخبر «دييجو» «لوكريثيا»، في إحدى رسائله، أنه صار معروفًا أن دوق بارما، «أليخاندرو فارنيسيو»، قد تمرد في الفلاند ضد طغيان الملك، وأن تغييرات كبرى تقترب ومعها حرية مؤكدة للجميع. وفي رسالة أخرى أخبرها بأن الإنجليزي «دريك» هاجم السواحل الجنوبية، وأن جيشًا من اللوثريين قد تمكن من النزول على شواطئ إسبانيا ويتقدم مكتسحًا كثيرًا من الأراضي، وقاتلًا أعدادًا كبيرة من الناس. وأخبرها أيضًا بأن مملكة «أراغون» قد تمردت بعنف شديد تأييدًا لـ«أنطونيو بيريث».

لكن الزمن واصل تدفقه بثبات. لم تكن هناك أية مستجدات باستثناء دخول أناس جدد إلى السجن. وكانت التبدلات الوحيدة هي التي تشير إلى تبدل الفصول. في البدء جاء البرد والنهارات القصيرة، وكان الظلام يضفي على الزنزانة مظهر مدفن يبعث الأسى في نفس «لوكريثيا» وهي تتأمل حياتها هناك في الداخل، مع تلك الطفلة البريئة، من دون إمكانية للتواصل مع أسرتها، ومن دون بارقة أمل بانتهاء حبسها.

ومن خلال بعض الأسرار التي يتداولها الحراس، عرفت «لوكريثيا» أن مذكرات «دون ألونسو» هي أحد أسباب شلل المحاكمة. غير أنه لم يكن بمقدورها عمل أي شيء سوى الانتظار.

بدأت الأيام بعد ذلك تطول، وتلت ذلك أزمنة الحر. وقد أُخبرت «ماريا دي لابيجا» ورفاقها باقتراب موعد جلسة فعل الإيمان التي سيعرفون فيها الحكم الصادر عليهم، وبدت عليهم جميعًا مظاهر تحول واضحة، كما لو أن الانتظار المستسلم الذي حافظوا عليه، وتقبلهم قيود السجن التي

لا مفر منها، ورفضهم القبول بأن هناك قوة قادرة على إلغاء قدرتهم على التواصل والضحك، قد تلاشت كلها فجأة، وبدت كلها مجرد مداراة يائسة.

كان قنوط زميلتها ينعكس على معنويات «لوكريثيا». وكانت قد لاحظت فوق ذلك إشارات إلى أن عقل «دون ألونسو»، حاميها وناصحها الأساسي، لم يعد باتزانه الذي كان عليه في أزمنة ما قبل السجن، ففي إحدى المرات التي زارت فيها زنزانته لتناول واحد من تلك العشاءات التي يكرم بها اللاهوتي رئيس السجن و«دون لوبي دي ميندوثا»، استطاعت أن تتصفح إحدى المذكرات التي يكتبها متلقي اعترافاتها القديم سرًّا، كي يُطلع الملك على ما في محاكمته من جور. وفي الكتابة المتشابكة التي تغطي صفحات تلك الحزمة من الأوراق، اكتشفت بغم متاهة خط متزايدة التشوش والاختلاط، تتعمق فيها وتتشابك هواجس أستاذ اللاهوت الحقوقية والقانونية.

في شهر يونيو، وفي يوم أحد الثالوث المقدس بالتحديد، أقيم حفل فعل الإيمان، وجرت فيه مصالحة أكثر من ثلاثين متهمًا، منهم «ماريا دي لابيجا». تمكن السجناء الآخرون من سماع صخب الموكب الذي تشكل أمام أبواب المحابس، وسمعوا الأناشيد الآخذة بالابتعاد نحو موقع الاحتفال. وعلى الرغم من أن المناسبة، كما عُرف، كانت مهيبة جدًّا، وبحضور جلالته، وبكثير من الأبهة العسكرية والطقوس الاحتفالية، إلا أن اليقين بأن زملاء لهم سيعاقبون، خلَّف لدى الجميع حزنًا وكدرًا شديدين.

وذات يوم، في الشهر الذي كانت الطفلة ستكمل فيه عامها الأول، أبدى الحراس موقفًا غير معهود تجاه المتهمين. فقد كانوا يحملون هراواتهم بطريقة متشنجة وبتوعد واضح، ومنذ أول أعمال اليوم الروتينية، أجبروا

السجناء على التقيد الصارم بأنظمة السجن التي كانت مهملة وقتًا طويلًا: انتظام الصفوف، الصمت، اختزال الوقت المخصص لإنجاز مهماتهم.

وكان الحراس يبدون التحفظ والتشكك الذي يميز وظيفتهم بعجرفة مبالغ فيها، وبدا أن ذلك التبدل يشير إلى حدوث شيء استثنائي، ولكن أحدًا لم يستطع معرفة ما هو ذلك الشيء.

وشيئًا فشيئًا، بدأ يُعرف أن مفتشًا من محكمة التفتيش العليا قد جاء زائرًا للتحقق من كيفية تطبيق تلك السجون لأنظمة ديوان التفتيش.

# ٢٥

وصل الزائر، المجاز «دون بيدرو باتشيكو»، من العاصمة عند ضحى يوم خميس. كان رذاذ من المطر قد رطَّب الحر الشديد الذي امتد طويلًا في تلك السنة، وخلَّف المدى نظيفًا من الغبار. وتحت السحب تخيم القتامة على تجمع البيوت والأبنية في المدينة البعيدة، مقدمة في الأفق الجسد المتراص والكثيف لرابية تغطي سطحها ثقوب وحفر أُحدثت بجهد محموم وغير منتظم، أو ضربتها كارثة أرضية.

دمدم المجاز «باتشيكو» متذكرًا كلمات الشاعر:

ذلك الكابوس الباهر والواضح

لكن التشوه غير المنتظم الذي يغطي الجبل راح يكتسب، شيئًا فشيئًا، ملامح مميزة لأبراج كنائس وأديرة وبيوت، وأخيرًا اجتازت العربة التي تقله بوابة «بيساجرا» الجديدة.

في لحظة اجتياز بوابة مبنى المحكمة بالذات، انتبه المجاز إلى الفوضى وعدم الانضباط. فمن خلال سياج القضبان الحديدية الذي يفصل بين

المدخل والفناء، استطاع أن يرى جماعة من الناس يحملون الأباريق، ويتوزعون حول البئر وهم يتبادلون الحديث. ترجل الزائر من العربة، ومن دون أن يرد على تحية رئيس السجن الذي اقترب للترحيب به، سأله عما يعنيه ذلك التجمع.

سيطر الارتباك على رئيس السجن قبل أن يجيب بالقول إنهم بعض السجناء يملؤون أوانيهم بالماء من أجل اليوم.

ردَّ المجاز بجفاء:

ـ كان يمكن لي أن أظن أنه مهرجان شعبي. اعمل على منع هؤلاء من التواصل فيما بينهم فورًا.

أصدر رئيس السجن المذعور تعليمات لأحد المأمورين الذي ابتعد مسرعًا. ثم توجه إلى الزائر ليخبره بأن السادة المحققين مجتمعون في قاعة الصليب الأخضر، لكن الزائر طلب إيصاله إلى مكتبه الخاص.

وعندما دخله، أبدى الزائر استياء شديدًا، فقد كانت في المكتب امرأتان منهمكتان في تنظيف بلاط الأرضية ومسحه. حاول رئيس السجن، في ارتباكه المتزايد، أن يوضح أن خبر الزيارة لم يصل إلا في صباح ذلك اليوم بالذات، وأنه لم يكن ينتظر وصول السيد الزائر بهذه السرعة، وأن يتعجل بهذه الصورة في المجيء إلى المكتب المخصص له. غير أن المجاز قطع اعتذاراته المتلعثمة، وأمر بصرف المرأتين واستدعاء المدعي العام، «دون بيدرودي سوتوكامينيو»:

ـ أما السادة المحققون، فأخبرهم بأنني سأسلم عليهم مساء هذا اليوم بالذات، وسأعرض عليهم سبب زيارتي.

انسحب رئيس السجن، ونظر الزائر إلى أمين سره بمزاج منزعج:

ـ يبدو أن عملًا كثيرًا ينتظرنا هنا.

كان لدى الزائر «باتشيكو» والمدعي العام «سوتوكامينيو» طبع يقرِّب بينهما، على الرغم من الاختلاف في مظهرهما الجسدي، ويمنحهما مزاجًا متماثلًا في التحفظ المترصد، وحتى الطريقة نفسها في شبك أصابع اليدين عندما يسندانهما إلى حافة المنضدة ويدفعان الصدر قليلًا إلى الوراء كي ينظرا إلى محدثهما من دون أن يضطرا إلى رفع رقبتيهما كثيرًا.

وكان كلاهما كذلك من هواة جمع العملات الإغريقية والرومانية القديمة، والساعات، ونوع محدد من اللوحات الدينية. وفي المراسلات التي تبادلاها قبل مجيء «دون بيدرو باتشيكو»، دعا المدعي العام الزائر إلى الإقامة في بيته، كي تتاح له الفرصة بأن يتأمل على هواه بعض صور القديس «ميجيل»، والقديس «جابرييل»، والقديس «رافائيل»، وبعض اللوحات الأخرى للشهيدين «سان سيباستيان»، و«سان لورينثو»، والطفل الحامي، وعدة لوحات طبيعة صامتة: قطع صيد، أزهار وثمار، واختطاف «جانيميديس» التي تشكل جزءًا أساسيًّا من مجموعته.

ولكنهما لم يتحدثا في ذلك اللقاء عن تلك الأمور، وإنما عن سبب زيارة المجاز: شلل محاكمة «دون ألونسو دي ميندوثا» وأتباعه، وواقع أن جميع المتورطين في القضية ـ حسب وشاية كان قد تقدم بها المدعي العام سرًّا ـ مطلعون على تفاصيل كل التهم الموجهة إليهم.

تلك المعرفة المشتركة للاتهامات هي دليل على وقوع مخالفة لأنظمة محاكم التفتيش بوجوب أن يكون المتهم محتجزًا منذ اللحظة الأولى في

مكان منعزل، من دون أن يتمكن من تبادل الحديث مع أحد، بحيث يجد نفسه مضطرًّا إلى أن يحدد بنفسه العثرات والخطايا التي دفعت المحكمة المقدسة إلى اعتقاله، من دون أن يكون مطلعًا على الشهادات التي وشت بسلوكه، ولا إذا ما كان متواطئون آخرون محتملون قد اعتقلوا ويخضعون للاستجواب في الوقت نفسه الذي يُستجوب هو فيه.

قال المدعي العام:

ـ لقد كان هؤلاء المتهمون يتواصلون فيما بينهم منذ لحظة اعتقالهم، ولم يتوقف بعضهم قطُّ عن معرفة أخبار بعض. إذا ما كانت وشايات «سوتوكامينيو» صحيحة، فإن قضية «دون ألونسو دي ميندوثا» تبدو خرقًا لقانون السرية الصارمة، وسلوكًا من جانب قضاة تحقيق طليطلة يستحق العقاب، وخصوصًا «دون لوبي دي ميندوثا» الذي كُلف منذ بداية القضية بأخطر مسؤولية فيها.

والمجاز «باتشيكو» يعرف أنه عندما تلقى «دون لوبي دي ميندوثا»، أول مرة، الأمر بتفتيش بيت «دون ألونسو» بحثًا عن أوراق الحالمة «لوكريثيا دي ليون»، أبدى كثيرًا من المماطلة، وتأخر أكثر من خمسة عشر يومًا في تنفيذ الأمر، بعد أن جرى الإلحاح عليه مرة أخرى، بل تم استدعاؤه إلى مدريد لتزويده بتعليمات حول مهمته، وهو ما يشير إلى ميل لدى «دون لوبي» تجاه المتهم لا يتوافق مع الأنظمة الصارمة والبحث عن الحقيقة اللذين يجب أن يكونا من ميزات قاضي التفتيش الجيد.

وتحدثنا بعد ذلك عن «لوكريثيا»:

ـ لقد وصلت الفتاة المذكورة إلى هذا السجن من دون أن يُعرف أنها

كانت حُبلى، وهنا وضعت طفلتها. وقد كرمها قضاة التحقيق تكريمًا كبيرًا، فكانوا عرابين للطفلة. هذه المرأة الخبيثة تجعلهم أشبه بأحصنة شبقة، وممن يحومون حولها «دون لوبي» نفسه، ورئيس السجن، وآخرون غيرهما. ويبدو لي أنها تلتقي أحيانًا مع «دون ألونسو» في سجنه، ومع آخرين في أماكن أخرى.

ـ وماذا عن والد الطفلة؟

ـ ليس له مثل نفوذ «دون ألونسو». والمتوددون الجدد إلى المرأة لا يريدون أن يكون منافسًا لهم. يخيل إليَّ أنه الوحيد الذي لم يلتقِ بها. لكنه يملك في زنزانته، بكل حرية، دفاتر أشعار له ولمؤلفين آخرين كثيرين.

في مساء ذلك اليوم، صافح المجاز «باتشيكو» قضاة التحقيق بفتور، متيحًا لهم أن يلمحوا، في تحفظه، نيته بأن يقوم بتلك الزيارة من دون أن يسمح للصداقات أو النفوذ بأن يلقيا عباءتهما على الأوامر التي جاء بها. واستعد بعد ذلك لبدء سلسلة طويلة من الاستجوابات، على أن يأتي أولها من المتهمين أنفسهم.

كانت تجربته الطويلة في محاكم التفتيش قد علمته أن قلة نادرة من السجناء لا يبدون استعدادهم للتجاوب مع مطالب من يعرف كيف يحاصرهم بالأسئلة. لأن لدى الكائن البشري حاجة سرية إلى التصالح، وليس هناك من لا ينصاع إلى تلك الحاجة إلا أولئك الذين قيدهم الشيطان إلى براءة البلاهة الفجة. فالأرواح البائسة تشعر بالضياع بعيدًا عن الحظيرة، وليس ثمة مشقة في إقناعها، ليس فقط بوجوب عودتها إلى الحظيرة، مع أن ذلك لا يمكن أن يتم من دون قصاص مثلما يتمنون، بل بضرورة أن

تبوح بالظروف التي أدت إلى ضلالها، كاعتراف بخطئها، وكإنذار كذلك للرعاة، وعبرة للأرواح الأخرى.

في بعض الأحيان يعمد الشيطان إلى التمسك بقوة بإرادة الروح التي يدفعها إلى الضلال، ولا بد عندئذ من اللجوء إلى وسائل مؤلمة في التحقيق. ولقد تأمل المجاز، بفضول متأسف أكثر منه محبة في العدالة، كيف أن أجسادًا كثيرة أصابها التردي على يد الجلاد خلال سير تلك الاستجوابات التي يتوجب أن تترافق الأسئلة فيها مع ضغط آلة التعذيب كي يكون السؤال أكثر إقناعًا. بعضها أجساد جميلة، أجساد شباب وشابات، وأخرى هزيلة معروقة، لكن أيًا منها لا يستحق أن تتسبب غطرسة الإصرار على الخطيئة في تكسيره وتشويهه خلال تنفيذ طقوس التعذيب المحزنة.

قام المجاز «باتشيكو» في البدء بجولة على مختلف محابس وأبنية السجن، ليرى إذا ما كان السجناء هناك يريدون التصريح له مباشرة بشيء ما. وقد تأكد له أن تلك المحابس تتواصل جميعها فيما بينها، على الرغم من انفصال الأشخاص بعضهم عن بعض، فالجدران وفتحات الأبواب تتيح على الفور تناقل أخبار ما يحدث.

كان يرافقه في الجولة «دون لوبي دي ميندوثا»، والمدعي العام، وقضاة التحقيق الآخرون، ولكنه بطريقته في المشي والتوقف، كان يجبر الآخرين على عدم الاقتراب كثيرًا من أبواب المحابس، وخصوصًا تلك التي تحتجز فيها «لوكريثيا دي ليون» وأتباعها. وهكذا كان أمين سره، بعد أن يشرح للسجناء أهداف الزيارة العادية، يطلب إليهم بصوت خافت، لا يسمعه «دون لوبي دي ميندوثا» والمحققون الآخرون، ما كان الزائر قد أوصاه بقوله لهم:

ـ هناك أخبار بأن فوضى وأشياء كثيرة أخرى تحدث في هذا السجن. فإذا كان لدى أحدكم ما يود قوله، فليلتمس اللقاء مع السيد الزائر. وهو سيقوِّم جيدًا طيب نواياكم.

كان «خوان أوثيو دي سالازار» هو أول من طلب الإدلاء بمعلومات، وهو كاتب عمومي، متعدد الزوجات، متزوج في بلد الوليد وفي لشبونة في الوقت نفسه. وكان يرافقه في الزنزانة نفسها الكابتن «بيدرو دي سامبيدرو دي أوساولا»، الشهير بـ«بيدرو إيبانيث دي أوتشانديانو». أمر المجاز «باتشيكو» بأن يُعطى ورقًا وحبرًا وأدوات كتابة كي يكتب مذكرته.

ونتيجة المذكرة التي كتبها، استُدعي «خوان أوثيو» لمقابلة الزائر، وأكد خلال اللقاء ما كان قد كتبه:

ـ «لوكريثيا دي ليون» تتصنع الجنون بأحلامها عن تنانين بسبعة رؤوس تتصارع مع الملاك ميخائيل، لكنها تعرف جيدًا لمن تبدي وجهًا حسنًا كي تستفيد من حصة طعام مزدوجة، وتتلقى في سجنها قدورًا من لحم الخراف، وأطباقًا من لحم الأرانب، وفطائر شهية محشوة بسمك الترويت، وطيورًا، وحتى المهلبية. ولا بد لي من القول إن كثرة الهدايا التي تجيء وتروح، وكثرة خروج هذه المرأة من زنزانتها التي تُحبس فيها، أثارت استغراب سجناء محكمة التفتيش الآخرين.

ووشى كذلك بالاتصالات الكتابية بين «دييجو دي فيكتوريس» و«لوكريثيا»، وكدليل على ذلك قدم الرسائل التي أرسلها إليها «فيكتوريس» عندما علم بخبر ولادة ابنته، وأعطته إياها «لوكريثيا» ليحفظها معه كعربون صداقة.

وفي شهادته، ذكر «خوان أوثيو» من كان لشهور عديدة رفيقه في الزنزانة، الكابتن «بيدرو إيبانيث دي أوتشانديانو»، كشاهد مهم على كل الأمور. فأمر المجاز «باتشيكو» بأن يؤتى إليه بالكابتن، المحكوم لارتباطه بزوجتين مع أسرتيهما، إحداهما في «بيلباو»، مكان ميلاده، وأخرى في «أرجاندا».

وقد صرح الكابتن «أوتشانديانو» أنه في المرات التي تصادف أن التقى، وهو في ذلك السجن، بـ«لوكريثيا دي ليون»، رأى كيف كان رئيس السجن يُخرجها من الزنزانة مغطاة بمعطفه، في مواعيد مختلفة، واثنتي عشرة مرة على الأقل، كي يأخذها إلى مكان لم أستطع معرفته قطُّ، وكان غيابها يستمر ساعة أو ساعتين، من دون أن يُعرف ما الذي تفعله المرأة مع رئيس السجن خلال ذلك الوقت. وقد أخذها معاون رئيس السجن أيضًا مرتين على الأقل.

وأكد الكابتن:

ـ أنا أعرف أن خروجها في بعض المرات كان يتم لتلتقي على انفراد بـ«دون لوبي دي ميندوثا»، لأن «لوكريثيا» نفسها أخبرتني بذلك. وأؤكد لكم أن هذه المرأة، في أحاديثها الحميمة مع السجناء الآخرين، كانت أقل حياء بكثير مما تكون عليه وهي أمام محققي التفتيش.

سأله المدعي العام:

ـ وما الذي كان يحدث برأيك عند خروجها؟

ـ لا يمكنني القول إنه كانت تحدث اتصالات جسدية في تلك اللقاءات بين «لوكريثيا دي ليون» والسيد محقق التفتيش والسجانين، ولكن

المعروف جيدًا في هذه المحابس، ويمكنكم أن تسألوا عنه السجناء الآخرين، هو أن رئيس السجن رجل شهواني، يسعى إلى إقامة علاقة جسدية مع كل من يستطيع من السجينات، لا سيما الشابات منهن.

وبشأن ما يوفره «دون لوبي» من حماية خاصة لـ«لوكريثيا»، ثمة إشارات كثيرة، وليس أصغرها تلك المرات التي قدم فيها «دون لوبي» نقودًا لرئيس السجن، على مرأى من سجناء آخرين، وكان المبلغ أربعين ريالًا في إحدى المرات، وثلاثين في مناسبة أخرى، قائلًا له إنها لـ«لوكريثيا»، كي تشتري ما ترغب فيه إضافة إلى جعالتها من الطعام. وكان من المُلاحظ، من جهة أخرى، أن حصة «لوكريثيا» من الطعام تتجاوز الثلاثة والعشرين مرابطي إلى الأربعين بفضل مساعدة «دون ألونسو دي ميندوثا» الذي وعد، بحسب ما روت «لوكريثيا» لـ«خوان أوثيو»، بأن يقدم هبة لرئيس السجن ومساعده عند خروجه من السجن، إذا ما وفرا له ولأصدقائه الرعاية اللائقة.

وحسب ما قاله «أوتشانديانو»، فإن ثقة «لوكريثيا» بـ«خوان أوثيو» تنبع من أنها تفكر في الزواج منه عندما يُطلق سراحها، بغض النظر عن الاتهامات الموجهة إليه بتعدد الزوجات، ذلك أن «خوان أوثيو» يؤكد أن زوجته الوحيدة الحية هي أرملة عجوز ومريضة لا يمكن لها أن تعيش طويلًا.

كما صرح «أوتشانديانو» بأن «لوكريثيا» قد تحدثت عما يدين به لها «دون ألونسو دي ميندوثا» والراهب «لوقا دي أييندي». لأنهما، على حد قولها، لن يستطيعا أبدًا مكافأتها على الصمت الذي تحتفظ به حول الطريقة التي استغلا بها أحلامها. وتقول إنه لا يمكن لراعي أبرشية «سان فرانثيسكو» وأقربائه أن يدفعوا ما يدينون به لها مقابل صمتها، ملمحة إلى أنها تستطيع تدميره إذا ما نطقت بالحقيقة.

ـ ولكنها تقسم على أنها جاهلة ومن دون تعليم، وأنها لا تستطيع قراءة المدونات التي سجلوها لأحلامها.

أجاب الكابتن:

ـ هذه المرأة تتظاهر بالجهل لتنقذ نفسها من مسؤوليات أكبر، لكن الصحيح أنها تعرف القراءة والكتابة جيدًا، مثل الناس الذين يتقنون هذه المهارات في الحياة العامة.

ثم أضاف:

ـ وأنا نفسي، بحضور آخرين، سمعتها تتكلم عن متنبئين قدماء مشهورين وتصفهم بالسهولة التي تتحدث بها عن «بيدرولا» أو «خوان دي ديوس». وسمعتها تتكلم كذلك عن بعض كتب الأحلام التي يملكها «دون ألونسو»، وخصوصًا عن كتاب يدعى «أرتيميدونو» أو «أركيميدورو»، كما لو أنها قد قرأته. وهي تتكلم، كما أرى، بطريقة لا يمكن لأي امرأة أن تتكلم بها، فما بالك بامرأة جاهلة مثلما تحاول هي أن تدعي.

وأخبر «أوتشانديانو» كذلك عن أمور أخرى جديرة بالاعتبار:

ـ كلما تكلمت «لوكريثيا» عن سيدنا الملك، وكانت تقول عنه كلامًا سيئًا، أو تعرضه في أوضاع غير لائقة، مثلما فعلت حين أكدت أنها رأت في أحد أحلامها طائرًا أسود يصل إلى قصر الإسكوريال حاملًا ورقة في منقاره، وحط على نافذة الحجرة التي فيها الملك، وترك هناك الورقة التي أثارت ذعر المليك عندما قرأها.

أما فيما يتعلق بالاتصالات غير النظامية، فصرح «أوتشانديانو» بأن

محققي التفتيش يوفرون لـ«دون ألونسو دي ميندوثا» في ذلك السجن ما يجعله يبدو كأنه في بيته، ويقال إن لديه أدوات كتابة وتسهيلات لإرسال رسائل إلى من يشاء:

ـ ولا شك في أنه من خلال رسائله، ومن خلال رسائل «دييجو دي فيكتوريس» إلى «لوكريثيا»، عُرف أنه قد جرى في باريس تتويج «باندوما» ملكًا على فرنسا، وأن قتلى كثيرين قد سقطوا لدى احتلال باريس، وأن كبير الأتراك ينزل على شواطئ إسبانيا بقوات كبيرة. وكانت «لوكريثيا» تبدو سعيدة جدًّا بتلك الأخبار، وتقول إنها ستبدو صادقة في كل ما قالته كتابة وشفاهًا. وكانت تدافع بالطريقة نفسها عن «أنطونيو بيريث» ضد الملك وتطري عليه وعلى أعماله.

# ٢٦

بعد استجواب «خوان أوثيو» والكابتن «أوتشانديانو»، أمر المجاز «باتشيكو» بأن يجيئوه بـ«ماريا دي لابيجا»، المتهودة المتصالحة التي كانت رفيقة «لوكريثيا دي ليون» في الزنزانة، وهي امرأة ذات نظرة ذكية، أبدت الوداعة في نبرة صوتها المتذللة وفي إيماءاتها، ونيتها في مساعدة الزائر بمعلومات مؤكدة.

صحيح أنها تزيل الشحم عن اللحم الذي تأكله، وتحتفل بعيد «لوس تابيرناكولوس»، وأنها مارست حافيةً الصوم الكبير وانتظرت أن يقودها المسيح إلى الأرض الموعودة، إلا أن شيئًا من تصرفاتها لم يكن يعكس أية عادات وتقاليد تختلف عن عادات أي جار مسيحي في «المنتشا».

أراد المجاز أن يعرف إذا ما كانت «لوكريثيا دي ليون» قد اتصلت مع أحد سواها وهي في ذلك السجن، ولم تخفِ «ماريا دي لابيجا» عنه شيئًا. تكلمت عن رسائل «دييجو دي فيكتوريس» التي تعرفها جيدًا، وعن ريشة الكتابة والحبر ورزمة قصاصات الورق التي كانت «لوكريثيا» تملكها، والمخبأ الذي تحتفظ فيه بكل ذلك. ووشت كذلك بالمكان الذي يُستخدم لإيداع الرسائل في جدار المرحاض.

ومع توالي أقوالها، ومن أجل كسب عطف المحقق إلى أقصى الحدود، وضعت على لسان صاحبة الرؤى بعض النوادر التي تنال من نزاهتها، ناسبة إليها حسية وخبثًا لا يتناسبان مع فتاة ظلت عذراء إلى أن حملت بابنتها.

ومع توالي جلسات الاستماع، راح المجاز «باتشيكو» يتوصل إلى الحدود التي بلغها تسيب الأمور في محكمة طليطلة تلك.

موريسكي يدعى «جوثمان»، وجهه الحليق يصطبغ بسواد لحيته الكثيفة، له عينان شديدتا السواد، وقامة رجولية ممشوقة، قال إنه تبادل أحاديث غرامية جدًّا مع المدعوة «لوكريثيا»، وإن كلًّا منهما لمس أعضاء حياء الآخر في أحد أركان الفناء، من دون أن تمضي المداعبات إلى ما هو أبعد من ذلك بسبب محدودية المكان.

ومن خلال جميع السجناء الذين استجوبهم، راح المجاز «باتشيكو» يتعرف على التساهل الخطأ الذي تنظم به ورديات الخروج إلى الوجبات والنظافة، وكيف أن أفنية السجن وزنازينه كانت تعج وقتًا طويلًا من كل يوم بالأحاديث والثرثرة في كل مكان.

بين المسجونين بسبب الأحلام عن دمار إسبانيا وتلك الأخوية الإصلاحية، عدوة الملك، بدأ المجاز «باتشيكو» أولًا باستجواب «دييجو دي فيكتوريس». رأى أنه شاب رشيق، مرهف الأساليب، ولا ريب في أنه متعلم جيدًا. لم ينكر شيئًا من رسائله، وإن قال إنها مجرد رسائل حب لزوجته وابنته.

وفيما يتعلق بأحلام «لوكريثيا»، اعترف بأنه لم يكن سوى الأداة البكماء في تدوين بعضها، وأنه استند في ذلك إلى مصادقة الراهب «لوقا دي أييندي»، وأعلن الشاب:

ـ كان الراهب «لوقا» يعتبر «لوكريثيا دي ليون» امرأةَ أعظم المعجزات في إسبانيا، وكان يقول إن سلطة الكتابة المقدسة نفسها تشكل أساسًا راسخًا لتلك المدونات.

ـ وما رأيك أنت؟

ـ أنا يا صاحب السيادة لم أؤمن قطُّ بالقيمة التنبئية لتلك الأحلام التي كنت أسجلها.

ـ ولماذا كنت تدونها إذن؟

اعترف الشاب بعد لحظة تردد:

ـ بسبب حبي لها. وبعد أن عرفت طيبة قلب الفتاة ونزاهتها واستقامتها، اخترتها لتكون رفيقة حياتي.

وتحدث «دييجو» كذلك عن عهد زواجه من «لوكريثيا»، وروى كيف تعاملا كزوج وزوجة وتواصلا جسديًّا. وأضاف أنه يظن أن أم الفتاة كانت تعلم بأمر زواجهما، على الرغم من أنه لم يخبرها بذلك.

استجوب المجاز بعد ذلك «دون جييَّن دي كاساوس». وقد كان الحاكم السابق في «يوكاتان» و«كوثوميل» و«تاباسكو»، مريضًا جدًّا إلى حد سمح له ديوان التفتيش الأعلى بالإبقاء على خادم يرافقه، غير أن عزلة السجن نمَّت فيه حقدًا كبيرًا ضد الفتاة التي طالما احتفى بها بعد تعرفه عليها، ولم يضطر الزائر إلى الضغط عليه ليتلقى منه شهادة طويلة ودقيقة اتهم فيها الفارس «لوكريثيا» بأنها محتالة. وأكد:

ـ إن روح هذه المرأة هي مهرجان تقلبات وسخافات، ممتلئة بالسخافة والأوهام.

كانت عيناه المتقافزتان جاحظتين من الجلد المترهل الصفراوي، كما لو أنهما ستخرجان من محجريهما في ذروة انفجار غضبه.

بدا ذلك الرجل شديد الجفاء وقليل المودة، لكن الزائر لم ينظر إليه بعدائية، فعلى الرغم من وجود أدلة كثيرة على هذياناته في الأوراق التي تدينه، وإثباتات كافية على أنه آمن بنبوءات «لوكريثيا» وارتدى تحت ملابسه كتفية تلك الأخوية، إلا أنه كان هناك بين المذكرات التي كتبها للملك بخط يده وصودرت منه، واحدة منظومة بمخمسات مدورة تنتهي بعبارة شاعر ظريفة، وهي موهبة تلقى تقديرًا خاصًا لدى المجاز «باتشيكو».

مولاي، إذا كان الرب يضعنا

لحماية رعيته

للسيادة عليهم وحكمهم

وترانا أسأنا إليهم

فمن سيهب لحمايتهم؟

انظر جلالتك

إنه دين مفروض عليك

وليس مشيئة طوعية:

أن تحمي قطيعك

بالعدل والحق

لا وجود لما هو ملائم أكثر

ولا لما يمنحكم مزيدًا من الشرف

لا وجود، لأمير عظيم

مثل تجنب العار

والإساءة إلى أناسك

هذا ما تقوله المقاطع الثلاثة الأولى مما يقارب مائة وخمسين مقطعًا يحث بها كاتب المذكرات الدؤوب جلالة الملك لممارسة الرحمة، والتعقل والاعتدال، والجَلَد، والصبر، والرأفة، والعدالة، والإنصاف، والحق، والتواضع، والفضيلة، والتساهل... ويلعن القسوة، لينتهي إلى القول:

انظر يا صاحب الجلالة

إلى الرب على أنه سيدك

مثلما هو راعيك

وضع سلطتك كلها

في صون شرفك

وحاول أن تتحقق على الأرض

وتُصان شريعته

إذا كنت تريد السلوى

وأن تكون ملكًا على الأرض

وأكثر من ملك في السماء

حيال رزمة الأوراق غير المتناهية تلك، وعلى الرغم من الانتقادات التي تُستشف منها، وعلى الرغم من أن المقاطع المدورة ليست ثمانيات قشتالية، ولا «سوناتات» فخمة، إلا أن المجاز «باتشيكو» كان يشعر بميل إلى الاستماع بأريحية إلى مسوغات «دون جييَّن».

قال «دون جييَّن» ممتلئًا بالغضب:

ـ «لوكريثيا دي ليون» هذه تتمتع في السجن بمعاملة لا تستحقها، سواء لوضاعة أصلها أو رعونة سلوكها. والملاحظ أن رئيس السجن وكذلك معاونه يُخرجانها بكثرة من زنزانتها ويأخذانها إلى دعوات في أماكن أخرى حيث يجري تناول الشراب والرقص، وأحد تلك الأماكن هو محبس «دون ألونسو دي ميندوثا» الذي حوَّل سجون محكمة التفتيش المقدسة إلى قن ديوك مخصية ومستودع خمر من أجل العربدة وولائم اللهو لأصدقائه وسجانيه.

بعد استجواب «دون جييَّن»، أمر المجاز بأن يؤتى إليه بالراهب «لوقا دي أييندي»، ووجد أن الراهب الذي كان بدينًا ومتوردًا قد هزل وشحب لونه، يملأه الخوف والرغبة الكبيرة في أن يزيح عن نفسه سمعة أنه صديق حميم لـ«أنطونيو بيريث»، مع أن ذلك كان معروفًا للجميع.

فالراهب الذي تولى مناصب مهمة في طائفته، وجد نفسه منسيًّا ومهملًا من زملائه الفرنسيسكان الذين لم يقدموا أي عون لإطعامه، فكان على أخي الراهب «لوقا» نفسه أن يقدم ريالًا يوميًّا لتغطية قيمة وجبته اليومية العادية، ولكنه طلب مقابل ذلك أن يحتفظ لنفسه بكتب المتهم.

بدا أن الراهب «لوقا» لا يعرف شيئًا عن الأحداث الغريبة التي تجري

في السجن، لكنه تحدث بالتفصيل عن أحلام «لوكريثيا» وتدوينها، متهمًا «دون ألونسو» بأنه من حاك كل تلك المؤامرة، ومن أجبره على أن يكون متلقي اعترافات الفتاة، وبالتالي شريكًا على الرغم من إرادته في تلك الحماقات الجنونية.

وتذكر الراهب «لوقا» أنه رفض، في إحدى المناسبات، مواصلة أعمال التدوين تلك، لأنه رأى أنه يمكن أن تكون في أحلام «لوكريثيا» روح شريرة، وفتنة وفوضى، ولم يتراجع ويواصل مهمة توجيه الفتاة روحيًّا إلا بسبب إلحاح «دون ألونسو»، كي لا تغالي في الضلال.

حاصره المدعي العام:

- ولكنك كنت ترتدي تحت ردائك الكهنوتي كتفية ما يسمى أخوية الإصلاح.

هتف الراهب «لوقا» بعينين ممتلئتين بالدموع:

- لقد قلت من قبل إنني لم أرتدها إلا لورعي وتقديري العظيم للصليب الذي عانى عليه سيدنا المسيح ومات من أجل افتدائنا جميعًا! ولا بد لسيادتكم من أن تعلموا أن اسمي يسوع ومريم المطرزين على تلك الكتفية هما أنفسهما اللذان اعتدت أن أبدأ بهما كتاباتي، وحتى الكتب القليلة التي أملكها.

وأخيرًا استدعى المجاز إلى جلسة الاستماع «دون ألونسو دي ميندوثا»، لكن اللاهوتي القانوني أبدى كثيرًا من التكبر والعنف، ولم يكن بالإمكان الحصول على أي شيء منه.

فكر «دون بيدرو باتشيكو» في محاولة تليين موقف «دون ألونسو» الفظ وغير المحترم بالتعذيب، لكن المدعي العام «سوتوكامينيو» ثناه عن ذلك:

ـ هذا الرجل به مس من الشيطان، وهو متحصن في كبريائه ومقتنع بصحة حججه. وأرى أن التعذيب لن يُخضعه، وسوف يكون إزعاجًا للجميع.

المجاز «باتشيكو» الذي كان يرأس في العاصمة محكمة مساعدة للمحكمة التي تتولى في «ثراجوثا» النظر في قضية «أنطونيو بيريث»، رأى في الخبر عن تلك الحفلات والتواصل بين السجناء، بتواطؤ من رئيس السجن، أمرًا خطيرًا ألح على تعزيزه بأكبر عدد من الشهادات.

استدعى للمثول أمامه رئيس السجن نفسه أيضًا، ومساعده، وحتى السادة محققي التفتيش. وأحس بعار عميق عندما أكد له «دون لوبي دي ميندوثا» أنه قد حضر بعض ولائم العشاء تلك، متذرعًا ببعض المبررات المشوشة والصبيانية، فهو يتعلل من جهة بأن حجج «دون ألونسو دي ميندوثا» في الدفاع عن قضيته وفق مقررات مجمع ليتران المسكوني كان لها وزنها، ويلمح من جهة أخرى إلى واجباته التي فرضها على نفسه كما يقول، باعتباره عرابًا للطفلة، ومسؤولياته تجاه الأم والطفلة التي ولدت في سجن تلك المحكمة.

وأخيرًا، أمر المجاز بأن تمثل أمامه «لوكريثيا دي ليون».

حسب التقديرات الأولى للمحاكمة التي قام بها متلقي اعترافات الملك، الكاهن «دييجو دي تشافيس»، فإن تلك المرأة، بجرأتها وعجرفتها،

هي المحرضة لجميع مدعي النبوة في الجمعية الأخوية، على الرغم من أن مقومًا آخر، هو الكاهن القانوني «خوان دي أوريبِّانا»، يؤكد أن أصل ذلك التمرد المستند إلى أحلام ونبوءات زائفة، بمشاركة سادة كبار، وبعض فرسان الملك ورجال الكنيسة واللاهوتيين والرهبان، قد بدأ مع «بيدرولا بياومونت» الذي جرى حبسه أخيرًا في سجن مؤبد بأمر مباشر من العاهل نفسه.

بدت «لوكريثيا دي ليون» امرأة شابة، ليست طويلة القامة، ذات بشرة حليبية وعينين سوداوين شديدتي البريق. لها يدا طفلة، ونهدان شامخان كبيران يتناقضان مع مظهر أعضائها الأخرى الضئيلة والضعيفة. ولا بد أن الفتاة كانت في تلك الأيام في حالتها النسائية، لأن المجاز شم عند مثولها أمامه تلك الرائحة التي تميز بنات حواء وهن تحت تأثير القمر، والتي تهيج بعض الذكور كما يبدو.

كانت «لوكريثيا دي ليون» تتكلم بصوت واهن، طفولي، ولم يستطع «دون بيدرو باتشيكو» أن يتخيل ما يمكن أن تكون عليه مواهبها التي أتاحت لها التوصل إلى تلك المكانة السامية، في العاصمة أولًا، بين أناس متعلمين أو مهمين على الأقل ومطلعين، ثم في سجن محكمة التفتيش بعد ذلك، حيث التقيد الصارم بالأنظمة يلغي على الدوام أي تألق يمكن للمتهمين أن يتباهوا به.

لم يُعثر في زنزانتها على أي قصاصة من الرسائل التي كان يرسلها إليها «دييجو».

أعلنت «لوكريثيا»:

ـ تلك القصاصات لم توجد قطُّ يا صاحب السيادة. وحتى لو كان الأمر صحيحًا، فما كان بمقدوري أن أقرأ بصورة مقبولة ما هو مكتوب فيها، لأني لم أتعلم في الأصل، وإنما صرت أعرف، مع مرور السنوات، نصف حروف الأبجدية، من دون أن أتمكن من القراءة. أما بشأن الكتابة، فلست أعرف منها أكثر من توقيع اسمي، وأفعل هذا بصعوبة كبيرة.

ـ وماذا تقول المتهمة عن الريشة والحبر اللذين عُثر عليهما مخبأين في محبسك؟

ـ صحيح أن «دييجو» أرسلهما إليَّ، ولكن ليس كي أستخدمهما، فهو يعرف جيدًا أنني غير قادرة على ذلك، وإنما لاعتقاده بأنه ربما يمكن لرفيقتي في الزنزانة أن تساعدني في هذا الأمر.

بعد الانتهاء من جلسات الاستماع والاستجواب، أدرك المجاز «بيدرو باتشيكو» أنه قبل إعادة إطلاق مسيرة محاكمة تلك النبية وجماعتها، لا بد له من معاقبة كل من سمحوا بالانتقاص من صرامة أنظمة ديوان التفتيش. وخلال أيام عديدة لم يفعل هو نفسه والمدعي العام «دون بيدرو دي سوتوكامينيو» شيئًا آخر سوى إعداد المذكرات لمحكمة التفتيش العليا، واقترحا فيها الإجراءات الضرورية لتقويم اعوجاج إدارة تلك المحكمة.

وقد استراحا بعد ذلك في بيت يملكه «بيدرو دي سوتوكامينيو» في بستان له. كان بعض الشبان من أصدقاء المدعي العام يأتون في الأمسيات ويقضون أوقاتًا ممتعة في تبادل الأحاديث والعزف على الجيتار.

وافقت محكمة التفتيش العليا على كل المقترحات بسرعة، فأُعفي «دون لوبي دي ميندوثا» والمفتشان الآخران من مناصبهم، واستبدل رئيس السجن، وقد استحق مائة جلدة لإخلاله بواجبات وظيفته، مع أن الجلاد الذي طبق عليه العقوبة كان من المستفيدين من رُشاه، فهو يشد قبضته في اللحظة المناسبة بحيث تكون فرقعة السوط أشد من الألم الذي يسببه. كما أُعفي معاون رئيس السجن ومسؤول التموين من منصبيهما. أما «دون ألونسو دي ميندوثا» فجُرد من طاهيه وخادمه، واختفى من أمام باب محبسه قفص الدجاج والديوك المخصية. ولمعاقبته على عجرفته وعدم احترامه للزائر، جرى تقييد قدميه بسلاسل حديدية.

بعد كل تلك الإجراءات، استعادت سجون محكمة التفتيش شرطها كأماكن صمت وتأملات حزينة وجمود مخيف، لا يمكن أن يعكر ثقلها شيء، غير أن لها لدى المجاز «باتشيكو» مذاقًا لطيفًا، لأنه يرى أن السكون هو جوهر التكفير، وأنه يطبع في بطئه المتثاقل أثرًا عميقًا لا يُمحى في أرواح من يعانونه.

طوال عدة أيام، وبينما كانت تُنجز إجراءات تولي المفتشين والضباط الذين سيحلون محل المستبعدين، كان «دون بيدرو باتشيكو» هو السلطة الوحيدة في ذلك السجن. وكان يجد متعة في ذرع الممرات الطويلة المتشابكة والردهات المقفرة، بمرافقة مأمور قضائي، يصغى إلى ذلك الصمت المصاغ من جوهر أفكار تمضها خيبة الآمال.

ثمة بساتين يمجد الرب فيها خريرُ الينبوع، وعبقُ الأزهار، وخفق

أجنحة الطيور البرية. والسجن هو بستان سري آخر، مجد الرب فيه ليس في ضوء السماء ولا في ضجة الحقول وبريقها، وإنما هو في كآبة الأمكنة وفي هسيس هذا الزمن الذي يتدفق ببطء في سكون عزلة العقاب والتكفير.

# ٢٧

استبدال رئيس السجن ومسؤول التموين، والصرامة التي صار المأمورون والبوابون يتابعون بها تطبيق أنظمة السجون السرية، ويفرضون الصمت على المتهمين كافة، أكدت على التحولات التي نشأت عن مجيء الزائر.

بعد جلسات الاستماع التي ألح فيها الزائر كثيرًا على معرفة أحداث السجن، وخصوصًا لقاءات «لوكريثيا» مع رئيس السجن و«دون لوبي»، والأحاديث التي دارت بينها وبين المتهمين الآخرين، وأحاديثها خلال المآدب التي كان ينظمها «دون ألونسو دي ميندوثا» في محبسه، وجدت «لوكريثيا» فسحة قصيرة من الطمأنينة. ومع ذلك، بعد انقضاء خمسة عشر يومًا على استجواب الزائر لها، استُدعيت مجددًا إلى قاعة الصليب الأخضر، حيث كان كاتبان يهيئان أوراقهما ورياش الكتابة بانكباب واستغراق يشيران إلى اهتمام كبير، بينما كان الجميع في انتظار وصول المجاز «باتشيكو» والمدعي العام «سوتوكامينيو».

ارتعبت «لوكريثيا» بعد سماعها الأسئلة الأولى، وأدركت أن

الاستجواب يتوجه نحو إعادة بناء تفصيلية لكل مظاهر علاقتها مع «دون ألونسو» والراهب «لوقا» منذ أيام اعتقالها بأمر من نائب المطران.

قالت بقلق واضح:

ـ يا صاحب السعادة، لن أجيب بأمانة عما تسألني عنه، لأنني لا أستطيع أن أتذكر كل ما حدث نقطة فنقطة، ولا المرات التي تحدثنا فيها، ولا ما قاله كل واحد منا. بل إنني لا أحتفظ بوضوح في ذاكرتي بما حدث خلال الأيام التي اعتقلني فيها معاون المطران. لا بد لكم من الأخذ في الاعتبار أن ثلاث سنوات قد انقضت منذ ذلك الحين، وقد نسيتُ معظم الأمور.

لكن المحققين لم يقبلوا حججها، وكانوا يكررون أسئلتهم حول الأمور نفسها بإلحاح وقور لا يمكن لأحد أن يخطئ ويظنه صبرًا.

أرادوا معرفة المضمون الدقيق للرسالة التي بعث بها «دون ألونسو» إلى أبيها في بلد الوليد، ومن نقلها، وماذا كان رد أبيها. وقد فوجئت «لوكريثيا» بأن جهد التذكر الذي بذلته ذكَّرها بأمور أخرى ترتبط بعلاقة غير مباشرة بذلك الموضوع، كالشجار الذي حدث في كنيسة الرحمة في مدريد بين «خيرونيما دوريا» وأم الخادم «خوان دي تابيس»، بسبب غيرة تلك.

كان المفتش والمدعي العام يتكلمان بصوت خافت، كأنهما يهمسان، وبنبرة تتوافق تمامًا مع صرير ريشة الكتابة على الأوراق. وبدأت «لوكريثيا» تلاحظ أن نبرة الاتهام راحت تطغى على أسئلتهما أكثر فأكثر متجاوزة الرغبة في التقصي والاستعلام.

استمر استجوابهما لها، صباحًا ومساء، طوال ستة أيام.

ومع أن الطفلة كانت قد بدأت بتناول حساء مع فتات خبز، إلا أنها كانت لا تزال بحاجة إلى الرضاعة أيضًا. وقد سمحوا بإحضارها إليها مرتين كي ترضعها، من دون أن يبدو عليهم التأثر للهفة التي تتعلق بها الطفلة بثديي أمها أو لبكائها عندما يعودون لانتزاعها أخيرًا. وعند عودتها في الليل إلى محبسها، وجدت «لوكريثيا» أن ابنتها ما زالت تبكي، وبشرتها متقرحة من ابتلالها ببولها ووساخة فضلاتها التي لا تجد من ينظفها.

وحيال برودة إلحاح المفتشين راحت «لوكريثيا» تشعر بمزيد من البلبلة واليأس. كانت تبذل الجهد لتتذكر بإخلاص ما يريد قضاتها معرفته، غير أن وهن الكسل يأخذ في السيطرة عليها. أضف إلى ذلك أنها أدركت أن كل تفرعات الاستجواب تتولد في النهاية من مصدر وحيد، من أحلامها التي استنسختها أيد كثيرة متتالية، فقررت أن تُبقي ذلك الأمر حاضرًا في ذهنها. فإذا كانت هي بريئة في أحلامها، وهذا هو السبب الأساسي لوجودها سجينة، فإن كل الذنوب والخطايا الأخرى التي يمكن أن تكون قد نُسبت إليها وهي في السجن، ستفقد مسوغات معاقبتها عليها. تمسكت بهذه الفكرة، ولكنها بدأت تناقض نفسها في إجاباتها، وأخيرًا قررت عدم مواصلة الرد على المسائل المطولة:

ـ ليس لديَّ ما أضيفُ قوله. لكنني، بعد إذن سيادتكم، أريد طلب العدالة ضد «دون ألونسو دي ميندوثا» والراهب «لوقا دي أييندي».

ـ فلتخبرنا المتهمة عن أي شيء تطالب بالعدالة ضدهما.

ـ هما السبب في وجودي سجينة هنا. فقد وافقا على أن أحلامي خيِّرة. وهما من دوناها ووزعا نسخًا منها، على الرغم من أنني كنت أروي لهما تلك الأحلام تحت سر الاعتراف. وليس لديَّ ما أقوله أكثر من هذا.

غير أن المحققين يلحون عليها بأن تبين الظروف التي التقت فيها مع «دون ألونسو دي ميندوثا» عندما كانا ينفردان في محبسه:

ـ فلتخبرنا المتهمة إذا ما كان صحيحًا أن «دييجو دي فيكتوريس» قد أرسل إليها من سجنه قصاصة يعبر فيها عن غيرته لأن «دون ألونسو دي ميندوثا» اختفى من حجرته، وعُثر عليه معها.

أنكرت «لوكريثيا» ذلك بصورة حاسمة:

ـ أنا لم أرَ «دون ألونسو»، ولم أسمعه، ولم أتكلم إليه. وأقول إنني لا أريد أن أعرف عنه إلا كل سوء، كي يضيع مثلما ضيعني.

في اليوم التالي، ومع إطلالة أول بياض النهار من كوة محبسها، حضر البوابون بحثًا عن «لوكريثيا». ومن تصرفهم المعادي بشدة، ونبرة أصواتهم الجازمة، أدركت «لوكريثيا» أن هناك أمرًا جديدًا على جانب من الأهمية. تبعتهم في الممرات، لكنهم لم يقتادوها إلى قاعة الصليب الأخضر، وإنما إلى ردهة البئر. وفي العتمة الرمادية، كانت فتحة البئر تبدو في الأرض مثل جبهة غائمة لمدفن ضخم. وما إن تقدموا بضع خطوات، حتى أدركت «لوكريثيا» أن وجهتها هي البوابة التي كان المتهمون ينظرون إليها برعب، عند الخروج لملء أباريقهم.

كانت قاعة التعذيب ضعيفة الإنارة. وكان بإمكان المرء أن يلمح في العتمة هياكل خشبية ضخمة، مزودة بحبال وأحزمة. لم يكن المحقق موجودًا، لكن سكرتيره كان هناك، وهو شاب نحيل يحرك عينيه كثيرًا كلما تكلم. وكان هناك أيضًا أحد الكتبة الذين اعتادوا تسجيل وقائع جلسات التحقيق، والمحامي الذي كان يساعد «دون ألونسو دي ميندوثا»، والطبيب

الذي حضر لرؤيتها بعد ولادة ابنتها. وبعيدًا عنهم بعض الشيء، كان هناك رجل متين يضع مريلة من الجلد، لم تره «لوكريثيا» من قبل قطُّ.

قرأ الشاب ورقة تقول إن السيد قاضي التحقيق، وحيال رفض «لوكريثيا دي ليون» الرد على اتهامات المدعي العام، رأى أنه لا بد من تعذيبها لتوضيح الحقيقة.

لم تكن «لوكريثيا» قادرة على الكلام. كان البرد شديدًا في تلك القاعة، لكن الرجل ذا المريلة جردها من كل ملابسها إلى أن صارت عارية مثلما جاءت بها أمها إلى الدنيا. كان البرد شديدًا إلى حد غُشي معه على حواسها وصارت ترى كل شيء بتلك الطريقة التي تُرى بها الأحلام، حيث تبدو بعض الصور أشد زخمًا من أخرى تبقى غير محددة وقاتمة، بينما بعض الأصوات تهيمن بما لا يتناسب واقعيًّا مع مصدرها أو مع قوتها الحقيقية.

أجلس رجل المريلة الجلدية «لوكريثيا» على مقعد خشبي مثبت في موقع من الجدار، وثبت حزامًا جلديًّا على صدرها، تحت الثديين، وربط فخذيها وربلتي ساقيها وذراعيها بحبال ثخينة وخشنة.

وعندما انتهى، كانت هناك لحظة بدا خلالها أن الشلل قد سيطر على الحجرة كلها. لاحظت «لوكريثيا» أن الرجال الخمسة ينظرون إليها، ووجدت في بريق أعينهم انعكاسًا لنظرات ذلك الرسام الذي رسمها عارية في طفولتها. ولا بد أن رؤية الجلاد لجسدها وملامسته بيديه وهو يقيد أعضاءها قد أيقظت غرائزه الحسية، ذلك أن انتفاخًا واضحًا لا ريب فيه ظهر في منتصف مريلته. بدت بقية الحجرة غائمة، وكانت آلات

التعذيب الخشبية الضخمة مع أحزمتها وحبالها تبدو بجمودها المذعن أشبه بحيوانات الحمولة.

عندئذ بدأ السكرتير باستجوابها مجددًا حول اللقاءات مع «دون ألونسو» ورسائل «دييجو»، ليعرف إذا ما كانت تتضمن معلومات حول محاكمتها، أو أخبارًا عن «أنطونيو بيريث» وأحداث فرنسا.

لم تدرِ «لوكريثيا» في أول الأمر ماذا تقول، لأن أسئلة السكرتير كانت تتوافق مع حركات الجلاد الذي كان يدير على مقربة منها عجلات موجودة على جانبي المقعد غير المريح الذي ثُبتت إليه. ولكنها أحست على الفور بضغط عنيف على كل أعضائها، ضغط مباغت تحول فورًا إلى ضيق نفس لا يطاق، كما لو أن سكاكين قوية تقطع لحم ساقيها وذراعيها. لقد تلاشت البرودة، وبدا كما لو أن القاعة راحت تشتعل فجأة، وإلى تلك العضات الرهيبة المتوعدة بقرض لحمها وتقطيعه كلحم ذبيحة، انضم إحساس بالحرق في كل أنحاء جسدها.

أطلقت «لوكريثيا» ولولة ألم مدوية، لكن صوت السكرتير كان يسأل من جديد. وعرفت «لوكريثيا» أن الآلام التي تشعر بها وصوت تلك الاستجوابات يرتبطان بخيط غير مرئي، وأن خلاصها يعتمد على تمكنها من العثور في أجوبتها على خيط خاص يستطيع ربطها بتلك الرابطة.

قالت صارخة:

ـ لا تسببوا لي كل هذا الألم! ارأفوا بحالي! إنني أتألم بصورة لا أستطيع معها السماع!

أومأ الأمين بإشارة، ولا بد أن الجلاد أرخى العجلات، لأن عض

الأحزمة توقف قليلًا. عندئذ بدأت «لوكريثيا» بالرد على أسئلة الأمين. كانت الدموع والعرق يسيلان على وجهها مختلطين، فتلحس هي تلك العصارة المالحة عن شفتيها كما لو أنها شراب قادر على تخفيف معاناتها.

استمر التعذيب ساعات طويلة، وراح جسد «لوكريثيا» يتحول إلى أرخبيل آلام يغلي، لا يوحده إلا وعيها، وهو وعي يبدو ـ زيادة في معاناتها ـ غير قادر على الاستسلام والنسيان. وفي النهاية، حاولت «لوكريثيا» تقبل آلامها كما لو أنها صور من مخيلتها، وكأنها تنتمي أيضًا إلى مملكة أحلامها الفسيحة والغامضة.

تعلمت «لوكريثيا» أن التعذيب هو لعبة فظيعة، حيث مهارة يدي الجلاد فيها تقرأ باستخفاف أفكار المتهم. ففي بعض الأحيان تتلعثم في أجوبتها، فتبدو اللعثمة كما لو أنها القوة التي تدفع ذراعي الجلاد، فيدير العجلات الكبيرة، ويصبح الألم أكثر حدَّة في تلك المواضع من جسدها، وبسبب توزع أماكن الألم يتعاظم العذاب.

وفي تلك اللعبة، أدركت «لوكريثيا» أنه عليها أن تجيب عن كل شيء، وأن تتحمل مسؤولية اتهامات كثيرة، إنما عليها أيضًا أن تحتاط في تقبل اتهامات تشير إلى خطايا خطيرة، يمكن أن تسبب لها، في المستقبل، قدرًا أكبر من التعذيب والآلام.

وتوصلت في تلك الساعات إلى أنه، مثلما يغيب الجسد في الأحلام ولا يكون من حضور وحياة إلا للذاكرة، لا بد من محاولة تغييب الجسد أيضًا وأن يكون العقل وحده هو المتحكم في كل شيء، بحثًا عن طريقة للتحرر بأفضل ما يمكن من شِراك الألم.

انتهى التعذيب مع أول ساعات المساء، وحُررت «لوكريثيا» من أحزمتها. قُدمت لها خرقة قماش كي تجفف عرقها، وملابسها كي ترتديها. كانت نهاية التعذيب قد أعادت للأشياء كلها ترتيبها اليومي المعهود، وأدار الرجال الأربعة ظهورهم بينما هي ترتدي ملابسها وتسوي مظهرها. اقتادوها إلى محبسها، ووجدت ابنتها هناك تبكي من الجوع، وعندما أرادت إرضاعها، اكتشفت بألم جديد توج آلام ذلك النهار، أن صدرها لم يعد يدر قطرة واحدة من الحليب.

تجدد الاستجواب في اليوم التالي. أقسمت «لوكريثيا» اليمين وتهيأت للسماع. كانت ابنتها مريضة بعض الشيء، وقد أمر المجاز «باتشيكو» بأن تتولى رعايتها امرأة من طليطلة، هي راهبة قديمة، سُجنت بتهمة العرافة والشعوذة.

طلبت «لوكريثيا» أن يتلى عليها بالترتيب ما قالته في حجرة التعذيب، كي تتمكن من التمييز بوضوح بين الأحلام التي حلمت بها وتلك التي صاغها واختلقها «دون ألونسو دي ميندوثا» والراهب «لوقا دي أييندي». وكان المدعي العام من جهته قد حرر مذكرة بالغة الطول يمنح فيها تصورًا لما ترى فيه المحكمة المقدسة جرائم «لوكريثيا».

وكانت الجريمة الأولى هي قولها وتأكيدها أنها رأت رؤى في أكثر من أربعمائة حلم تدعي أنها حلمت بها، وطلبت تدوينها، وتتضمن تلك الرؤى كثيرًا من المغالطات والهرطقة، وكثيرًا من الزيف والأكاذيب الوبيلة، والانشقاقية، والفضائحية، وتقولات وقحة، وكثيرًا من الشهادات الخبيثة والعبارات المشينة والتجديف.

وبعد التهمة الأولى توالت اتهامات كثيرة أخرى، راحت تكشف لها عن

تهديدات لا حصر لها. فهم يتهمونها بأنها سعت بتلك الأحلام والنبوءات الزائفة إلى تشويه سمعة الملك ووزرائه والحكومة، متنبئة لهم بميتات كارثية، وبأحداث مخزية، وانقراض كامل للسلالة المالكة.

ويتهمونها بأنها قالت إنه سيحل محل الملك الذي سيتسبب حكمه في ضياع إسبانيا، «ميجيل دي بيدرولا» كملك جديد عادل، وحكومة عظيمة.

واتهموها بأنها أدخلت في أحلامها يوحنا المعمدان والقديس بطرس الرسول ولوقا الإنجيلي، ووضعت على لسانهم كثيرًا من الهراء.

وتوالت الاتهامات بندًا فبندًا، إلى أن تجاوزت الخمسين تهمة.

أبدت «لوكريثيا» الإذعان والنية في التعاون مع المحكمة، لكنها أنكرت مرة أخرى مسؤوليتها عن الهرطقة أو الأخطاء التي يمكن لأحلامها أن تكون قد تضمنتها، لأن تدوينها جرى بيد «دون ألونسو دي ميندوثا» والراهب «لوقا دي أيينديي»، وأنها هي التي لا تعرف القراءة والكتابة، لا يمكنها أن تعرف ما الذي كان يدونه الرجلان الحكيمان من أقوالها.

أكدت بإلحاح أنها لم تشأ في أي يوم أن تنال من سمعة الملك. وأنكرت أنها قالت إن الملاك ميخائيل الذي ظهر في حلمها هو الجندي المتنبئ المدعو «بيدرولا بيامونتي». وأقسمت إنها لم تؤكد قطُّ أن الرجال الذين تراهم في أحلامها هم المعمدان، والرسول، والإنجيلي، وأن تلك المطابقة للرجال الثلاثة في المدونات هي من عمل «دون ألونسو دي ميندوثا».

وأكدت من جهة أخرى أنها لم ترتدِ قطُّ كتفية تلك الجمعية الأخوية،

لكنها نبهت إلى أن الجمعية لم تكن تدعو بأي حال إلى ديانة جديدة، وإنما هي أخوية دينية للنضال ضد أعداء الدين الحقيقي.

لم يبدِ المجاز «باتشيكو» رضاه عن أقوالها، وأمر بأن تعذب من جديد. فظنت «لوكريثيا» أن المحكمة تريد أن تجعلها تدفع ثمن فترة تزيد على السنة كان السجن خلالها مفيدًا لها. ففي السجن سمعت الجلادين يتكلمون برقة بالغة مع المتهمين الذين يعذبونهم. وإذا كانت قد حركت رحمتهم بعض النقود التي يتلقونها، فإنها لا تملك أية نقود، ولا تجد الطريقة لطلبها من «دون ألونسو». وقد سمعت كذلك أن طهو البخور مع النبيذ مفيد في تحمل التعذيب، لكنها لا تعرف سبيلًا للحصول على ذلك الخليط.

تأهبت لمواجهة محنة التعذيب من جديد، ولكن ما إن بدأ الجلاد بخنق أعضاء جسدها بالأحزمة، حتى شعرت أنها لن تستطيع الصمود، فصرخت طالبة جلسة استماع. أُنزلت إلى حجرة المجاز «باتشيكو» الذي سألها عما تريده.

قالت «لوكريثيا» منتحبة بغم:

ـ إنني مريضة يا صاحب السعادة. أتوسل إليكم، حبًّا في الرب، ألا تعذبوني مرة أخرى، فأنا لم أكن مذنبة برؤية تلك الأحلام التعيسة وروايتها لـ«دون ألونسو دي ميندوثا».

ردَّ عليها المجاز الذي يستاء من رؤية التعذيب:

ـ نريد معرفة الحقيقة.

ـ أقسم لكم إنني لم أقل سوى الحقيقة. أقسم لكم بصحة ابنتي البريئة.

وسط دموعها رأت «لوكريثيا» مرة أخرى ذلك القبو كمكان حلم، وبدت ملامح عدم المبالاة التي ينظر بها الرجال إليها كأنها وجوه بلا حياة لهيئات متخيلة تنتهي إلى التلاشي في الهواء. ارتدت ملابسها كما لو أنها في حلم، وتبعت المأمورين القضائيين حتى محبسها مدركة أن المجاز «باتشيكو» قد وضع حدًّا لتعذيبها.

# ٢٨

من خلال بواب يدعى «فرانثيسكو رودريجيث»، يعامل «لوكريثيا» برحمة على الدوام، عرفت هي أن المجاز «باتشيكو» قد أنهى زيارته. لكنه قبل عودته إلى العاصمة، أصدر أمرًا بنقلها إلى محبس في الرواق العلوي، على مقربة من محبس «دون ألونسو»، له كوة في أعلى الجدار يدخل منها ضوء النهار.

- وقد أمر المجاز «باتشيكو» أيضًا بأن تكون رفيقتك في الزنزانة وتُحبس معك المدعوة «ليونور» التي تولت العناية بالطفلة خلال جلسات التحقيق الأخيرة، ويبدو أنها كانت سعيدة بذلك.

توافق انتقال «لوكريثيا» مع موسم مجيء طيور الكراكي، فكانت «ليونور» تقول إن ذلك النعيب المتعدد، مع صداه العابر والطويل، هو إشارة إلى قدوم الربيع. وتنظر المرأتان إلى أعلى، كما لو أنه يمكن لعيونهما أن تخترق السقف وتتأمل طيران أسراب الطيور الطويلة وتجمعها التالي.

تقول الراهبة السابقة:

ـ إنها ترقص الآن. ترقص في كورال وتنعق، كما لو أنها تقول وداعًا وداعًا بكثير من الصخب. وبعد الوداع تتفرق الأسراب، ويبتعد كل منها مثل سهم، متوجهة في مختلف الاتجاهات حيث ستقضي شهور الطقس الطيب.

في شهر أبريل وصل إلى المحكمة قاض جديد، هو المجاز «دون أنطونيو دي موريخون»، وبدأت في حياة «لوكريثيا» مرحلة طويلة أخرى من الانتظار، تقطعها في بعض المناسبات جلسات تحقيق يكون عليها أن تسمع فيها قوائم اتهامات جديدة، وترد بمرافعات تدافع بها عن نفسها.

بدا لها، في بعض الأحيان، أن القضاة لا يهتمون إلا بأمر رجال أحلامها وهويتهم، والعناصر الدينية والميليشية التي يمكن أن تكون قد تضمنتها أخوية الإصلاح الجديد. وفي جلسات تحقيق أخرى، بدا أن ما يقلقهم في القضية هو ما حلمت به «لوكريثيا» عن ملكة إنجلترا و«دريك» والتركي الأعظم وغزوهم لإسبانيا وحسب. فإذا ما استجوبوها في مناسبة أخرى، بدا أن ما يهمهم هو النبوءات حول موت الملك وابنه «فيليبه» وانقراض سلالة البيت النمساوي.

لم يعودوا إلى تعذيبها، وحاولت «لوكريثيا» أن تتقبل واقعية سجنها بشعور بالاستسلام أكثر مما هو باليأس.

لم تعد تفكر بالسذاجة الشديدة التي كانت عليها في شهور حبسها الأولى، حين ظنت أن مخاوف الناس من المحكمة المقدسة ليس لها مسوغ. لا شك أن سجون محاكم التفتيش تشكل عقوبة رهيبة. ففيها يجب على المتهم الانصياع لما يؤمر به من دون تهاون، والحفاظ على صمت يبدو أقرب إلى جو المقابر منه إلى جو مكان مأهول بكائنات حية. وهناك

يتوجب على المرء الخضوع لاستجوابات لا تنتهي، من دون أن يعرف أبدًا إذا ما كانت أجوبته تُرضي فضول القضاة أم أن فصاحة آلة التعذيب بالحبال هي الوسيلة المقنعة، هذا إذا لم تمضِ الأمور إلى ما هو أسوأ وتستخدم آلة «البوترو» لتقييد الأعضاء وإحداث قدر أكبر من الآلام.

وفي أحد الأيام نظرت «لوكريثيا» فيما حولها، وعادت إلى التفكير في أن ذلك كله قد لا يكون إلا مجرد حلم. حلم مختلف عن تلك الأحلام التي سيطرت عليها في حياتها السابقة، إذا ما كانت أحلامًا حقيقية وليس مجرد أحلام يقظة تسمح هي نفسها بالانقياد لها من دون أن تكون غائبة عن الوعي، وتضع فيها أقنعة شخصيات وأشباح تشكل جزءًا من مشيئتها العميقة والمتمردة برؤية دمار الملكية واختفاء الملك ووزرائه.

كانت «لوكريثيا» ترغب في تذكر بيتها، ودخول إخوتها وخروجهم، وعناية أمها المهذارة، وصخب شوارع مدريد، ورائحة مقالي المطاعم، ونداءات المنادين الثرثارين، وألحان الرقصات الموريسكية، والجبال البديعة المغطاة بأشجار السنديان والقطلب والعرعر والصنوبر المحيطة بالمدينة، وأزهار اللاذن البيضاء والبرقوق الحمراء، واليعاسيب المتطايرة فوق النهر.

ولكنها تفكر على الفور في أنه يمكن لذلك كله أن يكون مقاطع متفرقة ومختلطة من تخيل لا سبيل إلى تفسيره، ولا يمكن لأحد أن يعيد شكله الأصلي. وربما لم يوجد ذلك كله قطُّ مثلما تظن أنها تتذكره، وأنه ليس إلا محض هذيان من وعيها.

وربما لم تقضِ هي ثلاث سنوات محبوسة هناك، مثلما تقدر، وإنما سنوات أكثر بكثير. وربما تكون هي، مثل ابنتها، قد ولدت هناك أيضًا،

وترعرعت طوال الوقت وسط ذلك الروتين الصامت، وجلسات التحقيق والتعذيب، بينما مرور الفصول يتجدد بتمدد النور وتقلصه على امتداد الأيام، وازدياد الحر والبرد ونقصانهما على امتداد الشهور، وبصخب طيور الكراكي التي تجوب السماء غير المرئية مرة في السنة.

ربما تكون تلك الذاكرة المزعومة عن بيتها، وعن شوارع العاصمة بكنائسها وأديرتها، وعن محيط المدينة البري، مجرد تخيل يعكس بصورة غامضة ذكريات غريبة عنها، أشياء استذكرها بعض محدثيها المنسيين، وعرفتها من أحاديث قديمة مع متهمين آخرين.

كانت ابنتها تمنحها، من جهة، تلك الصورة عن منشئها السجني، وأنها هي أيضًا كانت طفلة ولدت في السجن، من دون أية ذكريات محتملة تختلف عن الواقع الذي تعيشانه. وكانت تشكل، من جهة أخرى، السعادة الوحيدة في الحزن اليومي لتلك الحياة المكونة من عدم الاستقرار والحرمان والترقيع.

كانت الطفلة قد بدأت آنذاك في الكلام، وكانت «لوكريثيا» تلعب معها في كل ساعات النهار تقريبًا، تروي لها أشياء كثيرة لم تكن الطفلة قادرة على فهمها بعد: الحكايات والخرافات والأغاني الغرامية التي سمعتها هي نفسها في طفولتها. وتحاول أن تلقنها سير حياة القديسين وأهازيج عيد الميلاد التي تحفظها منذ الطفولة.

وحاولت أن تنقل إليها أيضًا، كسرٍ مشترك بينهما، ما تعرفه عن الحروف والأعداد، باستخدام عود تخط به على لوح مُدخن، كي لا تجد ابنتها نفسها، مع مرور الزمن، واقعة في الجهل الذي أرادت هي أن تخرج منه، من دون أن تتوصل إلى مرادها.

كانت «لوكريثيا» تشعر بحزن على ابنتها يدفعها في أحيان كثيرة إلى البكاء بصمت وتكتم. كانت تدرك أن الطفلة هي الضحية البريئة حقًّا لمحكمة التفتيش وانتقام الملك. فالعالم كله في نظر «مرجريتا» هو ما تتضمنه تلك الجدران القديمة، والممرات كريهة الرائحة والفناء. ومتعتها اليومية تتمثل في الخروج من الزنزانة بالمباول والنزول بها إلى المراحيض النتنة لإفراغ ما تحتويه من قذارة. والمتعة تتمثل في سؤال مأموري السجن عن أشياء، يعجز بعضهم عن تجاهل إلحاحها، ويردون عليها من دون فظاظة، ولكن باقتضاب وصوت خافت، وهذا ما جعل الطفلة أيضًا تتكلم همسًا، كما لو أنها الطريقة الطبيعية للتواصل الشفوي.

وإذا كانت الممرات في نظرها اتساعات فسيحة، فإن بئر الفناء هي المكان العجيب الذي يخرج منه الماء، والمركز الأساسي لكل الرحلات التي تتيح لها في كل يوم الخروج من زنزانتها وذرع العالم. وفي بعض الأحيان، بينما هما تنتظران دورهما عند الماء، يخرج من الباب المؤدي إلى القبو، حيث حجرة التعذيب، صوت ولولة، أو صرخة تتوسل الرحمة، فتردد الطفلة الصوت للسجانين ببراءة ساخرة، ثم تنظر إلى «لوكريثيا» وتقول لها إنهم يغنون.

وقد أسعدها، منذ الربيع، أن طيور السنونو بنت أعشاشها على أفاريز البناء. ومع تلك الطيور، صارت ترى عبور كركي محلقًا، وألفة الحمائم. ذلك أن الحيوانات الوحيدة التي كانت الطفلة تعرفها هي النمال التي تجوب الأرضية المبلطة لتحمل آخر فتات الخبز، والبق الذي يعيش في الأخشاب والأسرَّة، والذباب الذي لا يكل، والفئران المتهربة والقادرة على العثور على أي قطعة من الطعام يمكن لها تخزينها.

فكما الذهب في عالم الناس الأحرار، يشكل الطعام الكنز الرئيسي في ذلك العالم الذي ولدت الطفلة فيه.

وذات يوم، نبه مسؤول التموين «لوكريثيا» إلى أن «دون ألونسو» لم يعد يتمتع بالسيطرة على ممتلكاته، وهم لا يستطيعون بالتالي أن يقدموا لها المأكولات الزائدة عن الوجبة العادية، وكان رجل الدين يتحمل نفقات تلك المأكولات الإضافية. أضف إلى ذلك أن التشدد الصارم في تنفيذ أنظمة ديوان التفتيش لم تؤدِّ إلى تحسين وجبات الطعام، بل على العكس تمامًا. فمثلما تنبأ بعض السجناء القدماء عندما عاقب الزائر «باتشيكو» المسؤولين السابقين بسبب شططهم، صار رئيس السجن ومسؤول التموين الجديدان يسرقان أكثر من أولئك، إذ لم يعد السجناء في وضع يمكنهم من إيصال شكواهم، كما في السابق، وإجبار المأمورين بموقفهم المشترك، على الرغم من ضعفه، على عدم الاستخفاف كثيرًا بشأن الطعام والنظافة. وهكذا ساءت جعالة الطعام العادية كثيرًا في المرحلة الجديدة، وصار يتأخر استبدال ملاءات الفراش، والتعويض عن المكانس وأدوات تنظيف المحابس المستهلكة. وكان مسؤول التموين يطالب بالمزيد مقابل ما يطلبه المتهمون من أطعمة إضافية، لكن من كانوا قادرين على الدفع ما عادوا يحصلون على ما كان عاديًا في أزمنة رئيس السجن ومسؤول التموين اللذين عوقبا.

وفي يوم آخر، أهدى ذلك البواب الذي يشفق عليهما هرًّا صغيرًا إلى «مرجريتا»، فتحول الهر منذ ذلك الحين إلى لعبة الطفلة ورفيقها. ولأنه مجبر على الصيام الذي هو عادة في السجن، صار الهر على الفور صيادًا عظيمًا، ولم يفتقد قطٌّ فأرًا أو دويبة يتغذى عليها. وفي الليل، كان القط

ينام في السرير الذي تتقاسمه الأم وابنتها. وقد اكتشفت «لوكريثيا» أن ابنتها تهمس وقتًا طويلًا بكلمات لم تكن تفهم معناها. وانتهت إلى معرفة أن ابنتها تتكلم إلى الهر. تروي له قصصًا عن أشياء تقول إنها رأتها، هي إعادة تركيب متخيلة لما ترويه لها أمها عن العالم الخارجي، عن تماثيل وزينات الكنائس، ومختلف عناصر المهرجانات التنكرية، ورقصات الاحتفالات الشعبية، وخطابات الثرثارين، وكيف هي الحيوانات التي تُربى في الزرائب، وكيف هو مذاق الفواكه والزلابية، وكم من المهن توجد، وأية أشياء يصنعها مختلف المهنيين والصناع.

تذكرت «لوكريثيا» طفولتها، وهي تدمدم بين النوم واليقظة، وعادت تفكر في أنه ربما كان محققو التفتيش على حق بأن أحلامها لم تكن إلا تخيلات وهمية تخيلتها في تلك التخوم التي يكون الوعي فيها على وشك الغرق في النوم، من دون أن يكون قد حدث الغياب التام عن الوعي.

إذا كان الأمر كذلك حقًّا، فربما كان المحققون على حق في أن أحلامها عن الملك صدرت عن نية خبيثة، وأنها كانت تسعى لتشويه سُمعته. لكن زمنًا طويلًا كان قد انقضى منذ أن رأت تلك الرؤى آخر مرة، ومع أنها كانت تتذكرها بوضوح، مثلما يتذكر الطالب الجيد دروسه، ومهما كان تلاعبها إذا ما ناقضت أقوالها أو أبدت نسيانًا لا يروق لقضاتها، إلا أنها لم تعد تعرف حقًّا إذا ما كانت تلك الرؤى قد ظهرت لها خلال الأحلام، مثلما تقسم هي، أم إنها نتاج أحلام اليقظة والأوهام لتبلبل بها إيمان الناس.

كانت «لوكريثيا» تخشى كثيرًا مونولوج ابنتها غير المفهوم. وتذكرت

غضب ذلك الأب شديد الصرامة والبعيد، وكيف كان يضربها وهي طفلة لأنها تروي أحلامها، والغضب الذي كان يبديه عندما تحول «دون ألونسو» إلى حاميها.

فهي أيضًا لا ترغب في أن تصير «مرجريتا» حالمة، واستعدت لأن تنتزع من الطفلة، بأي طريقة، بذور ذلك الميل إلى الأحلام.

# ٢٩

ظلت «لوكريثيا» وقتًا طويلًا محبوسة على مقربة من «دون ألونسو دي ميندوثا». كان بابا زنزانتيهما متجاورين. وقد عرفت أن اللاهوتي قد فقد كل امتيازاته بعد زيارة المجاز «باتشيكو». فقد حُرم من الطاهي الذي يعدُّ له طعامه، ومن الخادم الذي يقوم على خدمته، وأخذوا قفص الديوك المخصية والدجاج الذي كان يشكل الجزء الأساسي من مؤونته. وجُرد محبسه من السجاجيد المعلقة والأرضية التي كان «دون ألونسو» قد طلب إحضارها من بيته. كما أنه عوقب بالأغلال الحديدية لرفضه الامتثال للمحكمة.

وإلى أن انتزعوا الأغلال من ساقيه، بعد عدة شهور، ظل «دون ألونسو» صامتًا وساهيًا عن كل شيء. ولكنه ما إن تحرر من تلك السلاسل والأغلال التي أهانت من دون ريب جسده وشرفه، وتمكن من تحريك أعضائه بحرية، حتى اتخذ موقفًا متمردًا يختلف تمامًا عما كان عليه في مراحل سجنه الأولى، عندما كان يحاول إرسال مذكرات إلى البابا عن طريق صديقته «خيرونيما دوريا»، ويرفض بمسوغات خطية سلطة محكمة التفتيش على اتهامه بتدوين وتفسير أحلام «لوكريثيا».

ومن خلال أصواته وأصوات سجانيه، عُرف أنه يُدخِّن الأطباق كي يكتب عليها بأظفاره. غير أن تمرده لم يعد يُوجه إلى كتابة المذكرات، بل إلى التعبير المباشر عن غضبه واحتجاجاته كلما وجد على مقربة منه أحد أعضاء محكمة التفتيش، مهما صغر شأنه. وكان جميع السجناء المجاورين لزنزانته يسمعون ذلك، لأن «دون ألونسو» لم يكن يتوخى الحذر في إطلاق شتائمه ولعناته.

وكان من الإجراءات العقابية التي طُبقت عليه، منعه من الخروج من محبسه في تلك المناسبات اليومية التي ينزل فيها السجناء لملء أباريقهم بالماء، والذهاب إلى المراحيض للراحة وإفراغ الأواني الضرورية لقضاء حاجة من ينامون وراء أبواب مقفلة، فكان على السجين أن يستدعي البوابين لمساعدته في هذه الحالات.

وجد «دون ألونسو» في عملية إفراغ المباول ذريعة للإبقاء على غضبه متأججًا. ففي كل يوم يُسمَع صوته يدوي في الردهة، عدة مرات، وهو ينادي البوابين ليفرغوها له. وعلى الرغم من أن البوابين، وفق ما استطاع السجناء سماعه، قد احتاطوا لذلك الاحتمال بوضع عدد من تلك الأواني في زنزانته، إلا أنه كانت لدى «دون ألونسو» القدرة على ملئها كلها، لأنه يطلب طوال الوقت إفراغها مرفقًا ذلك بالسباب.

كان صوت اللاهوتي يلعلع:

ـ إننا نتغوط كثيرًا الآن! تعالوا لإفراغها أيها الأوغاد!

يطلب منه البواب:

ـ اهدأ يا صاحب.

فيزمجر اللاهوتي من دون اهتمام به:

ـ إننا نتغوط كثيرًا، ولسوف نزيد التغوط، عليك لعنة الله!

كانت «لوكريثيا» ترى في ذلك التباهي البرازيِّ تصرف طفل نزق والوجه الآخر المضحك لتفاخر «دون ألونسو»، عندما كان مرشدها الروحي، بمعارفه الكلاسيكية.

ومع ذلك، كان مزاج «دون ألونسو» يتجاوز السباب، فقد مرض في إحدى المرات وجاء الطبيب لعيادته برفقة كاهن يقدم النصح الروحي للسجناء. فأعرب «دون ألونسو» عن احتجاجه على تلك المباول التي لا يفرغونها بصورة كافية، على حد قوله، بإلقاء محتوياتها على زائريه. وقد استطاعت «لوكريثيا» أن ترى، من خلال فرجة الباب، كيف ابتعد الطبيب والكاهن مسرعين، وقد تزينت ملابسهما بتلك البقايا المقرفة. ومنذ ذلك الحين صار البوابون يكثرون من الدخول إلى زنزانة «دون ألونسو» لتكون مباوله جاهزة على الدوام.

ومن ذرائع غضب «دون ألونسو» الأخرى، مسألة استبدال ملاءات السرير، ووصفات الطعام التي يدونها في سجل الوجبات كي تُطهى له في المطبخ، زيادة على الوجبة العادية. فتبديل ملاءات السرير في السجن لم تكن بالكثرة التي ترضي اللاهوتي الذي كان في حياته رجل عادات راقية. وطالب بأن تستبدل ملاءات السرير كل أسبوع، وعندما لم يُستجب طلبه، صار ينادي حراسه كل يوم اثنين بأصوات صاخبة وجنونية.

والشيء نفسه كان يحدث بشأن الطعام، فمع أن العادة في السجن تقضي بتدوين السجين، في سجل الوجبات، ما يرغب في تناوله من

أطعمة إضافية، تقدم له مقابل سعر يعادل أسعار المطاعم الفاخرة، إلا أن وصفات أطعمة «دون ألونسو» كانت تتطلب وفرة من المواد ومهنية عالية في الطهو لا يمكن توفرها في تلك السجون. ولهذا لم تكن طلباته تُستجاب في الغالب، وعندما تُستجاب، لا تكون متوافقة مع تطلعات وتعليمات السجين، فيحتج بغضب أو يرفض الأطباق التي تُقدم له.

كان «دون ألونسو» يصرخ بغيظ:

ـ فليدسوها في مؤخراتهم وليصنعوا منها حقنًا شرجية!

انفجارات غضب «دون ألونسو» تلك تحولت في نظر السجناء الآخرين، فضلًا عن اختلال صاحبها، إلى إشارة يومية إلى الوعي الواضح لوضعه، ومرافعة للحيلولة دون أن يتمكن الخضوع الخارجي المفروض من ترويض أعماقه الذهنية.

ومع ذلك، عندما كان صبر محققي التفتيش يصل إلى ذروته، كان «دون ألونسو» يقيد من جديد. فيعيده التثبيت بالسلاسل والكرات الحديدية إلى الكآبة والصمت. وكان صمته بالنسبة إلى الجميع غيابًا يجعل الهدوء الزائف للوهن اليومي أشد وطأة وإيلامًا.

لم يكن «دون ألونسو» مستعدًّا لتقبل أي شيء يأتيه من سجانيه من دون احتجاج. وبما أنه يمكن للسجناء، في أيام البرد، أن يدفعوا قيمة خدمة مجامر الحطب في محابسهم، فقد كان يطالب بأن يشتعل الحطب جيدًا قبل أن يُدخلوا المجمر إلى زنزانته. وكلما أدخلوه، مهما كانت حالة الجمر فيه، كان يصرخ بأنه غير مشتعل كما يجب، وأنه يسبب له آلامًا في الرأس. وإذا ما طلب من الحراس أن يعطوه المقص ليقلم أظفاره، يحتج

على تأخرهم في تلبية طلبه، لكنه يرفض إعادته بعد ذلك، متعللًا بأنه ما زال بحاجة إليه.

وفي بعض الأيام كان يغني بأعلى صوته مقاطع تمتهن القداسة، كثير منها مشين وغير محتشم لا يليق برجل دين. وفي أيام أخرى يقضي الساعات وهو يركل باب زنزانته، حتى يكاد يخلعه. وفي إحدى المرات وجد طريقة ماكرة لإقفال الباب من الداخل، فاضطروا إلى خلع المفصلات كي يتمكنوا من فتحه، وكان رجل الدين في أثناء ذلك يوجه السباب والشتائم المقذعة لكل من حاولوا فتح الباب.

أدركت «لوكريثيا» أن إمارات الجنون آخذة بالتعاظم تحت ستار ذلك التمرد المتمادي، وبينما هي تفكر بحزن في أن تعاظم هذيان «دون ألونسو» الغاضب يعني نوعًا من الموت لمن كان بالنسبة إليها صديقًا حاميًا حنونًا، كانت تخشى ضياع «دون ألونسو» في عدم مسؤولية الجنون، وينتهي الأمر بالرؤى التي كانت سبب المحاكمة إلى أن توقع على كاهلها أكبر عقوبات محكمة التفتيش وأشدها صرامة.

كانت أوضاعها قد تحولت إلى أفضل مما كانت عليه مع المجاز «باتشيكو»، فعلى امتداد ثلاث سنوات استُدعيت إلى عدة جلسات تحقيق، لكنها لم تعد تتعرض للتعذيب. وأخيرًا، صاغ المدعي العام «سوتوكامينيو» عدة اتهامات كبيرة، وقائمة من أكثر من خمس وسبعين تهمة خطيرة. ففضلًا عن التهمة القديمة بأن أحلامها ورؤاها تتضمن زيفًا وأكاذيب وسفاهات، وإرادة متعطشة إلى تشويه سمعة الملك ووزرائه، أضافوا تهمة وجود خلل في إيمانها، وهرطقة وأشياء شبيهة بها، وفضائح وعصيان للكنيسة الكاثوليكية تتيح المجال لفتن وأعمال تمرد كبرى.

وما لم يُعتبر خبيثًا أو وبيلًا، جرى تناوله على أنه من حماقات النساء.

وكانت قائمة التهم المتوالية تكتسب قوامًا أو تزداد تماسكًا، ويشار فيها إلى تفسيرات كثيرة لمقاطع من الأحلام برؤية أقل مواتاة لبراءة «لوكريثيا» وأكثر إبرازًا لكل ما يمكن له أن يعزز تهم التمرد والتجديف والهرطقة.

لكن أسوأ ما في الأمر، حسب رأي المجاز «سوتوكامينيو»، هو أن الأحلام لم تكن أحلامًا، وإنما هي أمور جرى التفكير فيها وتدبرها في اليقظة، وأن «لوكريثيا» قد استعانت لتخيلها بأشخاص آخرين، لا سيما بالشيطان نفسه.

وعلى الرغم من وفرة الاتهامات، إلا أن مضمونها جعل «لوكريثيا» تدرك أن التهم الجديدة ليست سوى تلك الأولية، وقد أعيدت صياغتها بعد ليِّ أقوالها وإضافة شهادات خبيثة القصد إليها، لا يخبرها القضاة أبدًا بمصدرها.

وكانت تجد نفسها مضطرة دومًا، خلال جلسات التحقيق، إلى استحضار أحداث وأحاديث تكاد لا تستطيع تذكرها. وحين ترد إلى ذهنها تأتي فجأة ببذل الجهد، ويكون فيها شيء قابل لأن يُفسر على أنه إهانة للملك أو تعريض بالإيمان.

كان عليها أن تتذكر المجنون «خوان دي ديوس» الذي كان يؤمن بقدرته على شفاء المرضى بلعابه، ويقول إنه يتوجب على المرء الذهاب إلى روما متشحًا بجلد ذئب.

وكان عليها أن تتذكر «مارتين دي آيالا»، مزيل البقع، الخدوم ومحب التقبيل، في بعض المحادثات التي أبدت فيها هي أيضًا إعجابها بالندوب

المزعومة لراهبة لشبونة، على الرغم من معرفتها أن الدباغ قد مات في ذلك السجن نفسه بعد وقت قصير من اعتقالها، ولم يعد بإمكانه أن يشهد بحقيقة أو كذب تلك التعليقات البريئة.

وكان عليها أن تتذكر المأمور القضائي «تريخويكي» الذي مات أيضًا. والمتدينتين «ماريا» و«فرانثيسكا دياث»، صديقتي البرتغالية «خوانا كورِّيا» التي كانت تروي لها بكل سذاجة رؤاها قبل اعتقالها على يد معاون المطران «نيروني».

وكان عليها أن تتذكر ملكة إنجلترا، و«دريك»، والتركي الأعظم، والأمير «كارلوس»، والأميرة «إيزابيل كلارا أوخينيا»، مثلما رأتهم على امتداد أحلامها، متذكرة مرة أخرى الكلمات التي تلفظوا بها، والحجرات التي كانوا يشغلونها، وإذا ما كانوا جالسين أو واقفين، وكيف كانت ملابسهم، وحركاتهم، وفي أي اتجاه كانوا ينظرون.

وكان عليها أن تتذكر «بيدرولا» في كل حلم ظهر لها فيه، وبالطبيعة نفسها التي كان عليها في الحلم، وإذا ما كان يرتدي جبته كجندي وفراءه أم إنه كان يظهر بملابس أخرى، وأي سلوك كان يبديه وهو يعدو على حصانه الأبيض.

لم يبقَ شيء مما حلمت به أو قالته خاصًّا بها، وأكد قرار المحكمة الاتهامي اللجوج أنه لم تعد هناك في ماضيها فجوة إلا ونبشتها.

ومع ذلك لم تفقد «لوكريثيا» هدوءها، وكانت تفند، نقطة فنقطة، كل الاتهامات التي توجه إليها، انطلاقًا من تأكيد وضعها كامرأة شابة جاهلة، من دون أي قدر من التعليم، غير قادرة على فهم الأحلام التي رأتها،

وغريبة تمامًا عن مئات الصفحات المكتوبة بأيدي مرشديها الروحيين الذين طمأنوها مرارًا حول براءة رؤاها.

وأنكرت بحسم حانق، وهي تحت القسم، تهمة تحالفها مع الشيطان، وأعلنت أنها كاثوليكية صالحة ومؤمنة، ملتزمة بوصايا الرب والكنيسة:

ـ أنا أعترف، يا أصحاب السيادة، ببعض الضعف الجسدي فقط، وآمل أن يغفر لي الرب ذلك، لأن دافعي إليه لم يكن المتعة الطائشة بقدر ما هي استجابة مخلصة لحركة القلب.

تركوها بسلام بعض الوقت، وانقضى في أثناء ذلك العام ١٥٩٤. وفي الليلة الأخيرة من العام، أيقظها دوي النواقيس مخرجًا إياها من وهم الراحة في بيت أبويها وليس في سرير السجن إلى جانب الصغيرة «مرجريتا» وذلك الهر الذي أطلقتا عليه للتوِّ اسم «موريتو». لم تكن تعرف، وهي في سجنها، أي شيء عن أسرتها، والشيء الوحيد الذي ما زالت تتذكره ببعض الوضوح هي ملامح أبيها، أما صورة أمها فكانت آخذة بالتلاشي. وكان أخوها وأخواتها في مخيلتها مجرد أجساد صغيرة بلا وجوه. وعدم وجود مرآة أوصلها إلى عدم تذكر ملامح وجهها نفسه جيدًا، وإن كانت تقدِّر أن الشيب قد بدأ في الظهور بين شعرها.

لكن تجربتها كانت تشير لها إلى أنه لا بد لتلك الإجراءات من أن تنتهي يومًا. وعلى الرغم من أن النتيجة النهائية تعتمد على مشيئة قضاة التفتيش وصرامتهم، إلا أنه يمكن لسلوكها أن يخفف من قسوة الحكم عليها. لقد صممت على ألا تضعف، وأصرت في جلسات التحقيق الجديدة على أنها لا تتذكر أنها حلمت كثيرًا بالأمور التي يقدمها المدعي العام على أنها حقائق في اتهاماته:

ـ لقد كنت أظن على الدوام أن الراهب «لوقا دي أييندي» و«دون ألونسو دي ميندوثا» سيصرحان في اعترافاتهما بحقيقة ما كنتُ أقول لهما بأنني حلمت به، وبما أضافاه هما أنفسهما إلى أحلامي ولم يخبراني به. وما يقوله المدعي العام يدل على أن الأمر لم يكن كذلك، لأنه يتهمني بأشياء لم أحلم بها، وإن كانت مدونة على أنها من أحلامي، كالقول إن قمحًا كان يتدفق من فم «بيدرولا»، أو حيث يقال إن «بيدرولا» سيصير ملكًا، فأنا أتذكر جيدًا أنني لم أرَ مثل هذه الأحلام.

واستعانت في دفاعها أيضًا بشهادة «دون ألونسو دي ميندوثا» في ليلة الوليمة في بيتها، بعد إطلاق سراحها من قبضة معاون المطران. عندما روى اللاهوتي، بتهكم لا يخفي استياءه، ما قاله له «فراي لويس دي ليون» بأنه من غير المناسب إيلاء أي اهتمام لأحلامها.

ـ إذا كان قد قيل له إن أحلامي هي مجرد تخيلات وأوهام فتاة، فلماذا لم يتوقف عن الطلب مني أن أروي له أحلامي، وواصل تدوينها؟ إنني مجرد امرأة جاهلة، وقد كنتُ أكثر جهلًا آنذاك، مجرد فتاة شابة وبكر. ولم يكن بمقدوري أن أفهم رأي «فراي لويس دي ليون» المعارض. أما «دون ألونسو»، وبدلًا من أن يستجيب لذلك الرأي، قال إنه يدرس علوم اللاهوت ويمارسها منذ أكثر من عشرين سنة، ويجد في الكتب، بالاستناد إلى أعاجيب أحلامي، أن إسبانيا ستنتهي إلى الضياع. وكنت أقول له إن إسبانيا عظيمة جدًّا، لكنه يرد عليَّ بأن لا وجود لما هو قوي أمام الرب.

ـ أليس صحيحًا أن المتهمة قالت في إحدى المناسبات، كما صرح لنا أحد الشهود، بأن كل ما في أحلامها من أشياء تتبدى بوضوح

في نبوءات «إسـدراس»، و«سان إسيدور»، و«سانتا بريجيدا»، و«سان إيبيفانيو»، وأعلنت أنها نبية إلهية؟

ـ لا أدري ما الذي قلته أنا في هذا الشأن يا صاحب السيادة، ولا أدري إذا ما كانت كلماتي هي مثلما قالها هذا الشاهد، ولكنني لا أعرف مَن هؤلاء الأنبياء الذين ذكرتهم. ومع أن «دون ألونسو دي ميندوثا» كان يحدثني أحيانًا عن «الكتابات المقدسة»، إلا أنني لم أفهم شيئًا منها قطُّ، بسبب قلة عقلي.

في إحدى الليالي سمعت «لوكريثيا» ضجة في الممر، واستطاعت أن ترى من خلال كوة الباب أنهم يُخرجون «دون ألونسو دي ميندوثا» من زنزانته، وأن اللاهوتي يرافق السجانين من دون مقاومة. كان يشد إلى صدره ما بدا لـ«لوكريثيا» لفافة كبيرة من الأوراق ملفوفة بقطعة من جلد الغنم. وقد علمت بعد ذلك أن محكمة التفتيش نقلت «دون ألونسو» إلى دير «سان أجوسطين»، وباختفائه أحست «لوكريثيا» مرة أخرى بقلق أنها ستتحمل وحدها ثقل أكبر الذنوب التي لن يتوانى قضاة التفتيش عن معاقبتها عليها.

لكنها بعد جلسات التحقيق تلك أمضت فترة طويلة من الهدوء، توافقت مع قدوم الربيع. كان الزغب يطفو في هواء الفناء، وعادت طيور السنونو مرة أخرى لتعشش تحت أفاريز سقوف الردهات ودعائمها وتجاويفها. واستخدمت «لوكريثيا» بعض الملابس التي قُدمت إليها كصدقات لتصنع منها ثوبًا باردًا لابنتها.

في منتصف شهر يونيو، استدعاها القضاة مجددًا للمثول أمامهم،

وما كانت قد تعلمته من تعاملهم معها في جلسات الاستجواب الكثيرة، جعلها تشعر بالحذر، فقد بدا لها أنها تجد في نظرات المحققين بريق حسم. ورأت إيماءة فوز مؤكد في الطريقة التي أمر بها المدعي العام أحد مساعديه بأن يقدم إليه الملفات التي يحتاجها. ومن الطريقة التي راحت تتوالى بها الأسئلة، بعد أن أقسمت اليمين، خمنت أن إجراءات التحقيق آخذة بإغلاق دروبها الملتوية. وأخيرًا سمعت أشد ما كانت تخشاه:

ـ نأمر بأن تُعاقب بالتعذيب، حتى نعرف منها إذا ما كان ما تدعوه أحلامًا هي أحلام حقًّا، وأنها حلمت بها مثلما قالت ومثلما دُونت أم أنها أوهام من وحي الشيطان. وإذا ما كان ثمة حلف مضمر أو صريح مع الشيطان. وإذا ما كانت تلك الأحلام مجرد تخيل ومكر. وإذا كانت تخيلًا، ما الذي دفعها إلى قول تلك الخدع والتظاهر بها. ومن الذي وجهها وساعدها في اختلاق الأحلام ونشرها على الملأ.

عندما أنزلوا «لوكريثيا» إلى قاعة التعذيب، كانت عتمة الفجر مضمخة بعبق أزهار البرية القوية التي طغت على نتانة السجن المعهودة. وكانت آلات التعذيب الضخمة في القبو تحتفظ بوداعة مظهرها الرهيب. تُليت مرة أخرى تلك التنبيهات التي تطلب منها قول الحقيقة احترامًا للرب.

ـ أقول لكم إنني كنت أقول الحقيقة منذ اليوم الأول. لقد رأيت أحلامًا كما قلت لكم دومًا. وأطالب بمواجهة مع «دون ألونسو دي ميندوثا» والراهب «لوقا دي أييندي» والمتهمين الآخرين، كي يُعرف ما أضافوه واختلقوه وهم يدونون الأحلام التي رويتها لهم.

وأضافت «لوكريثيا» المتمسكة بأقوالها أنها لا تتذكر أنها حلمت شيئًا مما هو وارد في المدونات عن مكائد ضد الملك ووزرائه.

ـ أما بشأن ضياع إسبانيا، فهو أمر اختلقته بنفسي حقًّا من دون أن أكون قد حلمت به، ومن دون أن ينصحني به أحد، وإنما قلت ذلك إرضاء لهم، لأنهم كانوا يتعجلون في سؤالي عن هذه الأمور. ولكنني أتوسل إليكم أن تعرضوا عليَّ تفاصيل التحقيق كي أستعرض الأمور في ذاكرتي وأرى الأشياء التي اختلقتها، مثل هذا الأمر عن ضياع إسبانيا.

قال كاتب المحكمة:

ـ هذا الجواب لا يشير إلى ميل إلى قول الحقيقة، فالاختلاق والكذب في أمر عظيم وخطير مثل التنبؤ بضياع إسبانيا، لا يبدو أنه يهدف إلى تحذير جلالة الملك، ولا إلى الرغبة في خدمته الحقيقية.

ـ كنت أقول إن على جلالته أن يعالج الأمور السيئة، مثل الضرائب الكثيرة التي تُفقر الناس، والسعي إلى جبايتها حتى من النساء اللواتي يجمعن الأعشاب البرية في الريف. ويمكن أن يكون «دون ألونسو» والراهب «لوقا» قد دونا أمورًا أكثر مما كنت أقوله.

لم توقف أقوالها العملية، وبدأ الجلاد بتعريتها من ثيابها، وهو يهمس لها:

ـ ها نحن هنا مرة أخرى يا «لوكريثيا». أراك الآن نحيلة جدًّا.

لم يبقَ عليه سوى تجريدها من التنورة الداخلية القصيرة، عندما بدأت «لوكريثيا» بالصراخ:

ـ لا حاجة بكم لأن تعذبوني. سأخبركم بكل شيء.

رد عليها الكاتب من دون أن يبدي أي تأثر بأن تقول ما عليها قوله. لم يكن في كلامه أي أثر من المفاجأة أو الاهتمام، لأن التعذيب بالنسبة إليه، كما هو بالنسبة إلى الجلاد، مجرد جزء آخر من وظيفة محترمة. وكانت «لوكريثيا» تعرف أن هذين الرجلين لا يختلفان إلا بالروح عن آلات التعذيب الضخمة الموزعة في الحجرة، أو عن ذلك الكرسي الخشبي الذي أجبرت على الجلوس عليه.

ـ لن أتكلم إلا أمام السادة قضاة التفتيش. فأنا لا أريد تقديم اعترافاتي لأحد، ولا أريد أن يسمعني أحد سواهم.

حدسها بأن العملية وصلت إلى منتهاها، وخوفها من التعذيب الذي تعاظمت آلامه وصار أكثر رهبة مع ابتعاد ذكراه، جعل «لوكريثيا» تقرر في النهاية أن تبدل شطرًا كبيرًا مما كان حتى ذلك الحين المضمون المعهود لأقوالها.

وهكذا، حين نزل المجاز «موريخون» إلى القاعة، أعلنت أن «دون ألونسو دي ميندوثا» والراهب «لوقا» حرضاها على قول الأمور التي كانت ترويها على أنها أحلام حقيقية. وأن كل ما هو مدون لم يكن سوى اختلاق وزيف. وأنها رأت بعض الأحلام الحقيقية، وقد دُونت أيضًا، لكن عددها قليل جدًّا ومضمونها صبياني وساذج.

ـ وماذا عما تقوله المدونات عن جلالة الملك؟

ـ أنا لا أعرف شيئًا مما كانا يدونانه على أنه أحلامي من أمور تطول الملك أو الملكة، أو عن دمار إسبانيا. وإذا كنت قد قلت شيئًا عن جلالة الملك، فإن ما قلته كان لمصلحته وخدمته.

وبينما «لوكريثيا» تقدم هذه الاعترافات، شعرت بأن تلك الحالمة لم تكن هي نفسها، وإنما آنسة تعيسة، تجهل الوجه الحقيقي لعظائم أمور الدنيا، وغير عارفة بالعواقب التي قد تجلبها لها أفكارها، وغير قادرة على تخيل الآلام والبؤس والعزلة التي يمكن لأصحاب النفوذ أن يجعلوها تدفعها عندما يشكل سلوكها ظلًّا، مهما كانت ضآلته، على امتيازاتهم ومكانتهم.

وأحست أن تلك الفتاة الجاهلة والساذجة التي آمنت بحكمة وسلطة «دون ألونسو» والراهب «لوقا» ومتدينين آخرين، وسادة كبار وفرسان، لم يعد لها وجود، فقد ماتت في السجن تحت لسع البعوض، والبق، والقمل، وقرض الجرذان، وحلت محلها امرأة بلا أحلام ولا أوهام، مثل ذلك الـ«دون ألونسو دي ميندوثا» الذي كان يدون أحلام الفتاة، ومات أيضًا ليحل محله شبح حوَّل كل علمه وحكمته إلى خطبة غير متماسكة عن المباول الممتلئة والوجبات سيئة التقديم.

بيَّن لها قضاة التفتيش أنها تقول أشياء مناقضة لأقوال أخرى كانت تتمسك بها بإصرار، وأرادوا أن يعرفوا إذا ما كانت مدونات «مارتين دي آيالا»، و«دومينجو نافارو»، و«دييجو دي فيكتوريس» تتفق مع أحلامها الحقيقية أم إنها اختلاقات كذلك من جانب المدونين، لكنها كررت بأن كل ما يشكل جوهر التهم الموجهة إليها، إنما صاغه وأمر به «دون ألونسو» والراهب «لوقا»، وأنهما لم يخبراها قطُّ بما دوناه وأضافاه إلى ما كانت تقوله.

ألح قضاة التفتيش عليها أن تقول الحقيقة حبًّا في الرب، وواصلت «لوكريثيا» الكلام، من دون أن تدري أين تناقض اعترافاتها السابقة

الكثيرة، في جلسات التحقيق المطولة تلك التي تشكل في ذهنها استجوابًا مشوشًا بلا نهاية وحسب، كان على حياتها أن تتوافق معه كما لو أنه عمل يومي تستريح منه في الزنزانة المزينة بخيوط شبكة عنكبوت معفرة بالغبار.

# ٣٠

في منتصف شهر يوليو من عام ١٥٩٥، تكلم إليها «فرانثيسكو رودريجيث»، البواب الذي اعتاد أن يبدو متعاطفًا معها، وهو نفسه من أهدى الهر إلى «مرجريتا». وكان قد حمل قبل شهور إلى «لوكريثيا» خبر أن المجلس الأعلى توجه إلى المحكمة منبهًا إلى أن المحاكمة قد طالت كثيرًا، وطالبًا منها أن تضع حدًّا لها. وقال لها خفية، بكثير من الغموض:

ـ «لوكريثيا»، يبدو أن قضيتك قد انتهت. لقد أرسل قضاة المحكمة أخيرًا إلى المجلس الأعلى، حزمة ضخمة من الأوراق مع ثماني حزم من مدونات أحلامك. وكانت كمية الأوراق كبيرة إلى حد أن سكرتيرًا ذهب برفقتها كي يوضح كل شيء.

ـ وهل تعرف إذا ما كانوا متشددين معي؟

ـ يبدو أن هناك اختلافات بين قضاتك، إذ لا يرى الجميع أنك مذنبة مثلما تزعم اتهامات المدعي العام. وهذه إشارة إلى أنه يمكن للحكم أن يكون أقل صرامة مما هو متوقع لكل تلك التهم الكثيرة والجرائم الخطرة.

ـ إن شاء الله.

وعلى الرغم من تشوشها، فقد ملأت تلك الأخبار «لوكريثيا» بالأمل، إذ وجدت فيها وفي ناقلها إيحاء غامضًا يعيد إليها أزمنة الرؤى التي اختفت من أحلامها، وفسرتها انطلاقًا من حدس أعمى يمضي أبعد من الأحداث أو الشخوص التي ظهرت فيها.

في التمتمات الجديدة بصوت ذلك الرجل المتكتم، ظنت «لوكريثيا» أنها وجدت نوعًا من النذر المواتية، نذر أن جمود السجن الطويل والكئيب يكاد يصل إلى منتهاه، وأحست أنها صارت قريبة من اللحظة التي يمكنها فيها أن تستريح من جهدها الطويل ضد إغواء الاستسلام للهجران.

في فجر يوم الأحد، العشرين من أغسطس، دوت طرقات قوية على باب محبسها، وقد تعرفت «لوكريثيا» في تلك الطرقات على الصوت الذي تكرر مرارًا في أماكن أخرى من السجن.

فُتح الباب في الحال، وعلى ضوء قنديل، دخلت عدة أشباح غائمة، تعرفت فيهم أخيرًا على وجوه سجانيها ورئيس السجن الذي قرأ ملاحظة يبيِّن فيها أنه، بعد تحديد جلسة الإيمان التي سيصدر فيها الحكم عليها، جاء لاقتيادها إلى جلسة الإيمان كمتهمة وتائبة.

ارتدت «لوكريثيا» ملابسها بسرعة. لم تكن ابنتها قد استيقظت بعد، لكن الهر كان يقفز في الحجرة محاولًا اقتناص السمادل التي تذرع الجدران بمشيها المتعثر.

سارت «لوكريثيا» في أثر رئيس السجن الذي اقتادها إلى قاعة مجاورة لقاعة الصليب الأخضر.

كان هناك متهمان آخران، من رفاق «جوثمان» الذي تبادل معها أحاديث مطولة في أزمنة سجنها الأولى، وهما متهمان بامتلاك قرآن وبالانتماء إلى طائفة محمد. كانا زوجًا وزوجته. هو يدعى «خوان دي سُريا» وهي «خوانا مونيوث». وكانت «لوكريثيا»، على امتداد سجنها قد تبادلت معهما بعض الكلمات في موعد النزول إلى البئر. إنهما في الخمسينيات من العمر، ولم يكن الرجل قادرًا على نسيان أنه قد سجن بوشاية من ابنته، وكان ذلك هو الأمر الوحيد الذي يتكلم عنه كما يبدو. وما زال غير قادر من دون شك على إبعاده عن ذهنه، لأنه في لحظة ظل فيها المتهمون الثلاثة وحدهم، نظر إلى «لوكريثيا» ودمدم:

ـ بسبب شهادة خبيثة من ابنتي، أُدخلت أنا وزوجتي السجن.

حضر على الفور عدد من أعوان المحكمة المقدسة، وبمزاج متعجرف ألبسوا المتهمين رموزهم من دون التكلم إليهم. وكان على «لوكريثيا» أن ترتدي معطفًا من قماش أصفر. وأحاطوا عنقها بحبل ذي عقد، وكان عليها أن تحمل في يدها اليمنى شمعة صفراء منطفئة.

كانت «لوكريثيا» قد تعرفت جيدًا على الرموز التي تفرض على متهمي المحكمة المقدسة حسب خطاياهم، وبدا لها، بالنظر لما فرضوه عليها من رموز، أن عقوبتها لن تكون بالغة الشدة، لكنها كانت تشعر بضيق معنوي، وبأن لباس المحكومين الأصفر ليس من قماش خفيف وإنما هو أغلال وسلاسل عبد قديم.

بعد أن اتشحوا برموزهم، كان على التائبين أن ينتظروا. ومع أول أنوار النهار، نُظم الموكب الذي سيقتادهم إلى موقع المحاكمة.

ولا بد أن قلة عدد المتهمين وضآلة أهميتهم قد انتزعت من المحاكمة كل وقارها، وإن كانت تحتفظ بما يكفي لئلا تفقد المراسم طابعها الطقوسي. وهكذا لم تغب الدابة المحملة بصندوق مغطى بالمخمل حيث تحفظ الأحكام، ولا بيرق أخوية القديس بطرس الشهيد، مع رسمه الذهبي المطرز بالدمقس. فضلًا عن وجود ستة من حاملي الرماح ذات الفؤوس يتقدمون المتهمين، يحرسهم الأعوان الذين ألبسوهم رموزهم. وتمكنت «لوكريثيا» من أن ترى، على ضوء المشاعل، أن هناك في الخلف موكبًا صغيرًا من الرهبان، وبينهم يمضي قضاة التفتيش والمدعي العام الذي أخضعها لاستجوابات كثيرة، والصليب الأخضر محميًّا بمظلة بنفسجية يحمل أعمدتها الفضية عدد من رجال الدين.

لم تكن ثمة برودة في الشوارع المقفرة، وكانت أصداء التراتيل والأناشيد تزيد من ثقل الهواء الساكن. ولم تكن الشمس قد بزغت بعد عندما وصلوا إلى دير الرهبان الدومينيكانيين الذي ستُعقد فيه المحكمة المقدسة، غير أن ضوءًا داميًا عظيمًا كان يلمع في السماء مع ضوء الأبنية الضارب إلى الخضرة. وأدركت «لوكريثيا» أنها قد عرفت تلك السماء وذلك التضاد القوي بين الضوء والظل في كثير من أحلامها.

كانت الكنيسة مضاءة بوفرة ومزينة جيدًا. وعلى الرغم من أن الوقت لا يزال مبكرًا، إلا أن حشدًا لا بأس به من الفضوليين كان ينتظر هناك. وببطء راح قضاة المحكمة المقدسة، وسلطات المدينة، ومختلف المدعوين، والمتهمون يحتلون الأماكن المخصصة لهم.

وأخيرًا بدأت المحكمة.

صعد راهب دومينيكاني شاب إلى المنبر وألقى موعظة حول الإيمان

الكاثوليكي، وحول حقيقته الثابتة وغير القابلة للتحول، وحول السلطة التي منحها الرب على الأرض لجلالة الملك، وحول إغواءات الشيطان.

لم يكن بمقدور «لوكريثيا» أن تنسى أنها في توازن الأشخاص والهيئات المعقد ذاك، هي مَن تمثل النقيض المخيف لكل ما هو وقور ومحترم. لكنها بعد تلك السنوات الطويلة من روتين السجن، راحت تسترد، في زينات الكنيسة وأنوارها، وفي حميا الموعظة الدينية، متعة الإحساس بالافتتان نفسه الذي كانت تشعر به في طفولتها، عندما كانت ترافق أمها في زياراتها اليومية إلى الكنائس والأديرة.

لم تسمع كلمات الواعظ ولم تفهم مغزاها، لكن رنة الصوت، ولحنه، وإيقاعه، كانت تجد لديها تقبلًا شاكرًا وورعًا. وهكذا، عندما أنهى الواعظ موعظته، وراح أحد أمناء المحكمة المقدسة يتلو، والصليب في يده، صيغة القسم، رددت هي مع الحاضرين جميعهم ـ من دون أن تداري انفعالها أو يقينها، ويدها اليسرى مرفوعة ومشكلة بالسبابة والإبهام إشارة الصليب المقدس ـ أنها تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة وتعترف بها، وتقسم إنها ستدافع عن محكمة التفتيش المقدسة ولا تُغضبها أبدًا.

عندئذ بدأ القداس، وراحت «لوكريثيا» تتابع بداياته بإحساس صادق بالاستسلام والإيمان، ولكن الاحتفال انقطع عند صلاة التقدمة وانتقل الحضور جميعهم إلى فناء الدير، حيث كانت شمس قوية، ذات ضوء زخم، تضيئه بالكامل تقريبًا.

على الخلفية البيضاء لحجارة أقواس الفناء والرواقين العلويين، كانت تبرز ألوان الأماكن التي ستحتلها شخصيات الطقس المقدس، والمنصة العالية التي اقتيد إليها المتهمون، والمذبح الذي يتصدره الصليب الأخضر،

ومنصة السادة قضاة التفتيش، وعليها كراسيهم التي من مخمل قرمزي، ومنصة رجالات المدينة بكراسيها ذات الحشايا السوداء. وكان المذبح والمنصات محمية من الشمس بمظلات بنفسجية تستند إلى أعمدة مذهبة.

شُغلت مقاعد المنصتين، وملأ أناسٌ من العامة وعدد كبير من رجال الدين الرواق، واقتيد المتهمون إلى منصة المحكومين. وبعد ذلك أعلن المأمور القضائي عن اسم «لوكريثيا دي ليون». فاقترب منها اثنان من أعوان محكمة التفتيش وجعلاها تتقدم حتى حافة المنصة كي تسمع كل تفاصيل الحكم عليها الذي بدأ أحد الأمناء بتلاوته.

أشار الأمين إلى طفولتها، وروى كيف أنها تحلم مذ كانت طفلة صغيرة السن بعذراوات وأنبياء، وحتى بالرب الواحد والثلاثي نفسه. وراحت «لوكريثيا» تتذكر فجأة، وبوضوح شديد، ليس ساعات تلك الأحلام الليلية التي يتحدث عنها صوت الأمين، وإنما لحظات اليقظة في الشارع، والناس الذين يعيشون قرب بيتها، والجارات اللواتي يتبادلن الحديث مع أمها، والأطفال الذين كانت تلعب معهم بتوافق أو خصام، والأعمال التي كانت تملأ المكان بأصوات المناشر وروائح الخبز الطازج.

كانت حرارة الشمس قد اشتدت، وصارت حدتها قوية إلى حد شعرت معه بأنها مثبتة إليها، كما لو أنها تطفو في الهواء، بينما كان العرق يسيل على ظهرها كأنه إصبع تقوم بمداعبة خبيثة.

تكلم الأمين عن رجال أحلامها، ناسبًا إليهم بوضوح شخصيات يوحنا المعمدان والقديس بطرس والقديس لوقا، وقال إنها كانت تؤكد أن الثلاثة يحملونها في رحلات إعجازية إلى أماكن كثيرة من العالم ليظهروا لها كيف أن ممالك إسبانيا والمسيحية برمتها ستنتهي إلى الضياع. ووصل إلى التهم

المزعومة التي سمعتها «لوكريثيا» على امتداد جلسات الاستجواب وقد تحولت إلى اتهامات مباشرة ومؤكدة.

كان الأمين يتهمها بأنها أم أنبياء مزيفين، وأن آخرين راحوا يحذون حذوها ويتنبأون مثلها بكوارث، فبدا لها عندئذ أنها تجد، بين الناس المحتمين من الشمس تحت قناطر الرواق، طيف جسد «مارتين دي آيالا» الضئيل، بشفتيه اللزجتين، والذي اعتاد أن يدنو منها كثيرًا بحيث تشعر في أنفها برائحة البول القوية تعبق من بنطاله.

اتهمها الأمين بأنها مجدفة، ومزيفة، ومهرطقة، ومغوية، مؤكدًا أنها قد تحالفت مع الشيطان كي يمدها بمادة رؤاها، ومنها كانت تحوك تلك الأحلام التي حاولت خداع الناس بها، وسعت لتدوينها من أجل توسيع انتشارها.

أخافت ضخامة الاتهامات «لوكريثيا»، لكنها كانت تنظر بعينيها المنخفضتين إلى نصف ذراع صليب القديس «أندريس» المرسوم على ردائها وتحاول عدم فقدان هدوئها وتماسكها.

وأخيرًا سمعت «لوكريثيا» الحكم بحقها: عليها أن تتبرأ علنًا من خطاياها، وأن تتلقى مائة جلدة بالسوط، وأن تبقى محبوسة سنتين في أحد البيوتات الدينية، وأن تُنفى بعد ذلك من مدريد، المكان الذي اقترفت فيه جرائمها.

تراجعت «لوكريثيا» إلى المكان الذي كانت تقف فيه أولًا على منصة المحكومين، وانتظرت تحت الشمس إلى أن تُليت الأحكام على رفيقيها الآخرين. وعندما أدركت أنه لم يعد هناك أي جدوى لجهودها، أحست

بالتعب. لقد انتهت محاكمتها أخيرًا، ولم تكن الأحكام قاسية جدًّا، على الرغم من استيائها من الجلد الذي ستتلقاه والسنتين المتبقيتين لها في السجن.

أنهى الأمين تلاوة الأحكام الأخرى، وأمر بإنزال المحكومين عن المنصة وإحضارهم إلى مذبح الصليب الأخضر.

أمرهم المفتش «موريخون»، وكان يرتدي غفارة، ويتدلى عن كتفيه شال، ويحمل بين يديه سجل البراءات، بأن يجثوا على ركبهم. ثم بدأ بـ«لوكريثيا» وتابع مع رفيقيها، مرددًا الصيغة التي على كل متهم أن يكررها، معلنًا أنه يتبرأ علنًا من الخطايا التي نسبتها إليه المحكمة، والتي جعلته محل شبهات خطيرة.

قالت «لوكريثيا» ذلك محاولة أن يكون صوتها قويًّا وواضحًا:

ـ أُقسم وأتعهد بأن أتمسك دومًا بالإيمان المقدس الذي تمتلكه وتحافظ عليه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة، وأن أكون مطيعة على الدوام للبابا، وأن أتلقى بصبر ومذلة الكفارة المفروضة عليَّ.

وكان على المتهم أن يوقِّع في النهاية. فتناولت «لوكريثيا» الريشة وكتبت اسمها من دون أن تخطئ يدها، وبينما هي تخط تلك الحروف، تعرفت في رموز اسمها تلك على أنها حية تمامًا، ومستعدة لمواصلة بذل الجهد اللازم إلى أن تنتهي محاكمتها وعقوبتها كلها، وتخرج هي وابنتها إلى الحرية.

بعد إشهار التبرؤ، أشعل أعوان محكمة التفتيش الشموع التي يحملها المتهمون، ودخل الجميع إلى الكنيسة لمواصلة القداس. الانتقال المفاجئ

من الشمس المحرقة إلى البرودة الظليلة أخرج «لوكريثيا» من ذهولها وذكَّرها بأنها ستُجلد بعد انتهاء تلك الطقوس. وتخيلت بهلع ضربات السوط المتتالية التي ستشقق ظهرها. ولكنهم أشركوا الجميع في وجبة خفيفة بعد القداس، وقُدم للمتهمين كذلك طعام جيد. وفي النهاية عاد الجميع إلى السجن في موكب، بالطريقة نفسها التي توجهوا بها عند الفجر إلى موقع المحاكمة.

# ٣١

علمت «لوكريثيا» في اليوم التالي أنه لن يكون بالإمكان تنفيذ الحكم بجلدها، لأن الجلاد غائب. وعلى الرغم من بذل كل ما هو ممكن لاستبداله، لم يُعثر على من يرضى بتنفيذ الحكم. ولكن الجلاد رجع بعد أسبوع، وهيأ «لوكريثيا» لتلقي الجلد بالسوط.

كان الجلاد نفسه الذي عذبها في المرات التي أمرت المحكمة بتعذيبها. وبينما هو يعري ظهر المرأة، كان يهمس في أذنها ببعض عبارات الغزل بنبرة تنبئ بمعرفته السابقة لها، كما لو كانت تربطه بها صداقة طيبة:

ـ لو كان الأمر بيدي لما أفسدتُ هذه البشرة الجميلة بالسوط يا حياتي. فمع أنك لم تعودي تملكين ذلك اللحم البديع الذي كان لكِ عندما جاؤوا بك سجينة، إلا أنك ما زلتِ تستحقين المداعبة وليس العقاب.

ومثل أولئك المتهمين الذين رأتهم في مرات كثيرة يُجلدون في الشوارع، أُركبت «لوكريثيا» على متن جحش، وجابوا بها عدة ساحات بينما الجلاد ينفذ العقوبة بحضور المأمور القضائي والكاتب بالعدل.

الشفقة التي خيل لـ«لوكريثيا» أنها وجدتها في كلمات الجلاد، انعكست في تنفيذه للجلد، فلم تكن جلداته قوية بالقدر الذي خشيته، حتى إن بعض المشاهدين صرخوا مستنكرين رخاوة العقاب، واتهموا الجلاد بأنه يسوطها كمن يهش الذباب. غير أن ظهر «لوكريثيا» كان ينزف عندما أُعيدت إلى السجن بعد تلقيها العقاب، ولم تستطع النهوض من الفراش طيلة أربعة أيام، لشدة ما أصابها من ألم.

وفي أحد الأيام الأولى من شهر سبتمبر، تلقت «لوكريثيا» زيارة أمها وأخيها «ألونسو». حضر أحد السجانين إلى زنزانتها، ومن دون أن يقدم لها أي تفسير، طلب منها أن تنزل مع ابنتها. وعندما التقت بهما، وعلى الرغم من تعرف «لوكريثيا» على أمها في تلك المرأة الهرمة ذات الشعر الرمادي، وعلى «ألونسيكو» في ذلك الفتى النحيل ذي الخدين الممتلئين بالبثور الذي يرافقها، إلا أنها نظرت إليهما باستغراب شديد كما لو أنها لم تشاطرهما جزءًا كبيرًا من حياتها، وكما لو أنهما شخصان، وإن ظنت أنها تعرفهما جيدًا، ينتميان إلى تجربة غريبة ونائية.

وربما كانت الأم وابنها يشعران بشيء مماثل، إذ ظلا جامدين من دون كلام، وأدركت «لوكريثيا» من نظراتهما التبدل الذي طرأ على هيئتها ولم تكن أي مرآة قد كشفته لها بعد.

أرعب ذلك اللقاء الصامت الطفلة، فتشبثت بقوة بتنورة أمها.

قالت «لوكريثيا» أخيرًا:

ـ هذه هي جدتك، وهذا خالك «ألونسيكو».

وعندئذ عانقتها «آنا أوردونيث» مطلقة آهة تحسر عميقة.

ومن خلال ما أخبرتها به أمها بعد أن توصلتا إلى قدر أكبر من الطمأنينة، عرفت «لوكريثيا» أن هدف الزيارة ليس اللقاء بها بعد طول عدم التواصل الذي فرضه حبسها على يد محكمة التفتيش، وإنما لتعرف «لوكريثيا» بعض الحدود المحزنة التي بلغتها حياة أسرتها.

فأبوها «ألونسو فرانكو» مريض جدًّا كما يبدو. ولم يعد يعمل كمعقب معاملات. وقد ازداد عدد أفراد الأسرة، من جهة أخرى، ابنين جديدين خلال تلك السنوات الثلاث، مما فاقم من حالة الضيق السابقة. كانت «آنا» ترتدي ملابس عتيقة جدًّا ومرقعة، وكان عليها أن تعود مجددًا إلى نشاطاتها الاضطرارية في المتاجرة وجمع الأعشاب البرية، إضافة إلى غسل الملابس لآخرين، والقيام بكثير من الخدمات الصغيرة مقابل ما يدفعونه لها، وهو لا يتجاوز في بعض الأحيان مجرد وجبة من الطعام. أما الأخوات الثلاث اللواتي تتذكرهن «لوكريثيا»، فيعملن كخادمات ذليلات في بعض البيوت، و«ألونسيكو» سيرحل إلى الفلاند للتطوع كجندي، كي يكسب لقمة عيشه في قادم الأيام.

في إحدى لحظات شكواها، مسحت «آنا أوردونيث» الدموع مستردة نبرة صوت غير نادب، وقالت:

ـ بُنيتي «لوكريثيا»، الأمور على أسوأ حال في بيتنا، وأبوك لم يعد قادرًا على تولي نفقات إطعامك خلال فترة السجن المتبقية لإنهاء عقوبتك.

أحست «لوكريثيا»، بأسى، أن سبب الزيارة والكلام الطويل عن مصاعب أهلها إنما يهدف إلى إطلاعها بوضوح على ذلك الخبر. فدمدمت:

ـ ولكنني لم أعد وحدي كما ترين.

وقد تأكدت ظنونها حينئذ، إذ لم تبدِ «آنا أوردونيث» ما يشير إلى أنها سمعت قولها، ولم تتأخر كثيرًا عن إنهاء زيارتها، متعللة بأنها لا تستطيع البقاء وقتًا أطول، لأنها ستجازف بالتخلف عن عربة البريد التي ستغادر إلى العاصمة في تلك الساعة. وهكذا انصرفت بسرعة بعد قبلات متعجلة لحفيدتها التي علمت بأمر وجودها في تلك المناسبة. وابتعدت ممسكة بذراع «ألونسيكو» الذي كان ينظر إلى أخته بالذهول نفسه الذي أبداه منذ اللحظات الأولى لزيارته.

بعد ذلك قدم أحد أعوان ديوان التفتيش لـ«لوكريثيا» تفسيرًا كاملًا للوضع:

ـ لقد بذل السادة قضاة محكمة التفتيش المساعي لدى أديرة طليطلة كي تُحتجزي في أحدها خلال فترة السنتين التي حُكم عليك بهما، لكن راهبات الملكة وحدهن أبدين استعدادهن لاستقبالك، غير أنهن وضعن شرطًا بألا تكون نفقات إطعامك وابنتك على عاتقهن. عندئذ توجه السادة قضاة التفتيش إلى المجلس الأعلى، وتوجه المجلس بدوره إلى أبيكِ، «ألونسو فرانكو»، لكنه ردَّ بأنه في وضع يعاني معه العوز، ولا يمكنه إطعامك. ولستُ أظن أن أباك يكن لك كثيرًا من المحبة.

كان «ألونسو فرانكو» قد كرر رفضه عندما ألحوا عليه، واقترح ـ ربما بتهكم ـ أن يقدموا الأطعمة لابنته على حساب المدعي العام أو «دون ألونسو دي ميندوثا». ولا شك أن «آنا أوردونيث» قد جاءت

لزيارة «لوكريثيا» كي تثبت حالة العوز التي تؤكد مسوغاته. وأضاف موظف محكمة التفتيش أن مسؤولي ديوان التفتيش ما زالوا يسعون لمعالجة ذلك الأمر، لأن سجنها سيطول وهم غير مستعدين لمواصلة تحمل نفقاتها.

في الأيام الأولى من شهر سبتمبر، صدر الحكم على «دييجو دي فيكتوريس»، بعد تعرضه كما قيل لضغط وتوبيخ شديدين، بالنفي من العاصمة وطليطلة، ولمسافة عشرة فراسخ عنهما.

ولأن «لوكريثيا» كانت تتمتع آنذاك بحرية أكبر في الحركة، فقد استطاعت اللقاء بـ«دييجو»، كي يتمكن الأب من معانقة ابنته التي صار عمرها بضع سنوات من دون أن يتمكن من رؤيتها إلا عن بُعد في قداديس أيام الأعياد.

كان «دييجو» قد تغير أيضًا وصار شخصًا آخر، مثلما تغيرت «آنا أوردونيث» و«ألونسيكو»، ومثلما تغيرت «لوكريثيا» نفسها بكل تأكيد. فقد تحول «دييجو» إلى رجل مختلف عن الشاب الأنيق الذي كانه، وصار رجلًا نحيلًا منحني الظهر، يتكلم بصوت واهن من فم خاوٍ من الأسنان بصورة مريعة:

ـ سنلتقي عندما تنهين حبسك.

أكد لها، لكن «لوكريثيا» رأت في عينيه شحنة عظيمة من الحزن وعرفت أن ذلك اللقاء لن يحدث أبدًا.

بعد قليل من ذلك، نُقلت «لوكريثيا» إلى سجون التكفير والتوبة، وكانت أشد قذارة ونتانة من سجن محكمة التفتيش، وظروفها أسوأ

بكثير. ووجدت نفسها هناك مضطرة إلى تقاسم الزنزانة نفسها مع عدة عاهرات مسنات يقضين الأيام في تبادل الشتائم والضرب، عندما لا يكن مشغولات في انتزاع القمل.

اختفى الهر «موريتو» في الليلة الأولى التي قضتها «لوكريثيا» وابنتها في السجن الجديد، وقالت رفيقات الزنزانة للطفلة، وهن يقهقهن، إن ذلك الهر قد انتهى من دون شك في إحدى القدور. كان الطعام بائسًا والظروف الصحية سيئة جدًّا، وقد احتجت «لوكريثيا» أمام محكمة التفتيش مطالبة بأن يطبق الحكم الصادر عليها بحذافيره، وأن تنقل إلى أحد الأماكن الدينية.

وأخيرًا نقلوها إلى مستشفى «سان لورينثو»، وأوكلوا أمرها وأمر ابنتها إلى راهبتين رحيمتين، وتولى توجيهها الروحي كاهن كئيب، يكاد لا يفتح فمه إلا لتذكر عذابات الجحيم.

كان مستشفى «سان لورينثو» مخصصًا للأطفال القرعان، وقد خافت «لوكريثيا» خوفًا شديدًا على ابنتها الضعيفة والعليلة بسبب ظروف الحياة السيئة منذ مولدها، وخشيت أن تنتقل إليها عدوى ذلك الداء المقرف الذي يقرض جلدة رأس المصابين. وعلى الرغم من محاولة الكاهن طمأنتها بالتأكيد لها أن المرض لا ينتقل إلى الأصحاء في المكان، مثلما يعرف من تجربته، إلا أنها ألحت على محققي التفتيش في طلب نقلها إلى مكان آخر.

كان «فرانثيسكو رودريجيث» قد قدم لـ«لوكريثيا» أخبار رفاقها القدامى. وهكذا علمت أن «دون جيِّن دي كاساوس» قد مات بسكتة

قلبية بعد قليل من خروجها من سجن محكمة التفتيش، وأنه كان على الراهب «لوقا دي أييندي» أن ينتظر عدة شهور أخرى كي يعرف نهاية قضيته، ولكن محاكمته انتهت بالنسبة إليه بحكم رحيم يقضي بسجنه لمدة سنة في بيت ديني. أما «دون ألونسو» فما زال محبوسًا في أحد الأديرة، وجنونه لا يهدأ. وعرفت «لوكريثيا» أن «دييجو دي فيكتوريس» قد رجع إلى «ثامورا»، لكنها لم تتلق منه قطُّ أي علامة أو رسالة.

وتبين أخيرًا أن الفتاة الفقيرة وغير المتعلمة هي مَن تلقت أشد عقوبة بين أعضاء أخوية الإصلاح الشهيرة تلك، وأدركت «لوكريثيا» بجلاء مرعب، أنه إذا كان ذلك قد نتج عن إرادة الرب، مثلما يؤكد الجميع، فإن الرحمة والعدالة ليسا من الصفات الإلهية، مهما أُشيع ذلك من منابر الكنائس وحجرات الاعتراف.

وكان «فرانثيسكو رودريجيث» يخبرها بأن محققي التفتيش يواصلون مطالبة «ألونسو فرانكو» بأن يدفع قيمة إطعامها وإطعام حفيدته، غير أن معقب المعاملات السابق لم يتراجع، حتى إنه لم يعترف بأنه جد لتلك الطفلة. ومنذ أن زارتها أمها مع أخيها، لم تعد «لوكريثيا» تعرف شيئًا عنهم، وإن تكن أمها قد أرسلت إليها في إحدى المناسبات قطعة قماش صوفي رخيص كي تصنع منها ثوبًا لها ولابنتها.

وعندما بدأ مستشفى «سان لورينثو» بالامتناع عن إطعام «لوكريثيا» وابنتها، حاول محققو التفتيش أن يقنعوا مستشفى الكردينال «تابيرا» بتحمل مسؤولية السجينة والطفلة، غير أن إدارة المستشفى وضعت كثيرًا من العراقيل.

وكان على «لوكريثيا» وابنتها في آخر الأمر أن تتقبلا طعام الصدقات، مع فقراء المدينة الآخرين ومتسوليها، فكانتا تذهبان حاملتين قصعتيهما في صباح كل يوم لتحصل كل منهما على مغرفة من الحساء وقطعة خبز.

ومع أن «مرجريتا» كانت لا تزال صغيرة، إلا أنها بدأت تتعلم في الشوارع، برفقة أطفال آخرين لا يقلون عنها فقرًا، أولى القواعد المناسبة للفقراء من أجل تأمين لقمة عيشهم. وكانت «لوكريثيا» تنجز من دون تذمر، ولكن بإيمان أقل في قلبها كل يوم، جميع الواجبات التي يفرضها عليها الكاهن الحزين وصلواته السخية. لم تعد تنتظر بجزع لحظة إطلاق سراحها، لكنها كانت تعرف أن المستقبل يخبئ لها أملًا ضئيلًا بالخلاص من مصير بائس.

عندما انتهت سنتا عقوبتها، وبعد توقيع كل الوثائق والأوراق التي تؤكد مصالحتها مع الكنيسة وإطلاق سراحها، جمعت «لوكريثيا» أسمالها في حزمة، وخرجت ذات صباح من مستشفى «سان لورينثو»، ممسكة بيد «مرجريتا»، بحثًا عن مخرج المدينة.

ـ إلى أين نذهب يا أماه؟

لم تجب «لوكريثيا». كانت تنظر إلى انعكاس الضوء على الجبال البعيدة، وفكرت في أنه هناك، فيما حولها، توجد ممالك إسبانيا، بحقولها التي ضربها الجفاف، وقراها ومدنها التي التهمها جشع محصلي الضرائب ومأموري القضاء، وسوء نوايا رجال محاكم التفتيش. وأبعد من ذلك، في كل الاتجاهات، هناك ممالك أعداء الملك، وأعداء ديوان التفتيش والكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة، أراضي الكالفنيين الفرنسيين،

والأتراك المتوحشين، واللوثريين الكافرين. وأبعد من ذلك كله توجد أراضي بلاد الهند وممالك الخان الأعظم، وفي تلك الأماكن كلها تسود قسوة الرب كلي القدرة وانعدام رحمته. قالت «لوكريثيا» أخيرًا:

ـ سوف نرى يا ابنتي، سوف نرى.

وواصلت المسير، يلفها ضوء الصيف القوي مثل تلك الهالة الغائمة التي كثيرًا ما تحيط بشخوص الأحلام.

في مدريد وفي السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، ترى الفتاة الفقيرة الجاهلة «لوكريثيا» رؤى رهيبة مُعلنةً النهاية الكارثية للملكية الإسبانية وحكم الملك «فيلييه الثاني»، بما في ذلك المعارك البحرية وغزوات الهراطقة. ولكن عندما تبدأ هذه الرؤى في التحقق تنقلب الإمبراطورية الإسبانية رأسًا على عقب.

رواية مثيرة، تعتمد على الأمانة الشديدة في سرد الأحداث وذكر الشخصيات التاريخية الحقيقية.

«رؤى لوكريثيا» تُعيد خلق زمن لا يختلف كثيرًا عن زمننا، فتكسر الحواجز بين الواقع والخيال. رواية لا تُنسى عن مصير أولئك الذين يجرؤون على الحلم.

حصل هذا العمل الروائي الرفيع على واحدة من أهم الجوائز الأدبية للغة الإسبانية عام ١٩٩٦، وهي جائزة «ميجيل دليب» المرموقة.

«خوسيه ماريا ميرينو» يُعتبر أحد أهم الكُتاب الإسبان المعاصرين، ومن أكثرهم تقديرًا من النقاد وحصولًا على الجوائز. إنتاجه الأدبي يثير الإعجاب كمًا وكيفًا. ولد «ميرينو» عام ١٩٤١، ويعيش حاليًا في مدريد. وبالإضافة إلى شهرته كروائي فهو كاتب قصة وشاعر أيضًا.


www.bqfp.com.qa
978-99921-94-73-7
90100
9 789992 194737




تصميم وصورة الغلاف: عمرو الكفراوي